

نظرية التطور

د. رشيد الجراح

حقوق النشر
محفوظة فرنسا



Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

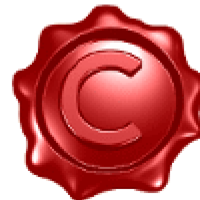
Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.

Warning : under no circumstances would the website or the Certification Authority guarantee or legitimize any use of registered documents .The authenticity given by this registration is only on the date and time of the registration as well as the existence of the registered documents. This registration would never be a substitute to a legal registration as decided by law, especially regarding patents, brands, RCS, ISBN, rules for competition games, etc.This certificate of registration would never be a substitute to an official affidavit.
Beware ! all use without the author's authorization will be considered an offence and will lead to proceedings. Every modification or copy of this document will lead to proceedings.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

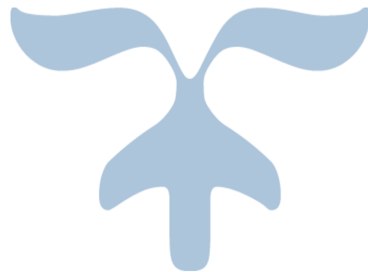
الفهرس



الجزء الأول

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء الأول: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

عندما خرج العالم ذائع الصيت داروين بنظريته المسماة نظرية التطور (النشوء والترقي)، انبرى علماء دين من جميع العقائد الدينية المعروفة معلنين مخالفتهم لهذه النظرية على أساس أنها نظرية "لا دينية"، لا بل على أساس أنها مناقضة لأسس العقائد التي يؤمنون بها، وربما كان الهجوم على النظرية (وصاحبها) من قبل أهل الدراية من أبناء المسلمين شرسا جدا، إلى أن وصل ببعضهم القول بأن من يؤمن بمثل هذه النظرية إنما يقع في الإلحاد الذي لا شك عاقبته (عندهم) الخلود في نار جهنم. وبالرغم أنهم – برأينا- لا يقدمون دليلا عقليا ولا دليلا نقليا لتبرير مواقفهم إلا أنهم لم يترددوا في وصفها بالكفر ومن ثم وصف المؤمنين بها بالزندقة والإلحاد.

لكن على الرغم من الجعجعة التي أثارها ويثيرها هؤلاء الذين نصّبوا أنفسهم مدافعين عن عقيدة الدين يبقى السؤال قائما، ألا وهو: ما مدى صحة مثل هذه النظرية بناء على ما جاء في النصوص الدينية الثابتة كالقرآن الكريم مثلا؟ فهل هناك دليل في كتاب الله يثبت أو ينفي صحة مثل هذه النظرية؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أننا نستطيع أن نجلب الدليل من كتاب الله (كما نفهمه) على صحة الإطار العام لهذه النظرية وإن كنا نظن بخطأ بعض تفاصيلها، فالنظرية بمجملها (نحن نرى) صحيحة ولكنها بتفاصيلها ربما غير صحيحة: لذا نحن نرى بأنه لا يجب علينا أن ننفي النظرية أو أن نحاربها، بل من واجبنا المشاركة فيها لتهذيبها، ومن ثم الخروج بالنسخة الجديدة المنقحة التي تفيدنا للسير إلى الأمام.

وبناء على هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا، فإننا نعتقد بأن مهمتنا يجب أن تنصب على محاولة جلب الدليل الذي يثبت صحة ما فيها وكذلك جلب الدليل الذي يثبت خطأ بعض تفاصيلها، لذا سننطلق في النقاش بطرح تساؤلين رئيسيين هما:

- كيف يمكن لنا إثبات الإطار العام للنظرية بناء على النص الديني؟
- ما هي الجزئيات الخاطئة في النظرية التي يجب تصحيحها؟

تحقق الإطار العام

من أجل إثبات الإطار العام لهذه النظرية نجد لزاما طرح تساؤلات أولية بدائية تخالج العامة وأهل الاختصاص نذكر منها:

- لماذا خلق الله هذا الناموس (القارص باللهجة الأردنية) التي تقض مضجعي في الليل فلا تتركني أنام بهدوء وهي تقتات على دمي؟
- لم لا يقبل (هذا الناموس) المفاوضات بأن أقدم له كأسا من الدم في بداية الليل فيشرب منه ويكفني شره؟
- وما فائدة تلك الحشرة التي تسرح في الفضاء الرحب أو تلك الأفعى التي تختبئ في التراب وبين الصخور أو ذلك الجرذ الذي يعيش في شبكات مجاري المدينة الجميلة؟
- لم هذا التنوع الهائل في الطبيعة؟
- أليس هناك كم هائل من المخلوقات في البر والبحر؟
- لم تتواجد جميعها في الأرض؟

- متى خلقت هذه الكائنات؟
- هل خلقت كل هذه الكائنات دفعة واحدة أم أن خلق بعضها سبق خلق البعض الآخر؟

وبعد محاولتنا الإجابة على بعض هذه التساؤلات بتقديم رؤية مفتراة من عند أنفسنا بناء على فهمنا الشخصي لبعض آيات الكتاب الحكيم، فإننا سننتقل إلى طرح تساؤلات أكثر جدية نظن أن لها علاقة بهذا الموضوع، نذكر منها:

- ما الذي يحصل بعد أن ينقضي يوم الحساب بدخول المؤمنين الجنة ودخول الكافرين النار؟
- ما الذي سيفعله الإله نفسه؟
- هل ستنتهي إلوهيته هناك، فيكون مراقبا لمن يخلد في الجنة والنار؟
- هل تقتصر (أو ربما تنتهي) مهمة الإله عند نهاية هذا الخلق؟
- الخ.

نحن نظن أن الإجابة على مثل هذه التساؤلات الأولية تكمن في تغيير نظرتنا للكون ولإله هذا الكون الذي قدره تقديرا.

المبحث الأول: باب الخلق

أما بالنسبة لمخلوقات هذا الكون الفسيح، فنحن نحتاج أولا أن نفهم هذا التنوع الهائل فيه، طارحين التساؤل عن سر وجود مخلوقات كثيرة فيه. مبتدئين النقاش بطرح تساؤلين اثنين هما:

- لم هذا التنوع الهائل في الكائنات المتواجدة معا على الأرض؟
- وكيف بدأ الخلق؟

بداية، نحن ننفي جملة وتفصيلا فكرة التوازن الطبيعي في الكون، كأن يقول قائل بأن وجود القطط مرتبط بوجود الفئران، فالقطط هي ما تحافظ على التوازن الكمي للفئران وهكذا، لأن هذه (نحن نفتري القول) فكرة محرّفة عن القصة التوراتية في بناء سفينة نوح، ومن أراد المجادلة فليرجع إلى ذلك التراث.

أما نحن، فإننا نرى أن فكرة التوازن الطبيعي في الكون هي بمثابة فكرة طفولية لأن الإله الذي خلق هذا الكون قد قدره تقديرا، لذا يستحيل أن لا يحدث فيه التوازن، وهو يستطيع أن يحدث هذا التوازن بواحدة من طريقتين، هما:

- عدم خلق الطرفين، فنحن لا نحتاج الفئران أصلا، لذا تنتفي الحاجة أيضا إلى وجود القطط، فننعم بطبيعة جميلة وهادئة دون الاثنين، أو
- فرض التوازن العددي في التكاثر، فلا يتناسل من هذه الفئة إلا بالقدر المعلوم، ويكون الموت هو القدر الذي لا مفر له للجميع.

رأينا المفترى: لعلي أكاد أجزم الظن بأن الإله قد حافظ على التوازن الطبيعي بين الكائنات بالطريقة الثانية، لذا نجد أن أعمار الكائنات الحية متفاوتة، فالبعوض الذي يكثر عدده لا يعمر طويلا، بينما تعيش كثير من الكائنات قليلة التوالد فترات عمرية طويلة جدا.

السؤال المحوري مرة أخرى: لم إذن خلق الله هذا التنوع الهائل في الطبيعة؟

جواب مفترى: إنها نظرية النشوء

السؤال: وكيف ذلك؟

دعنا نعيد نظرتنا لهذا الكون ولخالق هذا الكون، مفترين الظن (ربما مخطئين) بأن القصة هي على النحو التالي: لم يأت خلق ما في الأرض جميعا دفعة واحدة. فالكائنات الموجودة في الأرض لم تخلق دفعة واحدة، وإنما هو خلق من بعد خلق:

- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: 6]

ولم يكن هذا مقتصرا على جنس البشر، وإنما جاء عاما لكل الأمم الأخرى كالدواب والطير مثلا:

- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

لنصل إلى نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مفادها أن الكائنات الحية لم تخلق كلها جملة واحدة، فقد جاءت على نحو خلق من بعد خلق، ولعل أوضح أدلة هذا التناوب (بالنسبة لنا) هو خلق الإنس من بعد خلق الجآن:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: 26-27]

إذن، لم يتزامن خلق الجآن مع خلق الإنس وإنما جاء خلق الجآن سابقا لخلق الإنس، أليس كذلك؟

السؤال: ماذا عن الأمم الأخرى كالدواب والطير وغيرها؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن هذا التناوب في الخلق له علاقة مباشرة بالإله نفسه، ولنبدأ بالآية الأولى في كتاب الله وهي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: 1]

فخالق هذا الكون هو الله الرحمن الرحيم، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا هذه الأسماء الثلاثة (الله، الرحمن، الرحيم) هي ما ابتدأ الله (خالق هذا الكون ومدبره) به كتابه الكريم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نكاد نجزم الظن بأن هذه هي الأسماء الحسنى لخالق هذا الكون، وأن ما عداها كالغفور الرحيم أو العليم الحكيم أو السميع البصير ليست أكثر من صفات له. انتهى.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: أسماء الله الحسنى هي ثلاثة فقط: الله والرحمن والرحيم.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن هذه الجزئية، وظننا (ربما مخطئين) بأن هذه هي حالات الإله نفسه، فكانت الحالة للأولى للإله على نحو أنه الله، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد:

- ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4]

في هذه الحالة الأولى للإله، كان الله، وكان أحد، وكان صمد، وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحدا. فما كان هناك أحد غيره. ولكن بعد تلك الحالة الأزلية، اتخذ الله قراره بأن يصبح ربا، فكان لابد أن يبدأ

مرحلة الخلق، فأصبح هو الرحمن، الذي يستطيع فعل ما لا يستطيع خالق غيره أن يفعله، فبدأ خلق الكائنات واحدة بعد أخرى، فخلق الخلق الأول:

- ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥﴾ [ق: 15]

فبدأ الخلق الأول بالفلق، فالله هو فالق الحب والنوى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٩٥﴾ [الأنعام: 95]

فبدأ الخلق الأول الذي خلقه الله بالفلق، فأخرج الحي من الميت، وهكذا أخذ الخلق يتجدد واحدا تلو الآخر، والمفارقة الأولى تكمن في أن هذا الخلق أصبح قادرا على إحداث الشر، فقال تعالى:

- ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: 1-5]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كانت جميع المخلوقات التي خلقها الله قادرة على إحداث الشر، ونحن نفهم ذلك على نحو أن جميع مخلوقات الله كالدواب والطير التي تطير بجناحيها والجن هي أمم أمثالنا، وهي قادرة على إحداث الشر. فالبعوض أمة مثلنا، والذباب أمة مثلنا، والفئران أمة مثلنا، والقطط أمة مثلنا، والأفاعي أمة مثلنا، والأسود أمة، وهكذا. وهي تستطيع جميعا أن تحدث الشر، لذا طلب الله منا أن نستعيذ بربها الذي خلقها من الشر الذي قد تحدثه فينا.

- ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: 1-2]

نتيجة مفتراة (1): في الأزل كان الله ولم يكن هناك شيء آخر غيره.
نتيجة مفتراة (2): في المرحلة التالية، أصبح هذا الإله الأحد (أي الله) ربا، فبدأ مرحلة الخلق.
نتيجة مفتراة: (3): بدأ الله الخلق الأول بالفلق، فأخرج الحي من الميت.
نتيجة مفتراة (4): أخذ الخلق يتجدد واحدا تلو الآخر.
نتيجة مفتراة (5): أصبح هذا الخلق قادرا على إحداث الشر.

السؤال: كيف بدأ الخلق؟
جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: الفوقية
السؤال: كيف ذلك؟
رأينا المفترى: نحن نظن أن الخلق قد بدأ بالأمة الأضعف على الإطلاق، ثم أخذ الله يخلق فوقها خلقا أقوى منها، فكان الخلق الثاني، ثم خلق الخلق الثالث فوق الخلق الثاني، وجاء الخلق الرابع ليهمن على ما دونه ولكنه ظل أضعف من الذي فوقه، وهكذا. فكل أمة جديدة هي فوق سابقاتها جميعا، حتى جاء الخلق قبل الأخير وهو الجآن:

- ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 27]

فكان الجآن هو الخلق الذي سيطر على كل ما سبقه من الأمم، وظل على تلك الحالة حتى خلق الله الإنس:

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: 71]

وفي هذه المرحلة طلب الله منهم، أي من الجآن (والملائكة فصيلة منهم)، أن يسجدوا لهذا المخلوق الجديد:

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 71-72]

فأصبح الإنس هو المخلوق الذي يحتل المرتبة الأعلى، فكان فوق جميع المخلوقات الأخرى التي سبقته، لأن خلقه كان في أحسن تقويم:

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: 4]

ولكن بالرغم من أن هذا الكائن الأخير (أي الإنس) هو مخلوق جديد إلا أن خلقه لم يأت من جنسه، وإنما جاء بطريقة النشوء، أي جاء من خلق سابق له، فالله هو من أنشأنا من ذرية قوم آخرين. قال تعالى:

- ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: 133]

فهذه الآية الكريمة تبين لنا (كما نفهمها) بأن الله هو من خلقنا لكنه أنشأنا من ذرية قوم آخرين. فهناك إذن فرق بين خلقنا وإنشائنا. فالخلق شيء والإنشاء شيء آخر.

لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليها هي الافتراء الخطير التالي: جاء خلق كل أمة من ذرية من سبقه في الترتيب الخلقي، فكما خلق الله الإنس (المخلوق الأخير) من ذرية قوم آخرين، جاء خلق الكائنات الأخرى بهذه الطريقة، مادام أنها جميعا أمم أمثالنا، قال تعالى:

- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

فكل الدواب الموجود في الأرض، وكل الطير التي تطير بجناحيها في جو السماء، هي – لا شك- أمم أمثالنا، لذا نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأنها جاءت جميعا على نحو خلق من بعد خلق، ولكنها أنشئت (كما حصل مع الإنس) من ذرية قوم آخرين.

ولتوضيح الصورة التي في مخيلتنا أكثر، نحن نفتري الظن بأن الخلق الأول قد بدأ بفلق الحب والنوى:

- ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: 95]

فأخرج الحي من الميت، فكان الخلق الأول هو أمة بحد ذاتها، وما أن اتخذ الإله قرار بخلق آخر جديد، حتى أنشأه من ذرية الأمة الأولى، وأنشأ الخلق الثالث من ذرية الخلق الثاني، وهكذا، حتى جاء خلق الإنس، فأنشأه الله من ذرية الخلق الذي سبقه وهو الجآن.

نتيجة مفتراة مهمة جدا (1): خلق الله البشر من طين.
نتيجة مفتراة مهمة جدا (2): أنشأ الله البشر من ذرية الجآن.

نتيجة مفتراة مهمة جدا (3): أنشأ الله كل أمة من ذرية من سبقها من الأمم، فأصبح هناك تدرج زمني أفقي (خلق من بعد خلق)، وأصبح هناك تدرج فوقي عامودي (خلق فوق خلق).

فكانت ذرية بعضها من بعض:

- ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 34]

وأصبحت كل أمة سابقة مسخرة لكل أمة لاحقة:

- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: 32]

ففي حين أن الجآن قد علا على من سبقه من الخلق، كان الإنس هو من سخر الله له الخلق جميعا بمن فيهم الجن، وهم الذين أُمروا بالسجود لآدم:

- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: 71-72]

ومن هنا (نحن نرى) جاء الخصام بينهم في الملأ الأعلى، فلقد ظن الجآن أنه خير من الإنس، بسبب مادة الخلق التي خلق منها وهي النار، كما جاء على لسان زعيمهم إبليس:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]
- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 76]

السؤال: إذا كانت مادة خلق الجآن (النار) هي خير من مادة خلق الإنس (الطين)، فلم طلب الله من الجآن أن يسجد للإنس؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن جنس الإنس وإن كان قد خلق من طين (المادة الأدنى في الخيرية)، إلا أن الله أنشأه من ذرية من سبقه من الخلق وهم الجآن. ونحن نفهم ذلك على نحو أن الإنسان هو نسخة مطورة عن الجآن.

وهنا نصل إلى معنى التطور في الخلق الذي نحاول تسويقه بناء على فهمنا المفترى لهذه الآيات الكريمة، وهنا نرى أننا نتلاقى مع نظرية التطور التي قدمها عالم الطبيعة الشهير تشارلز داروين؛ فنحن نرى أن التطور الذي تحدث عنه دارون هو النشوء بذاته، أي عندما أنشأ الله كل خلق جديد من ذرية الخلق السابق. فالتطور عند داروين هو نشوء عندنا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفهم معنى التطور الذي تحدث عنه داروين على نحو أنه نشوء، بمعنى أن يكون الخلق الجديد (كأمة) هو نسخة أكثر تطورا من الخلق السابق (كأمة)، فالقط (كأمة) هو نسخة أكثر تطورا من الفأر (كأمة). والجآن - لا شك عندنا- هو أكثر تطورا من كل من سبقه من المخلوقات كأمم سابقة، ولكن الإنسان (كأمة) كان هو الأكثر تطورا من الجآن نفسه ومن كل من سبقه من جميع المخلوقات المتواجدة في الأرض. لذا أصبحت كلها مسخرة لهذا المخلوق الأخير.

السؤال: كيف بدأ الخلق إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن أول أمة خلقها الله كانت هي الأمة الأضعف من بين جميع المخلوقات المتواجدة الآن في الطبيعة، كما نفتري الظن بأن آخر أمة خلقها الله (أي الإنس) هي الأمة التي تسود فوق كل

المخلوقات السابقة، وهي الأمة التي سخر الله لها كل من سبقها من خلقه. ولو حاولنا إلقاء نظرة أولية سريعة على ما يحدث في الأرض، لوجدنا أن الإنسان هو المتحكم الأقوى بكل ما في الأرض بمن فيهم المخلوقات الأخرى (أي الأمم الأخرى) حتى وأن سبقته في مرحلة الخلق. وهذا ما نحاول الترويج له تحت مبدأ بالفوقية التي تتخذ شكل السلم المتدرج، فيصبح سلم الفوقية متدرجا على النحو التالي:

الإنسان
الجآن
...
....
...
...
...
...

السؤال: إذا كنا نعلم بأن الإنسان هو الخلق الأخير، فمن هو الخلق الأول؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما هي الأمة التي بدأ الله خلقها أولا، فكانت هي الأمة الأضعف من بين جميع مخلوقاته؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) تبين لنا ما هي الأمة التي خلقها الله أولا، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة: 26]

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه الآية الكريمة لتجد أنها تتحدث عن البعوضة، ولتجد أن الله قد ضربها ولا يستحي بضربها كمثل، ليكون ذلك مثار تساؤلات كثيرة نذكر منا:

- لماذا ضرب الله مثلا بعوضة؟
- ما معنى أن الله قد ضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها؟
- ما معنى البعوضة فما فوقها " بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ "؟
- لماذا لا يستحي الله أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها "إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ"؟
- لماذا يكون ضرب هذا المثال فارقا للفئة المؤمنة عن الفئة الكافرة؟
- كيف علم الذين آمنوا أن هذا هو الحق من ربهم " فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ "؟
- لماذا استغرب الذين كفروا من ضرب هذا المثال " وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ "؟
- كيف يكون ضرب هذا المثال سببا في ظلال كثير " يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا "؟

- كيف يكون ضرب هذا المثال سببا في إيمان كثير " وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ "؟
- ولماذا لا يضل من وراء ضرب هذا المثال إلا القوم الفاسقون " وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ "؟
- الخ.

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا يدعونا إلى تقديم الافتراءات التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

- كانت البعوضة هي الخلق الأول، فكان كل الخلق الآخر هو خلق فوقها.
- أصبحت هذه القضية محورية في الفصل بين فئتين: فئة مؤمنة وأخرى كافرة.
- لو تدبر المؤمنون كتاب الله لوجدوا العلم فيها جليا، فأصبحت دليلا لا يرد على صدق هذا الكتاب الذي يبين لهم ما هم فيه مختلفون.
- لو قرأ الذين كفروا هذه الآية لأثارت للوهلة الأولى السحرية والاستهجان في نفوسهم عن ما جاء في هذا الكتاب لأنهم سيظنون أن هذا من باب الكلام المبتذل الذي لا فائدة فيه.
- لكن عندما يتبين لهم حقيقة هذه الآية الكريمة فستنزل كالصاعقة على رؤوسهم لأنهم سيجدون ما تجادلوا فيه من علم على مدى قرون من الزمن واضحا جليا بسيطا قد سطره الله في كتابه الذي أحكم آياته.
- الخ.

الدليل: لو تدبرنا مفردة القوم الفاسقين التي جاءت في نهاية هذه الآية الكريمة:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: 26]

لوجدناها في كتاب الله قد جاءت مصاحبة في أكثر سياقاتها لأهل الكتاب، خاصة اليهود:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِىۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 25-26]
- ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [المائدة: 108]
- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَاۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: 5]

فأهل الكتاب هم – لا شك عندنا- أصحاب علم، فهم من شهد الله لهم بأن فيهم علماء:

- ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: 197]

ولكن هذا لا يمنع أن يكون فيهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون:

- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: 78]

بينما الأمم الأخرى (بمن فيهم نحن) فهم أميون بمجموعهم وقل أن نجد فيهم العلماء، فالله هو بعث في الأمين رسولا منهم:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: 2]

وقد لهج لسان علماء بني إسرائيل بأن ليس عليهم في الأميين سبيلا:

- ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: 75]

ونحن نفتري القول بأن فسقنا (نحن الأمين) قد جاء من كثرة اهتمامنا بما هو متاع الحياة الدنيا وزينتها، تاركين البحث في العلم الحقيقي لغيرنا، فكانت التجارة والأموال والأزواج والأبناء والآباء والمساكن أحب إلينا من كل شيء آخر:

- ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]

فكان هناك (نحن نفتري الظن) نوعان من الفاسقين، وهم:

- علماء بني إسرائيل الذين يبحثون عن العلم في كل شيء إلا في كتاب الله (كداروين وأينشتاين ونيوتن وغيرهم).
- الأميون الذين اشتغلوا بمتاع الحياة الدنيا فما ظنوا أنهم ملزمون بالبحث عن العلم الحقيقي في الكتاب المتوافر بين أيديهم.

وهؤلاء هم من استحقوا جميعا الخزي في الحياة الدنيا:

- ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: 5]

وأكثر من أصابهم هذا الخزي فهم الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، لا لشيء وإنما إتباعا لأهوائهم:

- ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن

يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة: 85]

وهؤلاء الذين أصابهم الخزي هم الذين لن يهديهم الله أبدا حتى وإن استغفر لهم النبي نفسه:

- ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: 6]
- ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة: 80]
- ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: 96]

دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون من الفاسقين، وأعوذ بك ربي أن يصبني الخزي في الحياة الدنيا أو أن أرد يوم القيامة إلى أشد العذاب، وأدعوك وحدك أن تعلمني ما لم أكن أعلم، فإني أشهدك بأني قد آمنت بالكتاب كله، إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد،

لقد احتدم الصراع بين علماء بني إسرائيل (كإسحق نيون وألبرت أينشتاين وتشارلز روبرت داروين) الذين يبحثون عن العلم في كل مكان مهملين في الوقت ذاته كتاب الله كمصدر للمعلومة الصحيحة التي لا ريب فيها من جهة والأميين الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض من جهة أخرى.

ففي حين أن الطرف الأول (العلماء) يظنون أن كتاب الله ليس جديرا بأن يكون مصدرا للمعلومة مادام هذا الكتاب في نظرهم ليس أكثر من تراث الأولين الذي لا يرقى لدرجة المصداقية العلمية القابلة للتجربة والبرهان، ظن الطرف الآخر أن كتاب الله لا يحتوي دليلا يثبت أو ينقض هذه النظريات البشرية الموضوعة على طاولة النقاش للبحث العلمي الصحيح.

فكم تحدث هؤلاء الأميين عن فقه العبادات كالصلاة والصيام والحيض والنفاس، ولكن مؤلفاتهم تخلو تماما من ذكر لهذه الأفكار العلمية التي ربما تؤهلنا لنكون قادرين على النفاذ من أقطار السماوات والأرض:

- ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: 33]

وقد كانت فكرة التطور التي طرحها داروين في نظريته ذائعة الصيت واحدة من نقاط التفريق بين الطرفين، فكان كلاهما (نحن نفتري القول) من الفاسقين غير المؤهلين للهداية من الله.

ولما كنا نظن بخطأ الطرفين، وجب علينا أن نسلك طريقا غير الطريق التي سلكها كل طرف من الفريقين المتخاصمين، ولعل أبسط مقومات التفكير عندنا تبني على العقيدة التي تجليها الآيات الكريمة التالية التي تسطر السنة الإلهية بأنه لم يفرط في الكتاب من شيء:

- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: 38]

وأنه قد فصل كل شيء تفصيلا:

- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: 12]

لذا، نحن على العقيدة التي مفادها أن كل بحث علمي، يحاول إيجاد الحقائق الكونية هو بحث جدير بالاهتمام، ولكن شريطة أن يستند على ما في الكتاب من علم. فالبحث في نظرية التطور يجب أن يبدأ من الكتاب نفسه. ونحن نظن أن الآية الكريمة التي أوردناها سابقا، تشكل (كما نفهمها) نقطة البداية في هذا المبحث العلمي الكبير، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: 26]

لنسطر بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة (كما نفهمها) الافتراء الخطير جدا التالي: كانت البعوضة هي الخلق الأول، فكانت هي الأضعف، وكل ما خلق بعدها قد خلق ليكون فوقها (مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)، فالفوقية مبنية (نحن نفتري القول) على معنى التدرج، قال تعالى:

- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 164-165]

دعاء: آمنت أنه لا إله إلا الله، أعوذ بك ربي أن أبغي إلاها غيرك وأنت رب كل شي، وآمنت إنا إليك راجعون فتنبئنا بما كنا فيه مختلفون، فأنت من جعلتنا خلائف في الأرض ورفعت بعضنا فوق بعض درجات، وأدعوك وحدك أن أكون في أعلى الدرجات، إنك أنت الغفور الرحيم.

لذا نحن نتجرأ على تسطير الافتراء العلمي التالي: نحن نرى ضرورة تصحيح نظرية التطور لتصبح نظرية الخلافة والتفوق أو الفوقية. فبدل أن نتحدث على أن الكائنات الحية تتطور، علينا أن نفهم أن كل الكائنات الحية قد جاءت لتخلف بعضها البعض وليكون بعضها فوق بعض درجات.

تبعات هذا الظن المفترى من عند أنفسنا:

أولا، إن من أول وأبسط مبادئ هذا التفكير (على علاّته) هو الظن بأن التطور الذي تحدث عنه اسحق نيوتن لا يخص الفصيلة الواحدة، فالبعوض هو البعوض نفسه منذ أن خلق الله الكون وسيبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وكذلك هي الزواحف والطير والدواب، لذا لم يحدث تطور على أي فصيلة من فصائل الكائنات الحية منذ أن خلقت وحتى تفني عن آخرها في نهاية هذا الوجود حتى ترجع كلها إلى ربها.

ثانيا، نحن نظن أن التطور الذي تحدث عنه داروين هو في الحقيقة (كما نفهمها) عبارة عن نشوء، فكل صنف من الكائنات قد نشأ من ذرية من سبقه من الكائنات على سلم الفوقية.

ثالثا، نحن نظن أن هذا النشوء هو عبارة عن نشوء تدرجي، فكل صنف يرتبط أكثر بالصنف الذي سبقه مباشرة والصنف الذي لحقه. فالجرذ هو أقرب إلى الفأر منه إلى الأسد، والحمار هو أقرب إلى الخيل منه إلى البقر، والإنسان هو أقرب إلى الجآن منه إلى الكلب، وهكذا.

رابعا، نحن نظن أن هذه الكائنات مرفوع بعضها فوق بعض درجات، فربما تكون المسافة بين الفأر والقط درجة واحدة، ولكن المسافة بين الفار والجآن أو الإنس مثلا هي درجات كثيرة.

خامسا، نحن نظن أن الهدف من هذه الفوقية هو التسخير، فالمسخر هو أقل درجة من المسخر له، فالقط هو فوق الفأر والكلب فوقهما الاثنين، وهكذا، إلى أن نصل إلى مرتبة الإنسان الذي سخر الله له كل ما في الأرض:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: 65]
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]
- ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: 12-13]

ومادام أن الله قد سخر لنا ما في الأرض والبحر والسموات جميعا، فإنه من الاستحالة بمكان أن يكون الله موجود بذاته في أي من هذه الأماكن، وذلك لأن الأرض جميعا قبضته والسموات مطويات بيمينه:

- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 67]

وبهذا يكون الإنسان هو سيد هذا الكون الذي يجري بأمر ربه.

السؤال: لماذا؟ أو كيف يمكن أن نتصور كيف بدأ الخلق؟

في المرحلة الثانية (عندما اتخذ الله قراره بأن يكون ربا خالقا) بدأ هذا الرب العظيم خلقه بالبعوضة، فكانت هي الخلق الأول:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: 26]

فلم يكن هذا ليجلب الحياء أن يذكره الله في كتابه الكريم كمثل (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) ليضل الله به كثيرا ويهدي به كثيرا "يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ".

السؤال: لماذا لا يستحي الله أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نؤمن بأن هذا الخالق الكريم قد بدأ الخلق من مرحلة يستحيل على غيره من الخالقين أن يصلوا لها ولو اجتمعوا له، فبالرغم أن هذا المخلوق الأول هو الأضعف في سلم الفوقية في الخلق، إلا أن الذين هم من دون الله لا يستطيعوا أن يصلوا إلى هذه المرحلة مهما بلغت قدرتهم على الخلق، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]

فكل الذين هم من دون الله على درجة من الضعف لدرجة استحالة قدرتهم على الوصول إلى أن يخلقوا خلقا كالخلق الأول الذي خلقه الله (الذباب)، فالإنسان الذي يحتل أعلى درجات الخلق قد خلق أصلا ضعيفا:

- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: 28]

ومن هذا الجانب يأتي (نحن نرى) عدم حياء الله بأن يضرب البعوضة مثلا:

- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة: 26]

فإذا كنا نحن (الناس) لن نستطيع أن نخلق مثل الخلق الأول (البعوضة)، فهذا بحد ذاته دليل كاف على أن نؤمن بضعفنا مقابل القوة المطلقة المهيمنة للإله نفسه. فنحن لن نستطيع مهما حاولنا أن نصل في نهاية المطاف إلى المرحلة التي بدأ الإله فيها خلقه. وهذا يدعونا إلى أن نؤمن بالتالي:

- شدة ضعف الإنسان.
- مقابل القدرة الرفيعة المطلقة للإله.

ولعل هذه النقطة على بساطتها (بمنطقنا الركيك هذا) كفيلة بأن تجعل القلب المؤمن مدركا لقدر الإله. فالذين لا يستطيعون أن يتفهموا هذه الجزئية سيصعب عليهم أن يقدروا الله حق قدره:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: 67]

دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن أكون من المؤمنين المخلصين، فأنا أعلم أني لا استطيع أن أقدرك حق قدرك ليس فقط بسبب ضعفي وقلة حيلتي ولكن لأنك إله أعظم من أن أقدرك حق قدرك، إنك أنت العزيز الكريم.

دعنا إذن نحاول (بهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا) أن نتصور ما حدث في الخلق الأول: بدأ خلق الله بالخلق الأضعف (بعوضة)، وهي الكائن الذي أخرجه الله حيا من الموت، وهذه المرحلة على هوانها على الله إلا أنها من الرفعة لدرجة استحالة الذين من دونه أن يصلوها مهما بلغوا من العلم، حتى وإن اجتمعوا لها، وذلك لضعف الطالب والمطلوب:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]

مقابل القدرة الإلهية المطلقة. فهو الذي بدأ الخلق هو الذي يعيده وهو أهون عليه:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الروم: 27]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: ما هو مستحيل بالنسبة لمن هم دون الله هو على الله - لا شك- هين.

فالبعوضة (كواحدة من فصيلة الذباب) هو المخلوق الأضعف، ولكن على الرغم من ضعف هذا المخلوق الذي هو على الله هيّن (كما أن الإنسان نفسه هو مخلوق ضعيف أيضا حتى وإن كان هو المخلوق الذي يقبع على رأس قائمة سلم الفوقية في الخلق)، إلا أن خالقه عظيم لدرجة استحالة أن يصل أحد من الخالقين إلى هذه الدرجة، أي القدرة على خلق الذباب. فأصبح الذباب يقبع في أدنى مراتب سلم الفوقية، كما في الشكل التالي:

الإنس	إنسان
الجن	جآن
ذباب	بعوضة

ولكن لما كانت القدرة الإلهية بالخلق تزيد ولا تنقص، اتخذ الإله قراره بأن يخلق أمة أخرى، هي فوق البعوضة، فأنشأ خلقا جديدا من ذرية هذا الخلق الأول (البعوضة)، فكان الخلق الذي جاء بعد العوض أكثر تطورا من الذباب نفسه، فرفع هذا الخلق الثاني فوق الخلق الأول، فأصبح المخلوق الأول (الذباب) فريسة سهلة للمخلوق الجديد الذي رفعه الله فوقه. ولو تفقدنا سلوك الذباب لوجدنا أنها كائنات صغيرة في الحجم لكنها قادرة على الطيران، وفي الوقت ذاته يصعب تدجينها، فما اتخذت لنفسها مساكن محددة، ولو تفقدنا

الكائنات الأخرى القادرة على الطيران، لوجدنا أنها أكبر حجما من الذباب، وهي قادرة على أن تتخذ لنفسها بيوتا كالنحل مثلا:

- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: 68]

فالفرق بين الذباب والنحل واضح للعيان، فلا شك عندنا أن النحل مرفوع فوق الذباب درجات، وفي حين أن ضرر البعوض أكثر من نفعه، نجد أن النحل أكثر فائدة من الذباب بالرغم من قدرته على إلحاق الضر بالآخرين. فأنت قد لا تستفيد من الذباب بمقدار استفادتك من النحل، ولكن بالرغم من الفائدة التي قد تجنيها من النحل إلا أن هذا لا يمنع أن يكون النحل قادرا على أن يسبب لك الأذى.
ولو وتوسعت دائرة التفكير، وتفقدنا عالم الكائنات الطائرة كلها، لوجدنا أن الطير التي تطير بجناحيها في جو السماء لا يمكن للإنسان أن يدجنه، وإن كان نفعه للإنسان أقل من نفع النحل، ولكن ربما لا يرقى إلى درجة النحل في الفائدة. لكن يبقى هو أمة بحد ذاته:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: 38]

ولكن الطير الذي يطير بجناحيه في جو السماء ليس أمة واحدة، فهي بحد ذاتها أمم كثيرة. لذا نحن نفتري الظن بأن الله قد أنشأ بعضها من ذرية بعض، فرفع بعضها فوق بعض درجات، وأتخذ بعضها بعضا سخريا. لذا نستطيع أن نرى الهيمنة واضحة لبعض فصائل الطير على بعضها الآخر. ولا تكون هذه الهيمنة لبعض فصائل الطير على بعضها الأخرى محصورة بالطير ذاته، بل نجد هيمنة واضحة لبعض فصائل الطير على كثير من الزواحف والقوارض، لذا نحن نتجرأ على افتراء الظن بأن بعض فصائل الطير هي أكثر فوقية من كثير من فصائل الزواحف. فيصبح سلم ترتيب الفوقية السابق على النحو التالي:

الإنس	إنسان
الجن	جآن
طير	هدهد
زواحف	حية
ذباب	بعوضة

كما نلاحظ أن لبعض فصائل الطيور هيمنة على بعض الكائنات البحرية كالأسماك مثلا، لذا نحن نفتري الظن بأن بعض الطير الذي يطير في جو السماء هو أكثر تطورا من تلك المخلوقات، فيصبح الجدول على النحو التالي:

الإنس	إنسان
الجن	جآن
طير	هدهد
كائنات بحرية	
زواحف	حية
ذباب	بعوضة

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن خلق الدواب قد جاء أصلا من الماء:

- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾ [النور: 45]

ولو تفقدنا سلوك بعض الكائنات البحرية، لوجدنا أنها قادرة على العيش في البرية (الأرض) وفي الماء في ذات الوقت، فتصبح هذه المخلوقات التي نطلق عليها مصطلح البرمائية هي الأمم التي تشترك مع الطرفين، أي ما يعيش على اليابسة وما يعيش في الماء في آن واحد. لذا نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذه المخلوقات البرمائية هي أقل تطورا من الطيور.

ولعلنا لا نختلف بأن الكائنات البحرية نفسها هي أمم، فكان بعضها مسخرا لبعض، فالحيتان هي سيدة البحر بلا منازع، لذا فإن خلقها، نحن نفتري قد خضع لمنطق النشوء ذاته، فقد خلق الله بعضها من بعض، فاتخذ بعضها بعضا سخريا.

ولو دققنا في الآية السابقة مليا لوجدنا أن الاختلاف بينها يكمن في المشي، ففي حين أن بعضها يمشي على بطنه نجد أن بعضها الآخر يمشي على رجلين بينما يمشي البعض الثالث على أربع:

- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥﴾ [النور: 45]

وبالرغم أن لبعض أنواع الطير التي تطير بجناحيها هيمنة على البعوض والزواحف إلا أن لها هيمنة أيضا على كثير من الدواب التي تعيش على الأرض، فكثير من الطير تستطيع اصطياد بعض الزاحف وبعض المخلوقات البحرية الصغيرة في الحجم والضعيفة في القوة، فيصبح الجدول على النحو التالي، حيث نرتفع بالطير إلى مرتبة أعلى:

الإنس	إنسان

الجن	جآن
طير	هدهد
دواب	
كائنات بحرية	
زواحف	حية
ذباب	بعوضة

فيصبح الطير (نحن نفتري الظن) في المرتبة السابقة مباشرة للجن، ومن هنا جاءت (نحن نرى) سطوة سليمان الذي حشر له جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون:

- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: 17]

ولو تفقدنا سلوك الذباب (الأقل درجة على سلم ترتيب الفوقية) لوجدنا أنه قد يحدث ضررا، لكن ليس له هيمنة على المخلوقات الأخرى، فليس هناك كائنات مسخرة له، ولكنه لا شك فريسة سهلة (أي مسخرا) لما فوقه كالزواحف مثلا، التي هي مسخرة بدورها لما هو فوقها، فتأتي بعض الدواب كالقطط والكلاب وبعض الطيور لتقتات عليها، وهنا يبدأ دور الطير الذي يقتات على بعض الزواحف والدواب، وما أن نصل إلى مرحلة الطير حتى يبدأ منطق التسخير يتلاشى شيئا فشيئا:

- ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: 79]

السؤال: لماذا لا نجد هيمنة الطير مطلقة على كل الزواحف أو كل الدواب أو كل الكائنات البحرية؟
جواب مفترى: لأن هذه الكائنات ليست أمة واحدة وإنما هي أمم. ولو كانت كلها أمة واحدة لانتهى شأنها مرة واحدة. وسنتحدث عن هذه الجزئية بالتفصيل لاحقا بإذن الله عندما نصل إلى الغاية من هذا الخلق. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين.
وعندما نصل إلى مرحلة الجن، نجد أن من الاستحالة أن يسخر الجن لما هو دونه من الأمم، لكن يمكن أن يسخر فقط لمن هم فوقه على سلم الفوقية، وهم الإنس، كما حصل مع سليمان مثلا:

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص: 36-37]

نتائج مفتراة خطير جدا:
- كل الأمم تقبع فوق بعضها البعض.
- داخل كل أمة هناك أيضا فوقية واضحة، فبعضها يسيطر على البعض الآخر.
- الأمة الأعلى هي مهيمنة على الأمم الأدنى منها.
- تستطيع الأمة الأدنى أن تلحق الضرر بالأمة الأعلى لكن هذا لا يمنع أن تكون هي بكليتها مسخرة لما هو فوقها.

تساؤلات

- لماذا جاء خلق الله بهذا التنوع الهائل؟
- لماذا جاء خلق الله بهذا الترتيب؟
- لماذا جعل الله خلقه خلقا من بعد خلق؟

- لماذا رفع الله بعض خلقه فوق بعضه الآخر؟
- لم لم يأت كل خلقه جملة واحدة؟
- هل كان الإله يلهو أو يلعب؟
- الخ

تحذير شديد اللهجة: نحن ندعو القارئ الكريم الذي يريد المحافظة على إرثه الديني أن لا يحاول فتح الملف في الجزء القادم، لأننا سنحاول تسطير افتراءات غاية في الخطورة، ربما يصعب على قلب الكثيرين تقبلها، خاصة أولئك الذين لا يتابعون كتاباتنا منذ بدايتها، وربما لا يعلمون الكثير عن منهجية تفكيرنا، فنحن ندعو فقط العقول القابلة للتدبر أن تدخل إلى الجزء القادم بعقلية الباحث عن المعلومة، والأهم من ذلك نحن ندعو فقط من يقرأ هذه السطور ويظن بأنها نتاج فكر بشري قابل للخطأ، يمكن تهذيبه، بجلب الدليل الذي يثبت صحته أو خطأه، فهي قبل كل شيء أفهام بشرية لا ترقي إلى قدسية النص الذي بني عليه. فإياك عزيز القارئ أن تضفي على كلامنا (وإن اقتنعا ببعضه) قدسية كقدسية النص الإلهي، ومن يفعل ذلك فنحن خصمه أمام الله، وهو وحده المسئول عن فهمه، فليس في كلامنا قدسية، ولكن فيه محاولة بشرية (قاصرة) لفهم ما يدور حولنا في هذا الكون الرهيب الذي خلقه إله واحد، فأتقن صنعه:

- ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل: 88]

هذا ما سنحاول الخوض فيه في الجزء القادم من هذه المقالة بحول الله وتوفيق منه.

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير..

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان

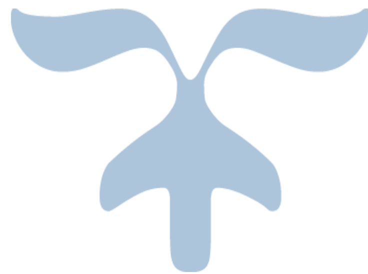
بقلم د. رشيد الجراح - 28 آب 2016



الجزء الثاني

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء الثاني: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

خلصنا في نهاية الجزء السابق من هذا الكتاب إلى تقديم الافتراءات الخطيرة التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

- الله هو أحسن الخالقين.

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 14]

- لم يأت خلق الله كله جملة واحد، فكان خلقا من بعد خلق (تسلسل أفقي زمني).
- لم يأت خلق الله كله بنفس المستوى وإنما جاء خلقا فوق خلق (تسلسل عامودي نوعي).
- جاء الخلق على شكل أمم.
- أنشأ الله كل أمة جديدة من ذرية القوم الذين سبقوها.
- احتلت كل أمة لاحقة مكانة تفوق الأمم التي سبقتها، لذا تقبع هذه الأمم فوق بعضها البعض.
- داخل كل أمة هناك أيضا فوقية واضحة، فبعضها يسيطر على البعض الآخر.
- الأمة الأعلى هي المهيمنة على الأمم الأدنى منها.
- تستطيع الأمة الأدنى أن تلحق الضرر بالأمة الأعلى لكن هذا لا يمنع أن تكون هي بكليتها مسخرة لما هو فوقها.
- كان الذباب هو الأمة الأولى، فجاء كل الخلق فوق البعوضة:

- ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝٢٦﴾ [البقرة: 26]

- كانت البعوضة (الذباب) هي الأمة الأدنى في سلم الفوقية، لكن هذه الدرجة لن يصل لها أي خالق دون الله. فأقل خلق الله درجة لن يستطيع عليه أعز الخالقين الذين هم دون الله:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: 73]

- جاء خلق الجآن من قبل خلق الإنس:

- ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 27]

- جاء خلق الإنس كآخر أمة، فأنشأه الله من ذرية القوم الآخرين الذين سبقوهم وهم الجن:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]

- الخ.

عندها طرحنا التساؤلات المثيرة التالية:

- لماذا جاء خلق الله بهذا التنوع الهائل؟
- لماذا جاء خلق الله بهذا الترتيب؟
- لماذا جعل الله خلقه خلقا من بعد خلق؟
- لماذا رفع الله بعض خلقه فوق بعضه الآخر درجات؟
- لم لم يأت كل خلقه جملة واحدة؟
- هل كان الإله يلهو أو يلعب؟
- لماذا كان الذباب هو أول الخلق، فكان كل الخلق الآخر فوقها؟
- لماذا جاء الإنس هو الأمة التي تحتل المرتبة الأخيرة في الزمن والأعلى في المرتبة بين جميع الأمم الأخرى؟
- كيف يمكن ترتيب جميع الأمم الأخرى (كالدواب والطير وغيرها) زمانيا (خلقا من بعد خلق) ومكانيا وظيفيا (خلقا فوق خلق)؟
- كيف نستطيع أن نبيّن للجميع (المؤمنين والكافرين) بأن الله هو فعلا أحسن الخالقين؟
- كيف يمكن أن نبيّن للجميع (المؤمنين والكافرين) بأن كل الخالقين الذين هم من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له؟
- ما الذي يجعل خلق الله يختلف عن ويمتاز على خلق غيره؟
- الخ

باب: الفرق بين الخلق والإنشاء

دعنا نحاول النبش في الفرق بين الخلق من جهة والإنشاء من جهة أخرى، فهناك لا شك فعل الخلق وهناك أيضا فعل الإنشاء، ونحن بداية نفتري الظن بأن الخلق هو مرحلة سابقة لـ ومختلف عن الإنشاء، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدناها تبين لنا بما لا يدع مجالا للشك بأن مرحلة الخلق هي مرحلة أولية ومقدمة (سابقة) لمرحلة الإنشاء، فالله هو من بدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين:

- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٨﴾ [السجدة: 7-8]

وما أن ينزل هذا الماء المهين في رحم المرأة حتى تستأنف مرحلة الخلق من جديد، فتصبح هذه النطفة التي قُذفت في رحم المرأة علقة، ثم تخلق العلقة مضغة، ثم تخلق المضغة عظاما، ثم تُكسى هذه العظام لحما:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]

وفي هذه المرحلة بالضبط (بعد أن تكسى العظام لحما) تأتي مرحلة الإنشاء، فيكون هذا المخلوق خلقا آخر "ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ". ويرتبط هذا (نحن نفتري الظن) بحقيقة أن يكون الله هو أحسن الخالقين "فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ".

نتيجة مهمة جدا وخطيرة جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن عملية الإنشاء هذه هي التي تميز الإله الواحد (عن غيره من الخالقين)، فيكون الله هو أحسن الخالقين "فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ". انتهى.

السؤال: ماذا تقصد بأن الله هو أحسن الخالقين؟ أو كيف يمكن أن نفهم بأن الله هو أحسن الخالقين في ضوء قدرة الله وحده على الإنشاء وعجز الخالقين من دونه على ذلك؟

جواب مفترى: تعرضنا لهذه القضية في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف عندما طرحنا التساؤل حول أن تكون قصة يوسف على وجه التحديد هي أحسن القصص، قال تعالى:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: 3]

وافترينا القول من عند أنفسنا حينئذ بأن الأحسن هو الذي لا يمكن أن يجري عليه إضافات أو تعديلات، وذلك لأنه جاء في نسخته النهائية جملة واحدة. فقصة يوسف هي أحسن القصص (مقارنة مع غيرها من القصص القرآني) لأنها – برأينا- جاءت كاملة (بجميع تفاصيلها) جملة واحدة في سورة واحدة، ولم يحصل عليها تعديل أو إضافة في أي موقع آخر من كتاب الله كما في قصص الأنبياء والرسل الآخرين. فجميع قصص الأنبياء والمرسلين الأخرى (كقصة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد) جاء ذكرها ووردت تفاصيلها في أكثر من موضع من كتاب الله على عكس قصة يوسف التي لم تذكر إلا في سورة يوسف ولم يرد لها أي تفصيل في غير هذا الموضع من كتاب الله.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف).

وبناء على هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا، نحن نظن بأن الله هو أحسن الخالقين وذلك لأنه من الاستحالة بمكان أن يتم تعديل أو إضافة (أي تحسينات) على أي خلق من خلق الله. فالذبابة هي الذبابة منذ أن خلقها الله في هذا الكون الفسيح وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويستحيل أن يحصل عليها تعديل بأي شكل من الأشكال، وينسحب هذا المنطق على جميع خلق الله ابتداء من الذبابة التي هي أدنى الخلق في سلم الفوقية الذي افتريناه إلى أعلى الخلق في ذلك السلم وهو الإنسان، قال تعالى:

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: 4]

وبهذا نصل إلى الجزئية الأولى التي نعارض فيها نظرية التطور التي اقترحها تشارلز داروين، فنحن ننفي جملة وتفصيلا أن يحدث رقي لأي أمة من الأمم التي خلقها الله، فما أن يتم الله خلق أمة محددة حتى يكون ذلك هو خلق أحسن، يتعذر أن يجري عليه أي تعديل أو اضافة، لأن اجراء أي اضافة أو تعديل عليه ستجعله يخرج من الطور الخلق الأحسن الذي خلقه الله، فيؤدي إلى هلاكه بدل أن يؤدي إلى رقيه. ولكن يمكن بالمقابل أن يجري عليه ردا إلى الأسفل بدلا من رقي إلى الأعلى، قال تعالى:

- ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: 4-5]

نتيجة مهمة جدا (1): لا يمكن أن يحدث تحسين على خلق الله لأن خلق الله هو الأحسن.

نتيجة مهمة جدا (2): يمكن أن يرد خلق الله فيرجع إلى الوراء بدلا أن يرتقي إلى الأعلى.

الدليل: نحن نفتري القول من عند أنفسنا استحالة أن يرتقي البعوض ليصبح دابة، ولكن يمكن للدابة أن ترد إلى الوراء فتصبح بعوضا، وبهذا المنطق يمكننا القول بأنه لا يمكن للقرد أن يصبح إنسانا (كما ظن داروين)، ولكن يمكن للإنسان أن يرد إلى الوراء فيصبح قردا، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ [البقرة: 65]
- ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝١٦٦﴾ [الأعراف: 166]

ولو حاولنا تدبر الآية الكريمة التالية، لوجدنا فيها (كما نفهمها) العجب، قال تعالى:

- ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ [المائدة: 60]

السؤال: إذا كان الله قد رد الذين اعتدوا في السبت قردة خاسئين، فكيف أصبحوا خنازير؟ ولم أصلا أصبحوا قردة وخنازير على وجه التحديد؟ فلم لم يصبحوا كلابا أو حميرا؟ الخ.

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) أن هذه الآية الكريمة ترشدنا (كما نفهمها) إلى منهجية التدرج في سلم الفوقية.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كان الخلق متدرجا في الفوقية، كان لزاما أن يراعي هذا السلم في عملية الرد إلى الأسفل. فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هناك خلقان اثنان من بين جميع خلق الله من كان الهدف من خلقهم هو العبادة، وهم الجن والإنس،

قال تعالى:

- ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56]

ولو تدبرنا جميع السياقات القرآنية التي تقرن الجن بالإنس، لوجدنا أن العذاب في الآخرة لا يقع إلا على هاتين الأمتين على وجه التحديد:

- ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝١٣٠﴾ [الأنعام: 130]

- ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٞ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابٗا ضِعْفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعْفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38]
- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٞ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٞ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٞ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]
- ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥﴾ [فصلت: 25]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت:29]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾ [الأحقاف: 18]

وهؤلاء هم المؤهلون فقط (من بين جميع الأمم التي خلقها الله) للنفاذ من أقطار السماوات والأرض، قال تعالى:

- ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمن: 33]

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله يعقد مقارنة بين الجن والإنس من جهة والأنعام من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٞ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٞ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٞ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]
- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: 44]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا لا تصدقوها: لما كان الله قد عقد مقارنة بين الجن والإنس من جهة والأنعام من جهة أخرى، كان لزاما أن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الأنعام هي خلق يقع ما دون الجن والإنس على سلم الفوقية، ولو حصل رد للجن والإنس إلى الأسفل، لكان الأولى بأن يرد هؤلاء إلى خلق يشبه الأنعام، فكانوا قردة وخنازير.

ولو حاولنا أن نربط هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا مع ما جاء في قوله تعالى عن تحريم الطعام، لوجدنا الآيات تتحدث بشكل علني عن حرمة أكل لحم الخنزير على وجه التحديد، قال تعالى:

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173]
- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا

تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾ [المائدة: 3]

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ [النحل: 115]

وقد افترينا القول في سلسلة مقالاتنا عن تحريم لحم الخنزير بأن سبب تحريم لحم الخنزير يتعلق بدرجة القرابة بيننا كأمة وبين هذه المخلوقات. فالخنزير هو قريب لنا في صلة الدم كقربة العمة والخالة التي حرمت علينا بالنكاح.

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان تحريم لحم الخنزير)

وهنا يبرز سؤال وجيه عن سبب عدم ورود نص مشابه للتحريم يخص القردة على وجه التحديد. فلم (نحن نسأل) لم ينص القرآن الكريم بصريح اللفظ على حرمة أكل لحم القردة مثلا؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود أيضا إلى فقه التدرج في سلم الفوقية.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نفتري الظن بأن القردة هي جزء من الدواب كالحمير والبغال بينما الخنزير هو أقرب إلى الأنعام كالماعز والبقر.

الدليل، قال تعالى:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ [فاطر: 28]

لو تدبرنا هذه الآية الكريمة بشكل دقيق، لوجدنا أن التدرج واضح في ثلاثة من مخلوقات الله، وهي على الترتيب: الناس فالدواب فالأنعام.

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية لوجدنا أن ما أحله الله لنا في الأكل هي فصيلة الأنعام فقط، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ [المائدة: 1]

والآية الكريمة التالية ترشدنا إلى أن الأنعام قد خلقت بعمل الأيدي الإلهية، وهذه الكائنات هي التي ذلّلها الله لنا، لنأكل منها ونركبها، قال تعالى:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ﴿٧٢﴾ [يس: 71-72]

ولكن الدواب - بالمقابل - هي أمة أمثالنا:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

وهي كائنات مسخرة ولكنها ليست مذللة، فنحن نستطيع أن نستخدمها لحاجاتنا، ولكن لا يجب أن نأكل منها كما في حالة الأنعام. فالفرق بين الأنعام من جهة والدواب من جهة أخرى هو – برأينا - فرق بين ما هو مذلّل وما هو مسخر. فالمذلل هو مسخر لكن المسخر ليس مذلل.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: في حين أننا نستطيع أن نستفيد من المذلل لقضاء حوائجنا فنستفيد منها ونستطيع أيضا أن نأكل منها (وهي الأنعام)، لا نستفيد من المسخر إلا لقضاء الحوائج ولكن لا نأكل منها. فنحن نستطيع أن نستفيد من الدواب لقضاء بعض حوائجنا لكننا لا نستطيع أن نأكل منها. وهذا فرق واضح بين الحمير والبقر مثلا؛ ففي حين أننا نستطيع أن نستفيد من الحمير لقضاء بعض حوائجنا (كالركوب)، إلا أننا لا نأكل منها لأنها ببساطة من جنس الدواب التي سخرها الله لنا. أما البقر فإننا نستطيع أن نقضي بواسطتها بعض حوائجنا (كالحراثة) ونستطيع في الوقت ذاته أن نأكل منها، لأنها ببساطة من الأنعام التي سخرها الله لنا وذللها لنا.

نتيجة مهمة جدا: ما هو مذلل (كالبقر) فهو أيضا مسخر، لكن ما هو مسخر (كالحمير) ليس بالضرورة أن يكون مذلل.

السؤال: ما علاقة هذا بسلم الفوقية؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نظن أن خلق الدواب هو فوق خلق الأنعام. ونحن نتجرأ على القول بأن الدواب قد خلقت أصلا من ذرية الأنعام. فصبح سلم الفوقية لهذه الكائنات على النحو التالي:

...	
الدواب	
الأنعام	
...	

السؤال: ما علاقة هذا بالرد إلى الأسفل؟

جواب مفترى: عندما أراد الله أن يعاقب الذين اعتدوا في السبت، جاءت العقوبة على نحو أن يجعلهم بداية قردة خاسئين فقط، فقال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة: 65]
- ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: 166]

فكانت المرحلة الأولى في الرد (نحن نتخيل) على نحو أن يكون هؤلاء (الذين اعتدوا) قردة خاسئين (من فصيلة الدواب). لكن العقوبة لم تقف عند هذا الحد، بل حصلت مرحلة ثانية وهي جعل البعض منهم قردة وخنازير، فكان ذلك شرا مكانة وأضل سبيلا، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- مرة أخرى في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: 60]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لمّا كان هذا شرا مكانا وأضل سبيلا، فإننا نتجرأ على افتراء القول بأن مكانة الخنزير هي أدنى من مرتبة القردة.

إن ما نحاول أن نجهد أنفسنا للوصول إليه (ربما مخطئين) هو الافتراء الذي مفاده أن ترتيب هذه المخلوقات على سلم الفوقية يكون على النحو التالي:

الإنس	
الجن	
الطير	
دواب (القردة)	
أنعام (الخنازير)	

السؤال: ما فائدة هذا التفريق بين القردة من جهة والخنازير من جهة أخرى؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نفتري القول بأنه في حين أن القردة تقع ضمن فصيلة الدواب (التي لا يحل لنا أصلا أكلها)، فإن الخنازير تقع ضمن فصيلة الدواب التي أحل الله لنا أكلها.

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: 1]

لذا، نحن نرى أن السبب في أن يأتي نص صريح يحرم علينا أكل لحم الخنزير يكمن – برأينا- في ظننا بأن الخنزير يقع أصلا في فصيلة الأنعام، فهو نوع من أنواع الماعز البري. لكن عندما اختلطت به دماء الإنس، أصبح لزاما (نحن نرى) ورود التحذير من أكله، قال تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: 12]

فمن يأكل من لحم الخنزير فكأنما يأكل لحم أخيه ميتا؟ وهذا - لا شك - أمر مكروه، تعافه النفس البشرية، كما تعاف الوقوع في علاقة جنسية مع من هم من أهل الرجل. انتهى.

السؤال: ما الفرق بين خلق الأنعام (بما فيها الخنزير) وخلق الدواب (بما فيها القردة)؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة لوجدنا أن الله قد خلق لنا مما عملت الأيدي الإلهية أنعاما:

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢﴾ [يس: 71-72]

فكان لها قلوب لكنها لا تفقه، وأعين لكنها لا تبصر، وآذان لكنها لا تسمع، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: 179]
- ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان: 44]

لكن الدواب – بالمقابل- هي أمم أمثالنا:

- ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: 38]

وهذه الدواب لها مستقر ومستودع:

- ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: 6]

كما لنا نحن البشر مسقر ومستودع:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾ [الأنعام: 98]

نتيجة مفتراة (1): مادام أن القردة من الدواب فإن لها مستقر ومستودع.

نتيجة مفتراة (2): مادام أن الخنازير من الأنعام فليس لها مستودع ومستقر.

السؤال: ما علاقة هذا بتدرج سلم الفوقية؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا:

- اتخذ الله قراره بأن يخلق الأنعام، فخلقها دون مستودع ومستقر، فكان خلق الله من الأنعام هو الأحسن، لأنه يستحيل أن نخلق كخلق الله هذا، ويستحيل أن يجري على هذا الخلق التحسين والإضافات.
- اتخذ الله قراره بعد ذلك بأن ينشئ من هذا الخلق (الأنعام) أمة جديدة تتشارك معه في كثير من الصفات كالشكل والوظيفة (القلب والبصر والسمع)، ولكنها تفوقه في الخلق، فكان لابد أن يخلق خلقا جديدا يفوق الخلق السابق، ولكنه يظل أيضا أحسن الخلق لئلا يجري عليه تعديل، فجاء خلق الدواب، فامتازت الدواب عن الأنعام بالمستقر والمستودع. فأصبحت هذه الأمة الجديدة، أي الدواب، قادرة على التميز لأن قلوبها تفقه وأعينها تبصر وآذانها تسمع، لكنها (رغم ذلك) ظلت غير مكلفة بالعبادة.
- اتخذ الله قراره بعد ذلك بأن ينشئ من هذا الخلق خلقا آخر، فكانت الطير، فأصبحت أعلى مرتبة من الدواب، فأصبحت قادرة على التسبيح.

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]

- اتخذ الله قراره بأن ينشئ من هذا الخلق خلقا آخر فوقه، فكان الجن، فأصبح قادرا على العبادة.
- اتخذ الله قراره بأن ينشئ من هذا الخلق خلقا آخر فوقه، فكان الإنس.
- ظل كل خلق هو الأحسن بحيث يستحيل اجراء أي تعديل عليه.
- أصبح بالإمكان أن يرد أي من خلقه إلى ما هو دونه.
- أصبح من الاستحالة بمكان أن يرتقي هذا الخلق إلى ما بعده.
- أصبح الجن والإنس (فوق جميع الأمم السابقة) قادرين على العبادة.
- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]

السؤال: لماذا لا يستطيع أي خلق من خلق الله أن يرتقي إلى ما هو فوقه؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا فلا تصدقوه: نحن نظن أن الدافع في ذلك يعود إلى سببين رئيسيين، وهما:

أولا، لو كان هناك مجال للتحسن (أي الارتقاء) لما كان الله هو أحسن الخالقين.

ثانيا، لو كان هناك مجال للارتقاء لتعاض هذا مع علم الله. انتهى.

هذان مبحثان هما – برأينا- كبيران جدا، يحتاجان إلى كثير من التفصيل، حتى تتبلور الصورة التي في ذهننا بشكل أكثر وضوحا للقارئ الكريم، لذا نحن نطلب من كل قارئ لهذه السطور أن لا يتعجل، فلا يقفز إلى نتائج ربما لا يحمد عقباها، ونطالبه في الوقت ذاته أن لا يضع الكلام في أفواهنا فيقوّلونا ما لم نقل، وإن كنا نطالبه في الوقت ذاته أن يمعن التفكر وأن يحاول التدبر، عسى الله أن يهدينا جميعا سواء السبيل. لذا سنحاول أن نتناول كل واحد من هذا الافتراءات الكبيرة والخطيرة جدا بشكل مفصل، علّنا نصل في نهاية المطاف (بحول الله وتوفيق منه) إلى صورة أكثر وضوحا لطبيعة الخلق الإلهي والغاية منه.

أما بعد،

باب: الله أحسن الخالقين

دعنا نبدأ النقاش هنا بالحوار التالي الذي حصل بين موسى من جهة وفرعون من جهة أخرى. فهذا فرعون (في اللقاء الأول بينهما) يسأل موسى عن ربه:

- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: 49]

فجاء الرد من موسى ربما مفاجئا لنا (ولكنه لا شك مفهوما عند فرعون) على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: 50]

السؤال: لماذا جاء رد موسى على هذا النحو؟

رأينا المفترى: نحن لا نشك قيد أنملة بأن موسى يعلم بأن الله هو أحسن الخالقين:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14]
- ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصافات: 125]

والآية الكريمة التالية تبين لنا بأن الله هو فعلا من أحسن كل شيء خلقه:

- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: 7]

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من ذلك في سياق حديثنا عن الحوار الذي دار بين موسى وفرعون؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه كما يعلم موسى بأن الله هو أحسن الخالقين، فهو يعلم بأن هناك خالقين غير الله، لكن المفارقة تكمن في أن الله هو من أحسن كل شيء خلقه، أليس كذلك؟

السؤال: وما الفرق؟

رأينا المفترى: مادام أن الله هو من أحسن كل شيء خلقه، لذا يستحيل أن يحدث على خلق الله تحسين، لكن الخلق الذي ربما يخلقه غيره ليس الأحسن لأن هناك إمكانية إدخال التحسينات والتعديلات عليه.

السؤال مرة أخرى: ما فائدة ذلك في ضوء الحوار الذي دار بين موسى وفرعون؟

تخيلات مفتراة خطيرة جدا جدا لا تصدقوها: نحن نظن بأن موسى كان يعلم أن فرعون يملك القدرة على الخلق، لكن خلقه (أي خلق فرعون) ليس الأحسن لأن هناك إمكانية أن يجري عليه التحسينات والتعديلات، فيستحيل أن يصل هذا الخلق (الذي هو من خلق الذين من دون الله كفرعون) إلى مرتبة الأحسن. فإذا كان أدنى خلق الله على سلم الفوقية هو البعوض (الذباب).

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: 26]

فيستحيل أن يصل فرعون (كإنسان أو حتى كإله من دون الله) إلى درجة أن يخلق ذبابا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73]

لذا، نحن نحاول أن نستنبط القول من عند أنفسنا بأن حجة موسى هذه "قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ" في رده على سؤال فرعون الأول "قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ" كانت الإسفين الأول الذي غرزه موسى في نعش ربوبية وإلوهية فرعون، وبكأن موسى (نحن لازلنا نتخيل) يقول لفرعون بأنك (يا فرعون) إله كاذب، لأنك ببساطه لا تستطيع أن تخلق خلقا كخلق الإله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى:

- ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]

فالفرق بين إله موسى (الإله الحقيقي) وفرعون (الإله الكاذب) يكمن أولا وقبل شيء في أمرين اثنين هما:

- أن الله هو أحسن الخالقين
- أن الله يهدي

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: 78]

بينما فرعون، فهو بالمقابل:

- يخلق ولكنه ليس أحسن الخالقين
- لا يهدي

- ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]

ولو تدبرنا الحوار الذي دار بين موسى من جهة وفرعون من جهة أخرى، لوجدنا بأن موسى قد أسكت (بهذه الحجة) فرعون فما استطاع أن يستمر في الحوار بهذه النقطة على وجه التحديد، فانتقل مباشرة إلى موضوع آخر، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه الآيات في سياقها الأوسع، قال تعالى:

- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: 49-51]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل ما جرى بين موسى وفرعون في تلك المحاورة على النحو التالي: يحاول فرعون أن يختبر صدق رسالة موسى، فيكون سؤاله الأول عن ربه "قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ"، فيأتي جواب موسى كالصاعقة على رأس فرعون "قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ"، فكشف لفرعون بهذه الحجة البالغة زيغ (وضعف) دعواه بأنه إلهي حقيقي، فهذا موسى إذن يبرز الصفة الأولى للإله الحقيقي على أنه الإله القادر على أن يعطي كل شيء خلقه (وهو ما لا يستطيعه فرعون)، وأن الإله الحقيقي يستطيع أن يهدي (وهو ما لا يستطيعه فرعون أيضا). عندها أدرك فرعون في قرارة نفسه (نحن لازلنا نتخيل) ضعف قدرته مقابل القدرة المطلقة للإله الحق.

دعاء: اللهم أنت ربي، وأنت من خلقتني، فأحسنت خلقي، فأسلك وحدك أن تهديني بنورك الذي أنزلته علينا إلى نورك الحق، فأكون من الراشدين، وأعوذ بك أن يكون أمري كأمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، إنك أنت بي بصيرا.

وسنرى لاحقا بحول الله وتوفيقه بأن السياق القرآني التالي (كما نفهمه) يفصل ذاك الحوار الذي دار بين الرجلين، قال تعالى:

- ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ

نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ
مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ
مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: 32-43]

فهذا حوار بين رجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر بنعمة ربه، لكنه لا شك أكثر مالا وأعز نفرا "فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا".

وسنحاول في الأجزاء القادمة تقديم الدليل على شخصية الرجل المؤمن وشخصية الرجل الكافر الذي هو فعلا أكثر مالا وأعز نفرا.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون وما أمر فرعون برشيد.

السؤال: ما الفرق بين خلق الإله الحق الذي يعطي كل شيء خلقه فيهدي، وخلق فرعون الذي ليس الأحسن ولا يهدي؟

رأينا المفترى: نحن نظن أننا ربما نستطيع الإجابة على هذا التساؤل مما نفهم من قوله تعالى في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12-14]

لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة لوجدنا أن عملية الخلق برمتها تمر بمرحلتين اثنتين، وهما عملية خلق ثم عملية إنشاء، وتتمثل عملية الخلق في هذه السلسلة المتتالية: الطين ثم النطفة فالعلقة فالمضغة فالعظام فكسوة العظام لحما، وهنا بالضبط تبدأ عملية الإنشاء ليكون خلقا آخر "ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ" وهذا هو – برأينا- ما يجعل الله (نحن نفتري القول) أحسن الخالقين "فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ".

السؤال: وماذا عن خلق الذين هم من دون الله (كفرعون مثلا)؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نفتري القول بأنه في حين أن فرعون قادر على عملية الخلق إلا أنه بالتأكيد (نحن نظن) غير قادر على عملية الإنشاء. وهذا لا يتوقف على فرعون وحده، بل ينسحب على كل الخالقين الذين هم من دون الله كعيسى بن مريم مثلا.

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

ولكن الفرق الجوهري – برأينا- بين عيسى من جهة وفرعون من جهة أخرى هو أن عيسى كان يقوم بهذا الفعل (ي فعل الخلق) بإذن الله بينما كان فرعون يقوم بهذا العمل دون إذن الله، وإن كان كلاهما يخلق ولا ينشئ، انتهى.

السؤال: ما هي النشأة؟ وما معنى أن الله هو وحده القادر على فعل الإنشاء؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآيات القرآنية على مساحة النص القرآني كله، لوجدنا أن الله يتحدث عن نشأتين، هما النشأة الأولى:

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [الواقعة: 62]

والنشأة الآخرة:

- ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: 20]
- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ٤٧﴾ [النجم: 45-47]

ونحن نكاد نجزم الظن بأن النشأة الأولى هي ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ [الأنعام: 98]

ويكاد الظن يميل عندنا إلى القول بأن النشأة الأولى كانت من الأرض بينما كانت النشأة الآخرة من الأجنة.

ركز معنا عزيزي القارئ – إن شئت- في قوله تعالى "إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ" في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: 32]

ولو تدبرنا السياقات القرآنية الأخرى، لوجدنا أن الله قد أنشأ الشجرة:

- ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢﴾ [الواقعة: 63-72]

والله هو من أنشأ الجنات، فكانت مشتبها وغير متشابه:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: 141]
- ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ٢٠﴾ [المؤمنون: 19-20]

السؤال مرة أخرى: ما هو النشأة؟ أو كيف يمكن أن نفهم معنى فعل الإنشاء؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: هو الخلق الذي يمتاز بالقدرة على النمو. انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟

افتراء خطير جدا (1): هناك خلق قادر على النمو.

افتراء خطير جدا (2): هناك خلق غير قادر على النمو.

الدليل: عندما يخلق الله الخلق في بطن الأنثى، ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة إنشاءه، وهو ما يمكّن هذا المخلوق أن ينمو، فيخرج من بطن أمه طفلا، ثم يبلغ أشده، ثم يصل إلى مرحلة الشيخوخة:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: 67]

وهذا بالضبط (نحن نرى) ما يحدث للشجر (والزرع)، فيبدأ صغيرا، ثم ما يلبث أن يكبر شيئا فشيئا، حتى يصل إلى أن يكون حطاما:

- ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ [الواقعة: 63-65]
- ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20]

فكما أنشأ الله النبات من الأرض، كذلك أنشأنا من الأرض:

- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: 61]

فنحن (كخلق الله) قادرين على النمو (كما النبات)، لأننا أُنشئنا أصلا من الأرض، ولم يتوقف الأمر على هذا الحد، بل أُنشئنا أيضا كأجنة في بطون أمهاتنا:

- ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: 32]

السؤال: ما الفرق بين خلق الله من جهة وخلق الذين من دونه في ضوء قدرة الله على الإنشاء وانتفاء قدرة غيره على ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: في حين أن خلق الله هو خلق يملك خاصية القدرة على النمو (بفعل الإنشاء الذي جُبلنا عليه)، فإن خلق غيره لا يمكن أن يتمتع بهذه الخاصة. ولتقريب الصورة للأذهان، دعنا نتخيل ما فعله المسيح عيسى بن مريم كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]

فهذا عيسى ابن مريم يخلق لمن حوله من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرا بإذن الله، أليس كذلك؟ لكن يبقى التساؤل قائما: ماذا كان يحصل لذاك الطير الذي خلقه عيسى كهئية الطير فأصبح طيرا بإذن الله؟ فهل بدأ صغيرا في حجمه ثم ما لبث أن كَبُر شيئا فشيئا؟ هل كان يحصل تغيير على ذلك الطير الذي خلقه عيسى بن مريم بين اليوم الأول واليوم التالي، وهكذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا، فنحن نتخيل الطير الذي خلقه عيسى على نحو أنه طير بحجم معين، لا يزيد حجمة بتوالي الأيام وتقلب الليالي. فهو الطير نفسه في اليوم الأول واليوم الخمسين. لكن خلق الله – بالمقابل- يبدأ بمرحلة الأجنة فالطفولة فبلوغ الأشد فالشيخوخة ثم الموت.

ونحن لازلنا حتى يومنا هذا نستخدم مفردة الإنشاء على هذا النحو، كقولي مثلا: نشأت أنا – رشيد الجراح- في بلدة المزار الشمالي من محافظة أربد في شمال الأردن. فيكون منطوق كلامي على نحو أني قد ولدت في تلك البلدة، وقضيت طفولتي فيها، وهأنا في مرحلة الأشد من العمر، والله أعلم أين سأكمل المسيرة بإذن الله.

ولو حاولنا تنزيل هذه الصورة الذهنية على النبات الذي ينشئه الله إنشاء، لوجدنا أن حياته تبدأ بمرحلة الأجنة ثم ما يلبث أن يبدأ بالنمو، فتكون مرحلة طفولته، ثم يستوي على سوقه، حتى يبدأ بعد ذلك بالانحدار شيئا فشيئا، حتى يصبح في نهاية المطاف حطاما تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا:

- ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: 45]

ولا تتوقف المقارنة – برأينا- عند هذا الحد، بل نجد أن هذا النبات يخرج منه حبا متراكبا، فيكون مشتبها وغير متشابه، قال تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٍ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرًا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنۡ أَعۡنَابٍ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [الأنعام: 99]

فنحن نستطيع أن نرى عملية تركيب النبات على بعضه البعض بأم أعيننا، فيمكن أن نأخذ ذلك البرعم (الجنين) من شجرة المشمش ذات النوعية الجيدة في فترة الربيع، ونقوم بعملية تركيبه على شجرة مشمش أخرى ربما لأن ثمرها ليس من النوعية الجيدة، وما هي إلا فترة زمنية قصيرة حتى يبدأ هذا البرعم (الصغير بحجمه) بالنمو، ليصبح شجرة كاملة متكاملة، تخرج لنا في نهاية المطاف ثمرا (من المشمش) ذات نوعيه جيدة، لها جميع خصائص الشجرة التي أخذ ذلك البرعم الجديد منها. فيكون بذلك مشتبها. ولكن في الوقت ذاته، نستطيع أن نأخذ البرعم نفسه، ذات الخصائص الجيده لنركبه على شجرة لوز، فيبدأ البرعم بالنمو على جذع شجرة اللوز، وما هي إلا سنيين قليلة حتى نبدأ بقطف ثمر المشمش الجديد عن شجرة اللوز القديمة (الأم)، فيكون بذلك غير متشابه، أليس في ذلك آيات لقوم يؤمنون؟

دعاء: اللهم أشهدك بأنك أنت ربنا الذي أحسن كل شيء خلقه، وأدعوك وحدك أن أكون من المؤمنين الذين يرون آياتك فيعرفونها، إنك أنت السميع البصير.

السؤال: ما الذي يجعل خلق الله قادرا على النشوء؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: إنها العظام. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما علاقة العظام بفعل النشوء؟

رأينا المفترى: دعنا نبدأ النقاش في هذه القضية بالآيات الكريمة التالية، قال تعالى:

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 78-79]

لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة جيدا، لوجدنا أن عملية الإنشاء تتم أصلا على العظام. فهي التي تبدأ بحجم صغير (طري) ثم ما تلبث أن تشتد حتى تصل إلى مرحلة الاصفرار ثم التحطم. وهذا يشبه بالضبط ما يحصل للزرع الذي يخرج شطأه ثم يأزر ثم يستغلظ إلى أن يستوي على سوقه، ثم ما يلبث أن يكون يحطاما تذروه الرياح. قال تعالى:

- ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ

عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ [الفتح: 29]

وهذا العملية هي - برأينا – ما جاء بلفظ النشز في كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لم تكن العظام لتنشز لولا أن الله قد أودع بها خاصية النشوء التي تحدثنا عنها.

عودة على بدء

اختلف كثير من أهل المعرفة (علماء المادة) مع علماء دين حول مراحل الخلق التي تصورها الآية الكريمة التالية:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون: 14]

وكان جل اختلافهم منصبا على مرحلة تكون العظام، فكان لسان حال أهل المعرفة (علماء المادة) يقول بأن مرحلة العظام لاحقة وليست سابقة لمرحلة اللحم، ولعلي أكاد أجزم الظن بأن سوء تقديرهم هذا قد جاء من خطأ فهمهم لماهية العظام التي يتحدث عنها النص القرآني. فهم يظنون أن العظام هي المادة الصلبة بينما اللحم هو المادة الطرية:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ [النحل: 14]

وجاءت مخالفة أهل الدين واضحة تتمثل بأن هذا هو كلام الله الذي لا يمكن تكذيبه لأنه هو الكلام الفصل، لكنهم في الوقت ذاته لم ينجحوا – برأينا- أن يقدموا الحجة الواضحة التي تثبت صحة دعواهم هذه وتكذب دعوى أهل المعرفة من علماء المادة. وهنا نتدخل برأينا الذي نظن أن فيه بعض الحجة التي تثبت العقيدة الثابتة بأن كلام الله هو فعلا القول الفصل، وتتمثل حجتنا في فهمنا لمعنى مفردة العظام التي وردت في السياق القرآني ذاته، فنحن نرى بأن العظام هي المادة القادرة على النمو بغض النظر عن درجة قساوتها أو صلابتها، فالعظام (نحن نتخيل) تبدأ طرية لكنها قادرة على أن تآزر (كما يحصل في حالة النبات)، ثم تستغلظ فتستوي على سوقه، قال تعالى:

- ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: 29]

فما أن تبدأ تلك المضغة تخرج شطئها حتى تأزر، حينها تصبح عظاما:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14]

وهذه العظام هي التي تبدأ بعملية النمو التدريجي حتى تتحطم في نهاية المطاف، فتصبح رميما:

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 78-79]

فسر الحياة (النمو) مودع في هذه العظام التي أنشأها الله إنشاء، فجعلها قادرة على النمو التدريجي.

الدليل: لو تدبرنا كل أمة من الأمم التي خلقها الله (كالإنسان مثلا)، لوجدنا بأن الفرق جلينا بينها في اللحم، فبعض البشر يفوق وزنه المئة كيلو غرام وبعضها الآخر (من مثلي) لا يتجاوز السبعين كيلو غرام. وهم يختلفون أيضا في اللون، والمظهر، الخ، لكنهم يشتركون جميعا في الهيكل العظمي، فالهيكل العظمي للرجل السمين لا يختلف عن الهيكل العظمي للرجل النحيل. والهيكل العظمي للرجل الأسود لا يختلف عن الهيكل العظمي للرجل الابيض أو الأصفر، والهيكل العظمي للرجل الجميل (مثلي) لا يختلف عن الهيكل العظمي للرجل غير الجميل (مثل ...بديش أقول)، وهكذا.

ولعل أهل المعرفة من علماء المادة لا يختلفون في أن الهيكل العظمي هو ما يميز كل أمة عن غيرها. فالهيكل العظمي للحمار يختلف عن الهيكل العظمي للبقرة، وهم قادرون على التمييز بين عظام الحمير وعظام البقر، لكنهم لا يستطيعون أن يميزوا بين لحم الحمار ولحم البقرة. فكم أطعمنا الجزارون (أصحاب الضمائر الحية) من لحوم الحمير على أنها لحم عجول مستوردة من مزارع نيوزلندا واستراليا؟! فهل يستطيع علماء المادة أن يفحصوا ويميزوا أنواع اللحم المستخدم في مطاعم البيرغر الشهيرة؟! من يدري؟! لكن بالمقابل هل من الصعب عليهم أن يميزوا بين عظام هذه الكائنات في مختبراتهم؟!

السؤال: لماذا يصعب عليهم تميز اللحم بينما يسهل عليهم تمييز العظام؟ أليس هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام من قبل الجميع؟ من يدري؟!

السؤال: لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية، لربما حقّ لنا أن نتساءل عن السبب الذي جعل ذلك المجادل في آيات الله يسأل عن سر الحياة في العظام، قال تعالى:

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 78-79]

رأينا المفترى: بداية، نحن نتجرأ على الظن بأن هذا المجادل الذي سأل عن إحياء العظام وهي رميم هو فرعون نفسه، ثم نحن نتجرأ على القول بأن سؤاله قد جاء من باب ما كان يصعب عليه فعله، ولكن كيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون (كرب وكإله) قادرا على فعل الخلق، لكن الذي كان ينقصه هو القدرة على فهم آلية إحياء العظام، أي إنشاءها (أي السر الكامن فيها الذي يجعلها قادرة على النمو التدريجي)، لذا جاء محاورا يضرب المثل على قدرة الإله الحقيقي الذي يستطيع ذلك.

الدليل: لو تفقدنا هذه الآية الكريمة جيدا، لوجدناها قد ابتدأت بالكلمات التالية:

- وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ .....

لتكون التساؤلات التي يمكن إثارتها كثيرة جدا، نذكر منها:

- ما معنى ذلك؟
- أي كيف ضرب هذا المجادل مثلا؟
- ولماذا ضرب هذا المجادل في آيات الله مثلا؟
- ما معنى أنه قد نسي خلقه؟
- على من يعود الضمير في مفردة "خَلْقَهُۥ"؟
- الخ

لو حاولنا تدبر عبارة "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا" على مساحة النص القرآني، لوجدنا أمورا كثيرة تسترعي الأنتباه، نذكر منها:

أولا، أن ضرب الأمثال هو فعل خاص بالله، فالله هو وحده من له الحق أن يضرب الأمثال، قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: 26]
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: 24-25]
- ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: 74-76]

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: 112]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]
- ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: 35]
- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾ [الزمر: 29]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾ [محمد: 3]
- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 10-11]
- ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد: 17]
- ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ [إبراهيم: 25]
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾ [محمد: 3]

ثانيا، لهذا (نحن نرى) جاء النهي القاطع لنا من الله أن نضرب له الأمثال:

- ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النحل: 74]

السؤال: لماذا طلب الله منا أن لا نضرب له الأمثال؟

رأينا المفترى: لو دققنا في هذه الآية الكريمة لوجدنا أن من يستطيع أن يضرب المثل هو من كان ذا علم، ويمكن أن نستنبط من هذا أن المضروب له المثل أقل علما من ضارب المثل نفسه. ولتبسيط الصورة، دعنا ندقق فيما يحصل بين المعلم وطلابه في قاعة الصف. فعندما يحاول المعلم أن يشرح قضية ما للطلبة، فإن من

المنطق أن يكون المعلم صاحب علم، بينما يكون الطلبة أقل علما من المعلم. ولكي يحاول المعلم توضيح المسألة العلمية لطلابه، فإنه يعمد أحيانا إلى ضرب الأمثلة، فيقول دعنا نضرب مثالا على ذلك، فيكون هذا المثال هو بمثابة عملية توضيحية لقضية علمية من طرف من يعلم (المعلم) إلى من ينقصه العلم (الطلاب).

السؤال: لماذا نهانا الله أن نضرب له الأمثال إذن؟

رأينا المفترى: إن من يحاول أن يضرب المثال لله، فهو إنما يفترض أن عنده من العلم ما ينقص الإله نفسه، ويكأن لسان حاله يقول أن عندي من العلم ما ليس عند الله، ويكأنه يقول بأنه يعلم وأن الله لا يعلم، وهذا لا يكون إلا من صنيع من يجادل في آيات الله، لا بل ويظن أنه إله على الآخرين الذين يفترض أنهم اقل منه قدرا في العلم.

السؤال: ما علاقة هذا بما جاء في الآية الكريمة قيد البحث هنا:

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: 78-79]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن هذا هو الشخص الوحيد الذي ضرب لله مثلا على مساحة النص القرآني كله، فلا يوجد شخص آخر تجرأ على هذا الفعل سواه. لذا، نحن نفتري الظن بأن هذا الشخص كان على قدر كبير من العلم، لدرجة أنه قد ظن أنه يستطيع أن يضرب لله الأمثال، ويكأن لسان حاله يقول بأنه هو شخصيا يعلم (أي المعلم) والآخرون بمن فيهم الله لا يعلمون (أي متعلمون):

- ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧٤﴾ [النحل: 74]

السؤال: من هو هذا الشخص إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه يستحيل أن يتجرأ على مثل هذا الفعل إلا من ظن بأنه ربا أو أنه إلها، قد وصل إلى مرحلة ضرب الأمثال، لأنه ظن بأنه يعلم وغيره لا يعلمون. فمن يكون هذا الشخص إذن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتجرأ على القول بأنه يستحيل أن يفعل مثل هذا الفعل إلا فرعون نفسه:

- ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: 17-24]
- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾ [القصص: 38]

الدليل: لو تدبرنا الآية نفسها لوجدنا أن هذا الذي ضرب لله المثل قد نسي خلقه، أليس كذلك؟

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: 78-79]

السؤال: ما معنى عبارة "وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ" التي جاءت في بداية هذه الآيات الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا بأن يكون الضمير في مفردة "خَلْقَهُۥ" يعود على الله، أو أن يكون المعنى على نحو أن هذا الرجل قد نسي خلق الله عندما ضرب هذا المثال، وذلك لأن الآية قد ابتدأت بضمير الجمع عندما جاء الحديث متعلقا بالإله "وَضَرَبَ لَنَا". لذا نحن نفتري الظن بأن الضمير في قوله "خَلْقَهُۥ" يعود على شخص واحد محدد بعينه، فمن هو؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نكاد نجزم الظن بأن ضمير الغائب المتصل في مفردة "خَلْقَهُۥ" يعود على الشخص المحاور نفسه، وهو فرعون.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: مادام أن هذا الشخص قد نسي، فهو لا شك قد فعل ذلك عن قصد، لأن فعل النسيان (كما حاولنا الشرح في مقالات سابقة) لا يأتي إلا مقصودا بدليل قوله تعالى:

- ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67]
- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: 19]

وها هم ينسون يوم الحساب:

- ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: 14]

وهذا الله نفسه ينسى:

- ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية: 34]
- ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67]

لذا، فإن فعل النسي لا يعني غياب المعلومة من الذاكرة، وإنما هو فعل مقصود لذاته، لذا فإن فعل النسي هو ما يعني بالعامية "التطنيش". فالله قد نسيهم (عن قصد) لأنهم نسوه من قبل (عن قصد).

السؤال: ما علاقة هذا بالآية الكريمة قيد البحث؟

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: 78-79]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما جاء موسى إلى فرعون بالرسالة، كان سؤال فرعون الأول هو:

- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: 49]

فكان رد موسى على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]

ونحن نتخيل أن الحوار قد استمر بينهما على نحو أن فرعون قد ضرب المثل في إحياء العظام وهي رميم:

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: 78-79]

فكان الجواب على النحو:

- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: 79-83]

فلو تدبرنا هذا الرد، لوجدنا أنه يبرز صفات الخلاق العظيم، ونحن نفتري القول بأن هناك خالقين كثير غير الله، ولكن ما يميّز الله عن غيره من الخالقين هو أن الله هو وحده الخلاق العظيم. ومن أهم صفات الخلاق العظيم عن الخالق العادي هو القدرة على التنوع في الخلق، ففي حين أن غير الله من الخالقين يختص بخلق واحد محدد بعينه كعيسى بن مريم مثلا الذي كان يخلق من الطين كهيئة الطير فقط، فإن الله هو الخلاق العظيم، لأنه هو وحده الذي يمتلك الصفات التالية:

- الله يخلق.
- الله ينشئ.
- الله خلاق، فينوع في خلقه.
- الخ.

السؤال: لماذا كان الله هو الخلاق العظيم؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا السؤال ينقلنا مباشرة إلى الجزء التالي من هذه المقالة، حيث سينصب الحديث بحول الله وتوفيق منه على سبب تدرج الخلق الإلهي بهذا الشكل. فنحن نفتري الظن بأن السبب في خلق الله له علاقة مباشرة بالعلم الإلهي.

باب: علم الله

تساؤلات

- لماذا جاء خلق الله بهذه الطريقة؟
- لم جاء خلقا من بعد خلق؟
- لم جاء خلقا فوق خلق؟
- لم جاء خلقا وإنشاءاً؟
- الخ

نحن نظن بأنه يمكننا (بإذن الله) أن نستنبط بعض الإجابة على هذه التساؤلات من الآية الكريمة التالية:

- ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ [الرحمن: 31]

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه من أجل محاولة الإجابة على هذا التساؤل، فإنه ينبغي أولا أن نطرح التساؤل الأولي التالي: ما معنى الفعل يفرغ (**أي كيف سيفرغ الله لنا**)؟

تساؤلات مثيرة:

- متى سيفرغ الله لنا؟
- لماذا سيفرغ الله لنا؟
- كيف سيفرغ الله لنا؟
- وماذا يفعل الله الآن؟
- هل الإله مشغول عنا الآن؟
- إن كان كذلك، فما الذي يشغله عنا حتى يؤجل لنا الأمر؟
- إن صحّ هذا التفكير السطحي، ألا يقدح ذلك بقدرة الإله المطلقة على الإحاطة بكل شيء؟
- الخ.

هذا ما سنخوض فيه في الجزء القادم من هذا الكتاب بحول الله وتوفيق منه،

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان

بقلم د. رشيد الجراح

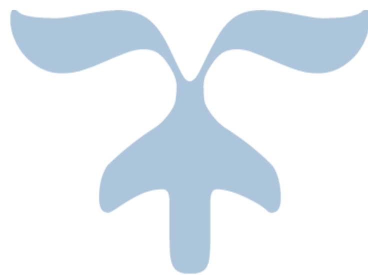
8 أيلول 2016



الجزء الثالث

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء الثالث: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

خلصنا في نهاية الجزء السابق من هذا الكتاب إلى تقديم الافتراءات الخطيرة التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

- الله هو أحسن الخالقين
- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14]
- لم يأت خلق الله كله جملة واحد، فكان خلقا من بعد خلق (تسلسل افقي زمني)
- لم يأت خلق الله كله بنفس المستوى وإنما جاء خلقا فوق خلق (تسلسل عامودي نوعي)
- جاء الخلق على شكل أمم
- أنشأ الله كل أمة جديدة من ذرية القوم الذين سبقوها
- احتلت كل أمة لاحقة مكانة تفوق الأمم التي سبقتها، لذا تقبع هذه الأمم فوق بعضها البعض
- داخل كل أمة هناك أيضا فوقية واضحة، فبعضها يسيطر على البعض الآخر
- الأمة الأعلى هي المهيمنة على الأمم الأدنى منها
- تستطيع الأمة الأدنى أن تلحق الضرر بالأمة الأعلى لكن هذا لا يمنع أن تكون هي بكليتها مسخرة لما هو فوقها
- كان الذباب هو الأمة الأولى، فجاء كل الخلق فوق البعوضة:
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة: 26]
- كانت البعوضة (الذباب) هي الأمة الأدنى في سلم الفوقية، لكن هذه الدرجة لن يصل لها أي خالق دون الله. فأقل خلق الله درجة لن يستطيع عليه أعز الخالقين الذين هم دون الله:
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: 73]
- جاء خلق الجآن من قبل خلق الإنس:
- ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: 27]
- جاء خلق الإنس كآخر أمة، فأنشأه الله من ذرية القوم الآخرين الذين سبقوهم وهم الجن:
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]
- الخ.

عندها طرحنا التساؤلات المثيرة التالية:

- لماذا جاء خلق الله بهذا التنوع الهائل؟
- لماذا جاء خلق الله بهذا الترتيب؟
- لماذا جعل الله خلقه خلقا من بعد خلق؟
- لماذا رفع الله بعض خلقه فوق بعضه الآخر درجات؟
- لم لم يأت كل خلقه جملة واحدة؟
- هل كان الإله يلهو أو يلعب؟
- لماذا كان الذباب هو أول الخلق، فكان كل الخلق الآخر فوقها؟
- لماذا جاء الإنس هو الأمة التي تحتل المرتبة الأخيرة في الزمن والأعلى في المرتبة بين جميع الأمم الأخرى؟
- كيف يمكن ترتيب جميع الأمم الأخرى (كالدواب والطير وغيرها) زمانيا (خلقا من بعد خلق) ومكانيا وظيفيا (خلقا فوق خلق)؟
- كيف نستطيع أن نبيّن للجميع (المؤمنين والكافرين) بأن الله هو فعلا أحسن الخالقين؟
- كيف يمكن أن نبيّن للجميع (المؤمنين والكافرين) بأن كل الخالقين الذين هم من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له؟
- ما الذي يجعل خلق الله يختلف عن ويمتاز على خلق غيره؟

وسنحاول في هذا الجزء الجديد متابعة النقاش في القضية نفسها، محاولين تسطير افتراءات جديدة خاصة بموضوع الخلق الإلهي الذي لا يمكن أن يجاريه خلق مَنْ هم من دونه، مبتدئين النقاش بمحاولة التفريق بين الخلق من جهة والإنشاء من جهة أخرى.

باب: الفرق بين الخلق والإنشاء

دعنا نحاول النبش في الفرق بين الخلق من جهة والإنشاء من جهة أخرى، فهناك لا شك فعل الخلق وهناك أيضا فعل الإنشاء، ونحن بداية نفتري الظن بأن الخلق هو مرحلة سابقة لـ ومختلف عن الإنشاء، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]

فلو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدناها تبين لنا بما لا يدع مجالا للشك بأن مرحلة الخلق هي مرحلة أولية ومقدمة (سابقة) لمرحلة الإنشاء، فالله هو من بدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين:

- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ٨﴾ [السجدة: 7-8]

وما أن ينزل هذا الماء المهين في رحم المرأة حتى تستأنف مرحلة الخلق من جديد، فتصبح هذه النطفة التي قُذفت في رحم المرأة علقة، ثم تخلق العلقة مضغة، ثم تخلق المضغة عظاما، ثم تُكسى هذه العظام لحما:

- ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]

وفي هذه المرحلة بالضبط (بعد أن تكسى العظام لحما) تأتي مرحلة الإنشاء، فيكون هذا المخلوق خلقا آخر بفعل الإنشاء "ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ". ويرتبط هذا (نحن نفتري الظن) بحقيقة أن يكون الله هو أحسن الخالقين "فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ".

نتيجة مهمة جدا وخطيرة جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن عملية الإنشاء هذه هي التي تميّز الإله الواحد (عن غيره من الخالقين)، فيكون الله هو أحسن الخالقين (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، وذلك لأنه الوحيد القادر على فعل الإنشاء. انتهى.

السؤال: ماذا تقصد بأن الله هو أحسن الخالقين؟ أو كيف يمكن أن نفهم بأن الله هو أحسن الخالقين في ضوء قدرة الله وحده على الإنشاء وعجز الخالقين من دونه على ذلك؟

جواب مفترى: تعرضنا لهذه القضية في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف عندما طرحنا التساؤل حول أن تكون قصة يوسف على وجه التحديد هي أحسن القصص، قال تعالى:

- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: 3]

وافترينا القول من عند أنفسنا حينئذ بأن الأحسن هو الذي لا يمكن أن يجري عليه إضافات أو تعديلات، وذلك لأنه جاء في نسخته النهائية جملة واحدة. فقصة يوسف هي أحسن القصص (مقارنة مع غيرها من القصص القرآني) لأنها – برأينا- جاءت كاملة (بجميع تفاصيلها) جملة واحدة في سورة واحدة، ولم يحصل عليها تعديل أو إضافة في أي موقع آخر من كتاب الله كما في حالة قصص الأنبياء والرسل الآخرين.

فجميع قصص الأنبياء والمرسلين الأخرى (كقصة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ولوط وموسى وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمد) جاء ذكرها، ووردت تفاصيلها، في أكثر من موضع من كتاب الله، وذلك على عكس قصة يوسف التي لم تذكر إلا في سورة يوسف، ولم يرد لها أي تفصيل في غير هذا الموضع من كتاب الله.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان قصة يوسف).

وبناء على هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا، نحن نظن بأن الله هو أحسن الخالقين وذلك لأنه من الاستحالة بمكان أن يتم تعديل أو إضافة (أي تحسينات) على أي خلق من خلق الله. فالذبابة هي الذبابة منذ أن خلقها الله في هذا الكون الفسيح وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويستحيل أن يحصل عليها تعديل بأي شكل من الأشكال، وينسحب هذا المنطق على جميع خلق الله ابتداء من الذبابة التي هي أدنى الخلق في سلم الفوقية الذي افتريناه وانتهاء بالإنسان الذي يحتل أعلى الخلق في ذلك السلم، قال تعالى:

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ [التين: 4]

وبهذا نصل إلى الجزئية الأولى التي نعارض فيها نظرية التطور التي اقترحها تشارلز داروين، فنحن ننفي جملة وتفصيلا أن يحدث رقي لأي أمة من الأمم التي خلقها الله، فما أن يتم الله خلق أمة محددة حتى يكون ذلك هو خلق أحسن، يتعذر أن يجري عليه أي تعديل أو إضافة، لأن اجراء أي إضافة أو تعديل عليه ستجعله

يخرج من طور الخلق الأحسن الذي خلقه الله، فيؤدي إلى هلاكه بدل أن يؤدي إلى رقيّه. ولكن يمكن - بالمقابل - أن يجري عليه ردا إلى الأسفل بدلا من رقي إلى الأعلى، قال تعالى:

- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝﴾ [التين: 4-5]

نتيجة مهمة جدا (1): لا يمكن أن يحدث تحسين على خلق الله لأن خلق الله هو الأحسن.

نتيجة مهمة جدا (2): يمكن أن يرد خلق الله فيرجع إلى الوراء بدلا أن يرتقي إلى الأعلى.

الدليل: نحن نفتري القول من عند أنفسنا استحالة أن يرتقي البعوض ليصبح دابة، ولكن يمكن للدابة (كفصيلة) أن ترد إلى الوراء فتصبح بعوضا (كفصيلة)، وبهذا المنطق يمكننا القول بأنه لا يمكن للقرد أن يتطور حتى يصبح إنسانا (كما ظن داروين)، ولكن يمكن للإنسان أن يرد إلى الوراء فيصبح قردا، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝﴾ [البقرة: 65]
- ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ۝﴾ [الأعراف: 166]

فكل الدواب الموجودة في الأرض، وكل الطير التي تطير بجناحيها في جو السماء، هي – لا شك- أمم أمثالنا، لذا نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأنها جاءت جميعا على نحو خلق من بعد خلق، ولكنها أنشئت (كما حصل مع الإنس) من ذرية قوم آخرين.

ولتوضيح الصورة التي في مخيالنا أكثر، نحن نفتري الظن بأن الخلق الأول قد بدأ بفلق الحب والنوى:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝﴾ [الأنعام: 95]

فبدأ خلق النبات، فأخرج الحي من الميت، فحصل الإنشاء الأول:

- ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝﴾ [هود: 61]
- ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۝﴾ [النجم: 32]

ولو دققنا بالمقابل- في الآية التالية:

- ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝﴾ [نوح: 17]

لوجدنا بأن الله قد أنبتنا من الأرض. وهنا يجب أن يثار التساؤلات التالية:

- كيف نفهم أن الله أنشأنا من الأرض؟
- كيف نفهم أن الله أنبتنا من الأرض؟
- ما الفرق بين إنشائنا من الأرض وإنباتنا من الأرض؟
- الخ

رأينا المفترى: لقد حاول الكثيرون - معتمدين على فهمهم لهذه الآية الكريمة - وضع النظريات عن بداية خلق الإنسان. فظهرت بعض الأصوات التي تظن بأن أصل الإنسان من نبات، وظن آخرون بأن الناس كلهم خرجوا كالزرع من الأرض؟ وهكذا

وبغض النظر عن صحة أو خطأ هذه التصورات البشرية، فإننا سنحاول - بناء على فهمنا اللغوي الخاص ببعض مفردات هذه الآية الكريمة - أن نضع تصورا نظن أنه مختلف عن التصورات السابقة لقصة الخلق الأولى، وسنبدأ بحثنا هذا بطرح السؤال المبدئي وهو: ما معنى مفردة "النبات" ومشتقاتها بما يمكننا استنباطه من آيات الكتاب الحكيم؟

افتراء 1: نحن نظن أن مفردة "النبات" (وجميع مشتقاتها) تعني النمو وكفى.

افتراء 2: نحن نفتري الظن أيضا بأنه ليس لشرط أن يكون هذا النمو مرتبطا بالأرض فقط. انتهى.

الدليل: لو بحثنا عن مفردة النماء ومشتقاتها (نمى، ينمو نماء، إنماء، تنامى، نموا، أنمى، نام، منمى، الخ) لما وجدناها قد وردت في القرآن على مساحة النص بأكمله. عندها سيكون السؤال الفوري هو: كيف عبر القرآن الكريم عن معنى النماء في الآيات الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن معنى النماء الذي يرد في قواميس اللغة العربية كما في التعاريف التالية المقتبسة من معجم اللغة العربية المعاصرة:

نمى ينمي، انم، نماء، فهو نام، والمفعول منمي (للمتعدي) • نمى المال: زاد وكثر نماء ثروة - نمى إيراد المصنع الجديد. • نمى السعر: ارتفع وغلا. • نمى الحديث: شاع وذاع بين الناس نمى نبأ نجاح مؤتمر السلام. • نماه حسبه: رفعه وأعلى شأنه. • نمى الحديث إلى قائله: رفعه في الإسناد إليه.

نمى ينمي، نم، تنمية، فهو منم، والمفعول منمى• نمى إنتاجه: زاده وكثره، رفع معدله. • نمى النار: أشبع وقودها. •نمى الأمر: طوره نمى العلاقات بين البلدين - تنمية التعاون الدولي - شجع التنمية الإقليمية لمنطقة الخليج - نمى شركته / مواهبه. •نمى ذاكرته: أنعشها وقواها التمارين البدنية تنمي الجسم.

قد تم التعبير عنه في كتاب الله بمفردة "النبات" ومشتقاتها.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن "الإنبات" هو عملية النمو ذاتها التي نتداولها على ألسنتنا عند الحديث عن هذا المعنى المراد من الإنبات. فمفردة النمو التي نستخدمها في لغتنا العربية غير موجودة في كتاب الله،

السؤال: هل الإنبات مرتبط بالأرض (كما قد يفهم العامة وأهل الاختصاص)؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه ليس شرطا أن يكون الانبات مرتبطا دائما بالأرض، فقد يحصل الإنبات من الأرض مباشرة، وقد يحصل الإنبات من غير الأرض مباشرة. وذلك لأن الانبات هو النمو بغض النظر عن مصدره. فالإنبات من الأرض قد جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]

وقد يكون الإنبات من غير الأرض مباشرة كما جاء في حق مريم:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا .... ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

دقق معي عزيزي القارئ -إن شئت- في الآية التالية التي تتحدث عن مريم، قال تعالى:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

فهذه مريم قد أنبتها الله نباتا حسنا، فهل يعني ذلك أن مريم قد خرجت من تراب الأرض مباشرة؟! من يدري؟!!!

رأينا مفترى: كلا وألف كلا. فالله قد أنبت مريم نباتا بعد أن وضعتها أمها من بطنها، فمريم قد وضعتها أمها كما تضع أي أنثى طفلها:

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 36]

ليكون السؤال الآن: كيف يمكن أن نفهم أن مريم قد وضعتها أمها كما تضع أي امرأة طفلها وفي الوقت ذاته يجب أن نفهم أن مريم قد أنبتها الله نباتا كما جاء في الآية الكريمة التالية؟

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

إذن، الله هو من أنبت مريم بعد أن وضعتها أمها، ولا يمكن أن يفهم من ذلك أن مريم قد نبتت من الأرض، لكن – في الوقت ذاته- يجب أن نفهم بأن ذلك كان نباتا حسنا. فكيف نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نتصور (ربما مخطئين) بأن مريم قد وُلِدت كطفلة صغيرة الحجم، وأخذت مع توالي الأيام تنبت (أي تنمو) شيئا فشيئا حتى وصلت لمرحلة حمل المسيح. وقد كان نباتها ذلك (أي نموها التدريجي) حسنا، لأنها – نحن نفهم- لم تكن تأكل من طعام الأرض قط حتى وضعت المسيح من بطنها عند الشجرة، وهناك جاءها الأمر الإلهي بأن تأكل وتشرب:

- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 25-26]

فمريم كانت قبل هذه المرحلة تأكل من رزق من عند الله يأتيها إلى المحراب:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

فكان ذلك هو – برأينا - نباتها الحسن. فنبتت مريم (أي نمت تدريجيا) كما ينمو أي طفل مولود من البشر، لكن كان ما يميز نمو مريم عن نمو غيرها هو أنه كان نموا حسنا بسبب الطعام الذي كانت تأكل منه مريم، والذي مصدره السماء، حتى وضعت مريم ما في بطنها (المسيح عيسى بن مريم) عند جذع النخلة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: نحن نفتري الظن بأن مفردة "النبات" (ومشتقاتها) تعني النمو التدريجي الذي يمر به كل كائن حي سواء كان نباتا أو حيوانا أو بشرا (كما نسميها بمفرداتنا الدارجة).

السؤال: لماذا سميت النباتات (التي نعرفها) بهذا الاسم؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن النباتات (كما نعرفها نحن العامة من الناس) ليست الزرع أو الشجر كالزيتون والنخل والأعناب، ولكنها عملية نمو هذه الكينونات، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [النحل: 11]

فهذه جميعا قد سميت نباتات بالعرف الدارج، لكنها في اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن هي – برأينا- ليست نباتات، ولكن لها تسميات خاصة بها، فالزرع زرع والشجر شجر، وهكذا. والأرض هي التي تنبت البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل كما جاء على لسان بني إسرائيل لنبيهم موسى:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

والحبة التي تغرس في الأرض هي التي تُنبت السنابل، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة: 261]

وكل ذلك كان موزونا بأمر الله:

- ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ [الحجر: 19]

نتيجة مفتراة: النبات هو النمو التدريجي الذي يحصل لكل الكائنات الحية سواء كانت زرعا أو شجرا أو حيوانا أو بشرا. انتهى.

السؤال: كيف يختلف الثمر بالرغم أنه يخرج من الأرض نفسها ويسقى بما واحد:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرعد: 4]

بالرغم أن كل الثمرات تنبت (أي تنمو) بنفس الطريقة (أي النمو التدريجي)، إلا أنها تختلف عن بعضها البعض، ويفضل بعضها على بعض في الأكل. فما الذي يجعلها تختلف بالرغم أن الأرض واحدة والماء واحد؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: إنه النشوء. انتهى.

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: 141]

فالجنات قد أنشئت، فكانت الثمار مختلفة في الأكل، فكانت متشابهة وغير متشابهة،

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: 18-19]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: 99]

السؤال مرة أخرى: ما الذي يجعل هذه الجنات من الأعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذه فصائل تشترك مع بعضها البعض في صفات معينة، وتختلف عن بعضها فالبعض في صفات أخرى. ودرجة التشابه بينها وهو الذي يجعل حبها متراكبا.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القضية بسيطة جدا يستطيع كل إنسان أن يراها بأم عينه، وذلك بالنظر إلى ثمر تلك الجنات "ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ"، فالثمر المتشابه هو الذي يمكن أن تجري عليه عملية التركيب "نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا"، فالتفاح كفصيلة – مثلا- متعدد الأشكال والأنواع، لكنه جميعا من الفصيلة ذاتها التي يمكن أن تركب على بعضها البعض. فثمرة شجرة ما من فصيلة التفاح يمكن أن تركّب على شجرة تفاح أخرى من فصيلة التفاحيات، ولكن يستحيل أن تركب على شجرة من فصيلة الرمان، وهكذا هو الحال بالنسبة لفصيلة الحمضيات أو اللوزيات أو الزيتون أو الرمان أو النخيل أو الأعناب، الخ.

نتيجة مفتراة: كل أنواع الثمار المتشابهة يمكن أن تركّب على بعضها البعض

نتيجة مفتراة: كل أنواع الثمار غير المتشابهة لا يمكن أن تركّب على بعضها البعض

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا لا علاقة له بالنبات، وذلك لأن جميعها تنبت (أي تنمو) تدريجيا بنفس الطريقة، فهي تبدأ بالحب، فتفلق الحب ويفلق نواتها، ثم تبدأ تخرج من الأرض تدريجيا، فتكبر وتثمر، وكل ذلك ضمن نظام محكم يستحيل أن يختل.

لكن الذي يجعلها متشابهة وغير متشابهة هو – برأينا- عملية الإنشاء التي حصلت لها.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نتجرأ على افتراء الظن بأن سبب الإنشاء هو الماء كما نفهم ذلك من الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: 18-19]

فالماء حسب فهمنا لهذه الآية الكريمة هو الذي أنشأ الله لنا به الجنات التي فيها فواكه كثيرة منها نأكل.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن عملية الإنشاء هي عبارة عن عملية كتابة الشيفرة الوراثية لكل فصيلة من هذه الفصائل، فكل فصيلة من هذه الفصائل لها شيفرة وراثية على شكل شريط DNA، وهو الذي – نحن نظن- يجعل كل فصيلة من هذه الفصائل مميزة عن غيرها.

وهنا نصل إلى نتيجة - حسب فهمنا لهذه اللحظة – في ظاهرها متناقضة تماما ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

نتيجة مفتراة 1: الماء هو الذي ينبت الجنات.

- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: 60-61]
- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: 10]
- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: 9-11]
- ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: 25-32]

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾ [الأنعام: 99]

نتيجة مفتراة 2: الماء هو الذي ينشئ الجنات.

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩﴾ [المؤمنون: 18-19]

السؤال: كيف ذلك؟ أي كيف يمكن أن يكون الماء هو سبب الإنبات؟ وكيف يكون الماء في الوقت ذاته هو سبب الإنشاء؟

افتراء خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن بأن للماء وظيفتين اثنتين هما.

- أن ينبت به الجنات. وإنبات الجنات هو الذي يجعل الشجر شيئا فشيئا. فهناك عنصر محدد في الماء هو الذي يجعل الشجر والزرع قادرا على النمو (الإنبات)، فما هو ذلك العنصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن مادة الإنبات (أي النمو التدريجي بالمفردات الدارجة) هي عملية التمثيل الضوئي التي تحتاج إلى عنصر الأكسجين.

- أن ينشئ الجنات. وإنشاء الجنات هو الذي يجعل الشجر يحتفظ بخصاصه الوراثية. فهناك عنصر في الماء هو الذي يجعل الشجر والزرع قادرا على الاحتفاظ بتلك الصفات، فما هو ذلك العنصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن العنصر المائي الذي ينشئ الزرع كله هو عنصر الهيدروجين. انتهى.

الدليل: لكي نجلب الدليل على افتراءاتنا هذه، علينا أن نحاول التفريق بشكل أكثر دقة بين الإنبات من جهة والإنشاء من جهة أخرى، لنطرح إذا السؤال على النحو المباشر التالي: ما الفرق بين الإنبات والنشوء؟

افتراء خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الإنبات والإنشاء هما عمليتا النمو التدريجي، لكن في حين أن الإنبات يكون عاموديا (إلى الأعلى)، فإن الإنشاء يكون أفقيا (على الجوانب). فالفرق بينهما هو كالفرق بين العلاقة العامودية والأفقية.

السؤال: وكيف ذلك؟

مثال: عندما تحاول أن تبني علاقة مع شخص، فإن ذلك يعني أن العلاقة تمر بمرحلتين اثنتين:

1. أن تنشئ العلاقة أول.
2. أن تبني العلاقة التي أنشأتها لتتعزز وتقوي.

فقد تبدأ العلاقة ضعيفة، وهنا تكون العلاقة قد نشأت أفقيا، ثم ما تلبث أن تنمو (فتتطور) العلاقة عاموديا، فالبنيان فيه ارتفاع إلى الأعلى، قال تعالى:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧﴾ [الصافات: 97]

فالبنيان إذا فيه ارتفاع إلى الأعلى "ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا" حتى يتم فعل الإلقاء إلى الأسفل "فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ".

نتيجة مفتراة: عندما تنشئ علاقة مع شخص، فهذا يعني (بأبسط المفردات) أنك العلاقة مع الطرف المقابل لك قد بدأت. وعندما تنشئ الدولة – على سبيل المثال- علاقة دبلوماسية مع دولة أخرى، فإن ذلك يعني بدء تلك العلاقة الأفقية بين الطرفين. فالعلاقة تبدأ بالنشوء أفقيا، ثم تبدأ تنمو شيئا فشيئا (أي تتطور عامودا) حتى تصل إلى ذروتها.

السؤال: ما علاقة هذا بإنشاء الجنات وإنباتها؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا لا تصدقوه: عندما ينزل الماء من السماء على الأرض، فإن ذلك يؤدي إلى فلق الحب، وسبب هذا الفلق هو عملية النشوء، وذلك (نحن نرى ربما مخطئين) لأن ذرتي الهيدروجين تبدأن بربط طرفي الشريط الوراثي بعضهما ببعض، فيكون ذلك نشوء، فتمتد الجذور بشكل أفقي داخل الأرض، حتى تترابط، ويشكل ذلك القاعدة الأفقية التي سيخرج منها الزرع بعملية الإنبات بطريقة عامودية إلى الأعلى بفعل عنصر الأكسجين في ذلك الماء الذي سكن في الأرض، وتكون عملية الإنبات (أي الخروج العامودي) في البداية بطيئة جدا، وذلك لأن كمية الأكسجين المتواجدة تحت سطح التربة تكون قليلة، لا تساعد على الإنبات (أو النمو) السريع، لكن ما أن يخرج الزرع من تحت التراب حتى تزداد كمية الأكسجين بفعل عملية التمثيل الضوئي، فيتسارع الإنبات حتى يحصل أشده.

الدليل، السؤال: لماذا يجب أن تكون البذور قريبة من سطح التربة؟

رأينا المفترى: لو تم غراس البذور تحت سطح التربة على عمق أكثر من اللازم، لما حصل الانبات، لكن يمكن أن يحصل النشوء، السؤال لماذا؟

رأينا المفترى: عندما تغرس البذور تحت سطح التربة على عمق كبير، فإن عملية الإنشاء قد تتم، فيتجذر الزرع بعملية الإنشاء، أي إنشاء الروابط بين طرفي الشريط الوراثي بفعل عنصر الهيدروجين (H)، لكن الأمر سيتوقف عند ذلك الحد، ولن ينبت الزرع، وذلك لانعدام الأكسجين هناك، أو لأن كمية الأكسجين المتوافرة هناك لا تكفي لنمو الزرع حتى يصل إلى سطح التربة، وبالتالي اكتساب الأكسجين من عملية التمثيل الضوئي فوق سطح التربة. لذا يجب غراس البذور على مسافة قريبه من سطح التربة حيث يتوافر عنصر الأكسجين (O) بكمية كافية لإنبات البذور حتى تصل إلى سطح التربة.

نتيجة مفتراة: عملية إنشاء الجنات هي عملية أولية أساسية تبدأ بعمل القاعدة اللازمة لبداية الإنبات، وهي العملية اللازمة لتجذر الزرع في الأرض، وذلك بعمل الروابط بين طرفي الشريط الوراثي، الأمر الذي يؤدي إلى فلق الحب والنوى. وهو ما يسمى بالشريط الوراثي أو الحمض النووي الصبغي (DNA). فالله هو من يفلق الحب والنوى، وعملية فلق النوى هو عملية انقسام الخلية الأم.

عودة إلى قصة الخلق

عندما اتخذ الإله قراره بخلق البشر، كان هناك خلق سابق وهم الجآن:

- ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 27]

فجاء هذا الخلق في عملية نشأة من ذرية الأمة السابقة وهم الجآن.

نتيجة مفتراة مهمة جدا (1): خلق الله البشر من طين

نتيجة مفتراة مهمة جدا (2): أنشأ الله البشر من ذرية الجآن

نتيجة مفتراة مهمة جدا (3): أنشأ الله كل أمة من ذرية من سبقها من الأمم، فأصبح هناك تدرج زمني أفقي (خلق من بعد خلق)، وأصبح هناك تدرج فوقي عامودي (خلق فوق خلق). فكانت ذرية بعضها من بعض.

- ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [آل عمران: 34]

السؤال: ما الفرق بين الخلق والإنشاء والإنبات إذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الخلق هو عبارة عن إيجاد الكينونة بالتحول من هيئة إلى أخرى.

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: 20]

فهناك إذا تحول من حالة التراب إلى حالة أخرى غير التراب، ويظهر هذا التحول جليا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: 12-14]

فكان الطين أولا، ثم جعل هذا الطين نطفة، فتم خلق النطفة علقة، ثم خلق العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظاما، فكُسِيت العظام لحما، وهنا بالضبط بدأت عملية إنشاء ذلك الخلق خلقا آخر، فكان الله هو أحسن الخالقين.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الخلق هو تحول كامل من حالة إلى حالة أخرى مختلفة، لكن الإنشاء هو إمكانية هذا الخلق على النمو الأفقي. والإنبات هو عملية النمو العامودي. فكل الكائنات الحية التي تملك القدرة على النمو قد أنشئت إنشاء ثم أنبت إنباتا بعد أن كانت قد خلقت من مادة أخرى.

افتراء 1: الخلق هو عملية تحول من حالة إلى خالة أخرى

افتراء 2: الإنشاء هو عملية ربط أفقية لطرفي الشريط الوراثي للمادة المخلوقة

افتراء 3: الإنبات هي عملية النمو العامودي للمادة المنشأة.

استراحة قصيرة: موضوع الإنشاء في مادة اللغة العربية

غالبا ما طلب منا معلم اللغة العربية أن نكتب موضوع إنشاء (أو لنقل موضوع التعبير).

ليكون السؤال هو: ما هو موضوع الإنشاء؟ ولم يسمى موضوع إنشاء أصلا؟

رأينا المفترى: في نهاية درس المطالعة في درس اللغة العربية، عادة ما كان معلم اللغة العربية يطلب منّا كتابة موضوع إنشاء، وذلك من أجل أن يسطر الطالب فهمه الخاص ووجهة نظره حول الموضوع قيد الدراسة حينئذ.

ولنفترض بأن درس المطالعة قد كان حول موضوع النظافة وأشكالها وأهميتها على الفرد والعائلة والمجتمع. وعندما يطلب المعلم من طلبة الصف كتابة موضوع إنشاء حول موضوع كهذا، فإن كل طالب يعمد إلى عملية إنشاء للموضوع، أي بناء الأفكار واحدة تلو الأخرى وربطها جميعا مع بعضها البعض بطريقة فردية تميز أسلوبه عن غيره من زملائه الطلبة في ذلك الفصل الدراسي. ففي حين أن جميع الطلاب يكتبون حول الموضوع نفسه، إلا أن النتيجة النهائية (product) تختلف من طالب إلى آخر، وذلك لأن كل طالب قد أنشأ الموضوع بطريقته الخاصة، فلكل طالب طريقة في الإنشاء تختلف عن طريقة الطالب الآخر (process). لكن ما يشترك فيه الطلاب جميعا هو عملية الإنشاء نفسها التي لا شك تكون تدريجية، أي خطوة بعد خطوة. وما أن يصل الطالب إلى الخطوة الأخيرة حتى يكون الموضوع قد اكتمل من وجهة نظر الطالب، فيقوم كل طالب بتسليم الموضوع الذي أنشأه إلى المعلم ليقوم المعلم بدوره بتقييم هذا الموضوع كما ورده من الطالب. ويكون دور المعلم منحصرا بعملية التقييم التي يحاول فيها مفاضلة عمليات الإنشاء التي قام بها الطلبة جميعا، فيجرى التقييم على نحو مقارنة كتابات الطلبة بعضها ببعض، فيأتي تقييم المعلم متفاوتا على مواضيع الإنشاء التي قدّمها جميع الطلبة. فالمعلم يقيم إذا عملية إنشاء (أي التدرج في بناء) فكرة النظافة كما وردته من كل واحد من الطلبة، وبالتالي كيفية ربط الأفكار الواردة في الموضع بعضها مع بعض بطريقة سليمة، توصل الفكرة جيدا، وتحدث تأثيرا في القارئ. وكلما كانت الأفكار منشأة بطريقة هندسية راقية، كلما زاد أثرها الإيجابي على القارئ للموضوع.

نتيجة مهمة جدا: الإنشاء هو عملية ربط الأجزاء بعضها ببعض حتى يكتمل البناء بطريقة سليمة. ولا ينحصر فعل الإنشاء في الأمور المعنوية أو في الأمور غير الملموسة، بل ينسحب أيضا على الأمور المادية بنفس المنطق والمنهج، فنحن لا زلنا نقول "هذه بناية قيد الإنشاء"، مما يعني أن أساسيات هذا البناء قيد الإنشاء بشكل هندسي متين، وذلك عندما تكون أجزاء البناء مربوط بعضها مع بعض أفقيا بشكل سليم. والمنطق نفسه ينطبق على قولنا هذه شركة قيد الإنشاء، وهكذا.

نتيجة مهمة جدا (1): لو جاء البناء (أي بناء) دفعة واحدة جملة واحدة، لكان هذا خلقا، كما كان يفعل عيسى – مثلا- عدما كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله:

- ﴿......أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ .... ﴿٤٩﴾ [آل عمران: 49]

نتيجة مهمة جدا (2): عندما يأتي البناء تدريجيا، فإنه يمر بمراحل متعددة، فيبدأ بمرحلة الإنشاء، وذلك بربط الأجزاء بعضها ببعض أفقيا.

نتيجة مهمة جدا (3): عندما يبدأ الإنبات، فإن الخلق المنشأ أفقيا، يبدأ بالارتفاع العامودي إلى الأعلى شيئا فشيئا، حتى يصل ذروته.

السؤال: كيف تتم عملية الإنشاء (أي البناء التدريجي الأفقي)؟

رأينا المفترى: لا شك أن عملية إنشاء أي شيء (أي بناءه بطريقة متدرجة تمر بمراحل تطورية) يخضع لقوانين محددة ومحكمة، وهي التي يتم تقييم العمل بناء عليها. فعند إنشاء عمارة معينة، فإن المهندسين المشرفين على بنائها يقومون بتقييم البناء بعد كل مرحلة بناءً على علم الهندسة المعمارية التي تعلموها في جامعاتهم. ولو وجدوا خللا في مرحلة الإنشاء الأولى، لاستطاعوا أن يحددوه، وبالتالي العمل على تعديله في الحال، وإلا ستكون النتائج كارثية لو لم يلحظ المهندسون الخلل ويعملوا على تصويبه في وقته. وكلما كان الخلل أكبر، كلما كانت ملاحظته أسرع، فالمهندسون (بما لديهم من معرفة وخبرة عملية) يتفقدون أدق التفاصيل التي ربما لا يستطيع الشخص غير المتخصص ملاحظتها. لكن الغاية النهائية تكون على نحو أن تنشئ العمارة على أسس علمية دقيقه وسليمة.

والمنطق نفسه ينطبق على موضوع الإنشاء الذي قدمه الطالب لمعلمه، فالموضوع يجب أن يكون منشأ بطريقة سليمة تراعي تسلسل الأفكار، وترابطها، واستخدام المفردات الصحيحة والتعابير السليمة، التي تضمن وصول الفكرة بوضوح وسلاسة للقارئ بأقل جهد ممكن، وكلما كانت الأفكار مترابطة بشكل قوي، وكلما كانت المكونات صحيحة، كلما ارتفع تقييم المعلم لهذا الموضوع. فالمعلم الذي يقيّم موضوع الإنشاء للطلبة (كما المهندس الذي يقيم مراحل إنشاء البناية الجديدة) يركز على نقطتين رئيسيتين وهما: (1) ما يريد الطالب قوله من أفكار (What to say)، و (2) كيفية ربط هذه الأفكار مع بعضها البعض بشرط توافر الدقة والسلامة في التنفيذ (How to say).

السؤال: ما علاقة هذا بالخلق الذي ينشئه الله إنشاء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عملية الإنشاء (إنشاء أي شيء) يجب أن يكون مبنيا على علم صحيح حتى تأتي النتيجة سليمة صحيحة. وكلما زادت دقة تفاصيل العلم الذي تمت عملية الإنشاء بناء عليه، كلما جاء المنتج أكثر جمالا وأناقة وانتظاما.

لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء الخطير جدا جدا التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: إن عملية إنشاء الخلق الإلهي إنشاء مبنية على علم غاية في الدقة والتفصيل، وبالتالي جاء الخلق الذي أنشأه الله غاية في الانتظام، فكان الله أحسن الخالقين.

السؤال: ما هو هذا العلم الذي تمت بناء عليه عملية إنشاء الخلق الإلهي.

جواب مفترى من عند أنفسنا لا تصدقوه: إنه الشريط الوراثي (أو ما يسمى بالمفردات الأجنبية DNA).

السؤال: ما هو الشريط الوراثي؟ ومن أين جاء هذا الشريط الوراثي؟

رأينا المفترى: الشريط الوراثي هو نفسه لجميع المخلوقات التي أنشأها الله إنشاء.

السؤال: كيف يختلف الشريط الوراثي من خلق إلى خلق إذا؟

رأينا المفترى: إنه الخلق فوق خلق (أي الإنشاء). انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما خلق الله البعوضة، جاء بعد ذلك عملية إنشاء البعوض، فكتب الله الشريط الوراثي الأولى للبعوض. فكانت خلقا حسنا، فما جرى عليها تعديل، فكانت البعوضة هي البعوضة نفسها منذ أن خلقها الله فأنشأها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لكن عندما قرر الإله أن يخلق خلقا آخر فوق البعوضة، قام بتعديل الشريط الوراثي بعمليات ربط (إنشاء) مختلفة، فكتبت فيه نتيجة ذلك معلومات جديدة، أي أنشأها بطريقة جديدة، فكان خلقا آخر. وهكذا بقي الخلق يرتفع بعضه فوق بعض إلى أن وصل إلى الخلق الأخير وهو البشر، فجاء شريطه الوراثي من ذرية قوم آخرين وهم الجن، فأصبح اسمه الجينات الوراثية:

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: 133]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: يسمى الشريط الوراثي بالجينات الوراثية لأنه أصلا جاء مطورا من الشريط الوراثي للجن، فهم من أنشأنا الله من ذريتهم. ومن هنا – نحن نفتري الظن- جاء التفوق البشري على الجن.

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما قرر الإله خلق بشرا من طين، وطلب من الملائكة السجود له.

- ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص: 71-72]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

دب الخصام في الملأ الأعلى:

- ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩﴾ [ص: 67-69]

فلقد كان الجآن (بمن فيهم الملائكة) يظن أنه خير من الإنس (بمن فيهم آدم)، بسبب مادة الخلق التي خلق منها وهي النار، كما جاء على لسان زعيمهم إبليس:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]
- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76]

لكن غابت عن الجن فكرة أنه على الرغم أن مادة خلق البشر من طين، إلا أن عملية إنشاء هذا المخلوق من شريطهم الوراثي أصبحت أكثر تطورا. وهنا نصل إلى نتائج مفترة من عند أنفسنا خطيرة جدا جدا، وهي:

نتيجة مفتراة (1): الجآن خير في الخلق (النار مقابل التراب).

نتيجة مفتراة (2): الإنس خير في النشوء (الجينات متطورة أكثر).

نتيجة مفتراة مهمة جدا: يتفوق الجن على الإنس في مادة الخلق، لكن الإنس متطور أكثر جينيا (الشريط الجيني).

نتيجة مفتراة (3): الخلق مرحلة سابقة للإنشاء.

نتيجة مفتراة (4): الإنشاء يبدأ بعد مرحلة العظام.

نتيجة مفتراة (5) الإنبات مرحلة لاحقة للإنشاء.

فتصبح الصورة في ذهننا على النحو التالي:

خلق – إنشاء - إنبات

السؤال: كيف تتم عملية الإنشاء؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن الإنشاء يتعلق بالأرض، قال تعالى:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: 61]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: 32]

والنفس، قال تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98]

والذرية، قال تعالى:

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: 133]
- ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: 23]
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12-14]

ولو تدبرنا النص القرآني أكثر، لوجدنا بأن النشأة قد حصلت ثلاث مرات، وهي:

النشأة الأولى:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة: 62-65]

والنشأة الأخرى:

- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٧﴾ [النجم: 45-47]

والنشأة الآخرة:

- ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: 20]

افتراء 1: النشأة الأولى "إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ"

افتراء 2: النشأة الأخرى "كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ "

افتراء 3: النشأة الآخرة "أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ"

إن ملخص الفكرة الأولية التي نحاول الترويج لها هنا هي أن عملية الإنشاء هي بحد ذاتها عملية كتابة الشريط الوراثي التي تميز كل فصيلة من الفصائل عن غيرها، وهذا الشريط الوراثي هو الذي يجعل الفصيلة قادرة على النمو بطريقتها الخاصة. فالشريط الوراثي هو في الأصل واحد لكن عملية ربط (إنشاء) مكوناته بعضها ببعض هو ما يجعل كل فصيلة تختلف عن غيرها.

فكان آدم (كبشر) يتميز عن الجن في الإنشاء وإن كان الجن يتميز عن الإنس بالخلق. فمادة خلق إبليس كانت من النار التي هي لا شك خير من الطين الذي خلق منه آدم:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢﴾ [الأعراف: 12]
- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ [ص: 76]

لكن الله الذي خلق آدم جعل له السيادة على الملائكة بدليل أنه قد طلب منهم الوقوع له ساجدين:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: 28-29]
- ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ [ص: 72-76]

وهذا العلم الذي علمه الله لآدم لم يكن متوافرا عن الملائكة أنفسهم، بدليل أنهم قد أقروا بذلك:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: 31-33]

فالشريط الوراثي لآدم يسمح بهذا العلم الذي تفوق فيه آدم على الملائكة، فأصبحوا بذلك ملزمين بالوقوع له ساجدين. وقد جاءت عداوة إبليس لهذا المخلوق الجديد من هذا الباب، فجهد في إضاعة الفرصة على آدم، بأن جعله يفقد هذا العلم الإلهي الذي لو ظل آدم محتفظا به، لكانت الجن كلها مسخرة لآدم وذريته من بعده.

السؤال: كيف حصل هذا أصلا كله على أرض الواقع؟

جواب مفترى: إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى النبش مرة أخرى في تفاصيل قصة الخلق الأولى. فكيف حصلت على أرض الواقع كما نفهمها؟

1. قصة الخلق الأولى: تصور مفترى جديد

عند محاولة النبش في قضية الخلق الأولى، نجد لزاما وضع كل التساؤلات الممكنة على طاولة النقاش، محاولين الإجابة عليها من الآيات الكريمة كما نفهما، لذا نودّ أن نذكّر السادة القرّاء مرة أخرى إلى أننا نطرح افتراءات من عند أنفسنا لا تمثل بأي حال من الأحوال الحقيقة المطلقة، وإنما هي فقط محاولة فردية لفهم الأحداث كما حصلت، وهذه المحاولة تتطلب النقد والتوجيه أكثر من التسليم والانقياد، فنحن – لا شك- نرحب بكل ما من شأنه أن يضيف أو يصحح الطرح، أو حتى ما يمكن أن يبطله برمته، وبالتالي تقديم طرح جديد ربما يكون هو أجدر بالأخذ والتوافق.

أما بعد،

المرحلة الأولى: ما قبل السكن في الجنة

التساؤلات

- لماذا قرر الإله خلق آدم؟
- لماذا احتجت الملائكة على القرار الإلهي؟
- لماذا رفض إبليس على وجه التحديد السجود لآدم؟
- الخ

لو تدبرنا الآيات الكريمة التي تصور قصة الخلق الأول، نجد على الفور أنها قد حصلت فجأة بدليل الأداة وَإِذْ، قال تعالى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]
- ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

فالمتدبر لجميع الآيات الكريمة التي تبدأ بـ وَإِذْ، يجدها (حسب ظننا طبعا) بأنها قد جاءت كلها كحدث مفاجئ، لكننا ننفي أن يكون هذا القرار المفاجئ قد جاء من عبث، فنحن نفتري الظن بأن هذا القرار المفاجئ قد جاء كردة فعل طبيعية نتيجة فعل ما تطلب اتخاذ قرار فوري بشأنه، وانظر عزيزي القاري – إن شئت- في هذا السياق القرآني كمثال على ما نفتري من عندنا:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

فما الذي جعل موسى (نحن نتساءل) يطلب فجاءة من قومه أن يذبحوا بقرة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن قوم موسى قد فعلوا فعلا ما كان مفاجئا لموسى (على الأقل)، فكان لزاما اتخاذ قرار فوري بشأنه من قبل موسى. وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا ينطبق على كل السياقات القرآنية التي تبدأ بـ وَإِذْ. وسنحاول في قادم الأيام (بحول الله وتوفيق منه) النبش في هذه السياقات كل على حده علّنا نستطيع الوقوف على مشغل فتيل هذا الفعل الفجائي.

لكن الآن دعنا نركز على القرار الإلهي (الذي نظنه جاء مفاجئا) بأن يجعل في الأرض خليفة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

ليكون السؤال الحتمي هو: ما الذي جعل الإله يتخذ قراره باستخلاف آدم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الخليفة السابق (وهم الجن) قد أحدثوا فسادا في الأرض، كانت عاقبته أن يأتي الإله بخلق جديد يخلفون الجن الذين أفسدوا في الأرض حينئذ:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم: 19-20]
- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: 133]
- ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: 22]

فالفساد هو الذي يجعل أمة تستخلف أمة سابقة، كما حصل مع قوم هود:

- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: 57]

وكما حصل مع فرعون:

- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: 129]

فلما كان فرعون من المفسدين:

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]

- ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس: 91]

كانت عملية استخلاف غيره في الأرض، سنة إلهية. فأُخرج هو وقومه منها:

- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: 136-137]

وهكذا كانت عاقبة كل الأقوام المفسدين:

- ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]
- ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف: 103]
- ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النمل: 14]

فالله – لا شك – عليم بالمفسدين:

- ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤٠﴾ [يونس: 40]

والله – لا شك – لا يحب المفسدين:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: 64]
- ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص: 77]

لذا، نهانا الله عن اتباع سبيل المفسدين في الأرض:

- ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾ [العنكبوت: 30]
- ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: 28]

نتيجة مفتراة: عندما يحصل الفساد من قوم ما، فإن الاستخلاف تصبح سنة كونية لا محال حاصلة لكن ما فعلته الجن في الأرض قبل القرار الإلهي بخلق آدم كان (نحن نتخيل) فسادا في الأرض كلها، لذا جاء الاستخلاف لهم جميعا. ففساد الجن في الأرض لم يكن محددا بأرض معينة كما حصل مع قوم هود أو مع فرعون، الخ.

نتيجة مفتراة: ما فعلته الجن في الأرض قبل القرار الإلهي باستخلافهم كان قد سبب الفساد في الأرض كلها، لذا كان لابد من استخلافهم جميعا بمن فيهم الملائكة أنفسهم.

السؤال: وما هو الفساد الذي أحدثه الجن في الأرض كلها حتى تم استخلاف غيرهم (البشر)؟

رأينا المفترى: إنها الشجرة التي نهى الله آدم عن الاقتراب منها مع زوجه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن أن الشجرة التي كانت موجودة في الجنة التي أسكنها الله آدم وزوجه لم تكن من خلق الله، ولكنها كانت من عمل الشيطان. فكانت تلك هي عملية الفساد التي قام بها الجن، فجاءت السنة الإلهية إلزامية بأن يستخلف غيرهم، فكان القرار الإلهي بجعل خليفة للجن في الأرض:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: 30]

السؤال: لماذا لم يصلح الله إفساد الجن في الأرض؟ أي لماذا لم يعمد الإله إلى اقتلاع (إي إزالة) تلك الشجرة من جذورها من الجنة وكفي؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الأية الكريمة التالية (كما نفهمها) تجيب على هذا التساؤل:

- ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾ [يونس: 81]

نعم. الله لا يصلح عمل المفسدين. فعندما يحدث خلق من خلق الله فسادا في الأرض، لم تكن السنة الإلهية على نحو أن يصلح الله عمل المفسدين. وذلك لو أن السنة الإلهية كانت على نحو إصلاح عمل المفسدين، لما وجد الفساد على الأرض إطلاقا، ولانتفت الحكمة الإلهية في تمحيص العباد با.يعلم الله المفسد من المصلح منهم. فالله قد جعلنا خلائف في الأرض للنظر فيما نعمل:

- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: 13-14]

نتيجة مهمة جدا جدا: الله يهلك القرون عندما يظلموا لكنه لا يصلح عملهم. انتهى.

السؤال: لماذا لم يهلك الله الجن قاطبة عندما أحدثوا الفساد في الأرض كلها بتلك الشجرة؟

رأينا المفترى: لما أقدم الجن (وخاصة الشياطين منهم) على عمل الفساد في الأرض، لم يكن الجن جميعهم موافقين على ذلك، فالملائكة (وهم فصيلة من الجن) بقيت تسبح بحمد ربها وتقدس له:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

فالاستخلاف كان سنة إلهية للصالحين على المفسدين، لأن الأرض من حق عباد الله الصالحين:

- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ [الأنبياء: 105-106]

فعندما يفسد قوم في الأرض، تكون النتيجة على النحو التالي:

1. إذا كان الفساد من الجميع، فالله يذهبهم ويستخلف من بعدهم قوما غيرهم:

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: 133]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩﴾ [إبراهيم: 19]
- ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٦﴾ [فاطر: 16]

2. إذا كان الفساد من البعض وليس من الكل، ولكن كلمة المفسد هي التي تطغى على كلمة المصلح، فإن الاستخلاف فقط هو الذي سيحصل، وهذا ما نجده في حالة داوود مثلا:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

فلقد كانت الأرض في زمن داوود (نحن نتخيل) منقسمة بين أتباع جالوت (فريق الفساد) مقابل اتباع طالوت (فريق الإصلاح)، فكان الاستخلاف للمصلحين وعلى رأسهم داوود.

ولو تدبرنا مفردة خليفة في السياق القرآني، لوجدنا أنها لم تأت إلا بحق آدم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

وحق داوود:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

ليكون السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: في الفترة التي سبقت داوود كانت السيطرة على الأرض للمفسدين، فريق جالوت، وكانت الأرض تعج بالفساد بسبب ما فعلته الشياطين لفريق جالوت. وما أن آلت الخلافة لداوود ولولده سليمان من بعده حتى أصبح الجن جميعا تحت أمر سليمان، فوصل بهم الحال إلى أن يلبثوا في العذاب المهين:

- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: 14]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: عندما كانت الجن تفسد في الأرض في زمن داوود وسليمان، لم تكن السنة الإلهية على نحو أن يذهبهم ويأت بخلق جديد، بل كانت على نحو أن يستخلف عليهم قوما صالحين.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: ليذيقهم من العذاب الأليم.

الدليل: عندما كانت الخلافة لداوود ثم آل الملك من بعده لولده سليمان، كانت الجن مسخرة لسليمان لدرجة أن من يزغ منهم عن الأمر يذاق من عذاب السعير:

- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ: 12]

السؤال: ما علاقة هذا بخلافة آدم للجن؟

رأينا المفترى: لما أحدث الجن الفساد في الأرض بتلك الشجرة، جاء القرار الإلهي باستخلاف البشر (آدم) عليهم ليذيق من يزغ منهم عن الأمر من عذاب السعير، فكان آدم خليفة، وكانت علامات الخلافة هي تلك العصا التي كانت بيد آدم. فلا يستطيع أحد منهم أن يزغ عن الأمر. فكانت الخطة الإلهية تقضي بأن يسخر الجن جميعا (بمن فيهم الملائكة) لأمر آدم، وكانت العصا التي بيد آدم هي التي يذيق بها آدم من يزغ منهم عن الأمر عذاب السعير.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لم تكن الجن (وخاصة الشياطين منهم) تستطيع أن تزغ عن أمر آدم مادامت تلك العصا بيده، وذلك لأن باستطاعة آدم أن يذيق من يزغ منهم عن أمره عذاب السعير. فكانت خطة الشيطان تقضي بأن ينزع تلك العصا من يد آدم. وبالفعل نجح الشيطان بأن ينزع تلك العصا من يد آدم بمبدأ المقايضة: أن يترك آدم عصا الخلافة من يده في سبيل أن يملك عصا الخلد (عضوه الذكري). فنجحت خطة الشيطان فتمت المقايضة بنجاح للشيطان وخسارة واضحة لآدم.

(للتفصيل حول هذه الجزئية أرجو العودة إلى ما جاء في بعض الأجزاء السابقة)

لكن دعنا نركز النقاش هنا على قصة الخلق الأول بطرح السؤال التالي مرة أخرى: لماذا أحدث الجن الفساد في الأرض كلها بتلك الشجرة؟

رأينا المفترى: إنها الغواية

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكرية التالية:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]

لوجدنا على الفور بأن الله هو من أغوى إبليس. ليكون السؤال هو: كيف نفهم أن الله هو من أغوى إبليس، ففعل فعلته التي فعل؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من أجل فهم كيفية غواية الله لإبليس، لابد أن نقف أولا على معنى الغواية.

لنطرح السؤال المبدئي التالي: ما معنى الغواية (ومشتقاتها)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية ترشدنا (إن فهمناها كما يجب) إلى معنى الغواية، قال تعالى:

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 2]

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يجد لزاما أولا أن يفرّق بين الضلال من جهة والغواية من جهة أخرى. لذا علينا أن نطرح التساؤلات التالية:

- ما هو الضلال؟
- ما هي الغواية؟
- ما الفرق بين الضلال والغواية؟
- ما علاقة هذا بغواية الله لإبليس؟
- الخ

لو تفقدنا الآيات الخاصة بالضلال، فإننا سنجد أن الضال هو الشخص الباحث عن الطريق المستقيم:

- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحى: 7]

فالله هو من وجد محمدا ضالا، أي باحثا عن الطريق المستقيم، فهداه الله، فما عاد محمد ضالا منذ تلك اللحظة.

(للتفصيل انظر ما جاء في بعض مقالاتنا السابقة حول هذه القضية خاصة الجزء السادس من فقه الزكاة)

لكن المتدبر للآية الكريمة يجد على الفور أن الضلال مرحلة سابقة للغواية. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- مرة أخرى في الآية نفسها من هذا المنظور:

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 2]

السؤال: إذا كانت الضلالة تسبق الهداية إلى الطريق المستقيم، فما هي الغواية التي نظن (ربما مخطئين) أنها قد تقع بعد حصول الهداية؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الغواية هي أن يكون الشخص عالما بالطريق المستقيم لكنه يحيد عنه لغاية في نفسه، وهنا يكون قد غوى. لكن لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الغواية تكون بسبب ما سيترتب على الانحراف عن الطريق المستقيم من منفعة للشخص نفسه الذي غوى. فأنا أستطيع أن أغويك عندما يكون لاتباعك غير الطريق المستقيم منفعة خاصة ربما لا تتأتى بغير الغواية.

مثال: عندما يعمد محل تجاري على تنزيل أسعار بعض السلع بشكل ملحوظ، فإن الزبون يرى في شرائه لهذه السلعة بالسعر المخفض منفعة له، لكن يبقى التساؤل المثير هو: لماذا عمد ذلك المحل التجاري إلى تخفيض سعر البضاعة بشكل ملفت للنظر؟ هل فعلا غايته الأولى والأخيرة أن تعود المنفعة على الزبون بشكل مباشر؟ هل فعلا غايته (أو لنقل هدفه) هو الصالح العام ومنفعة زبونه وكفى؟

رأينا المفترى: ربما يكون ذلك هو أحد أهدافه، لكن ربما يكون له هدف آخر (غاية) غير معلن عنها، كأن يلحق الضرر بمنافسيه من المحال التجارية الأخرى. فأحيانا تقوم بعض المحال التجارية (خاصة الكبرى منها) بتخفيض سعر كثير من البضائع ليس خدمة مباشرة لزبائنهم وإنما من باب إلحاق الضرر بالمنافسين لهم. ولو استمر الحال على ما هو عليه من تخفيض أسعار كثير من السلع في هذا المحل التجاري، فإن ذلك سيشكل إغراء كبيرا للزبون بأن يتوجهوا إلى هذا المحل بالذات، وبالتالي تحقيق الهدف (غير المعلن) بإضعاف المنافسين، وربما يؤدي ذلك (إن استمر) إلى إلحاق الضرر الفعلي بالمنافسين، قد يصل إلى درجة إغلاق محلاتهم والخروج من دائرة المنافسة. ولو نجح المحل التجاري الذي يقدم عروضه المغرية في إغلاق أكبر عدد من المحلات المنافسة، لربما خلا له السوق، وعندها سيصبح هو المتحكم الأكبر بالسوق، وبالتالي سيتحكم بالأسعار كيف يشاء، وربما يستطيع بعدها أن يرفع الأسعار كيفما يشاء ويحقق الأرباح التي (لا شك) ستعوضه عن كل ما كان قد تنازل عنه في مرحلة المنافسة مع الأسواق السابقة المنافسة له.

إذا، ربما يقع الشخص (نحن نظن) في الغواية عندما يظن بأن منفعة محددة قد تتحقق له بسلوك طريق غير السبيل المستقيم. لكن ذلك لا يمكن أن يقع في باب الغواية ما لم يتوفر البديل. فالغواية تحصل عندما يكون الشخص أمام خيارين اثنين، فيكون هناك أمامه سبيلان على الأقل: سبيل الطريق المستقيم وسبيل غير الطريق المستقيم. تخيل عزيزي القارئ أني قد وضعتك أمام خيارين، أحدهما طريق مستقيم لا يجلب لك منفعة مباشرة والأخرى طريق غير المستقيم لكن يجلب لك (حسب ظنك) منفعة خاصة على الفور. فما الذي فعلته بك حينئذ؟

رأينا المفترى: هنا أكون قد أغويتك، لأني قدمت لك الاغراء الذي يحتاج إلى أن تقاومه (لا أن تقع فيه). فإن أنت وقعت فيه، فقد غويت، وإن أنت لم تقع فيه، فقد نجوت.

نتيجة مفتراة مخمة جدا: الغواية تتطلب وجود حرية الاختيار بين خيارين اثنين، أحدهما يجلب لك منفعة خاصة ويوقع ضررا بالآخرين. والآخر قد لا يجلب لك منفعة خاصة لكنه لا يلحق الضرر بالآخرين. فما الذي ستختاره أنت؟

رأينا المفترى: إن كانت نيتك هي أن تجلب لنفسك منفعة خاصة على حساب إيقاع الضرر بالآخرين، فإنك بذلك تكون قد غويت.

وهذا ما كان (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) من أمر إبليس، لقد كان يريد أن يجلب منفعة خاصة له (بأن لا يجعل عليه خليقة) وفي الوقت ذاته إيقاع الضرر بهذا المنافس له (آدم)، فكانت تلك غواية الله لإبليس بأن وضعه في هذا الاختبار الحقيقي ليكشف ما في قلبه فعلا. وبالفعل بأن ما في قلبه فكان من المتكبرين:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

فالله هو من وضع إبليس في هذا الموقف المحرج له، لأنه كان عليه أن يتخذ قرارا ينبئ بما في قلبه فعلا، فظهرت عداوته لآدم كما جاء في القول الإلهي لآدم من قبل:

- ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]

ولو لم يكن إبليس يتخذ من آدم عدو، لما كانت خطته تقضي بأن يوقع الضرر بآدم. فعو قد غوى لأنه لم يكن فقط يريد جلب منفعة لنفسه ولكنه كان أكثر حرضا على إيقاع الضرر بغيره. وهو قد فعل ذلك عن علم مسبق عنده بأن هذا الأمر ليس من سبيل الله المستقيم في شيء. فهو من فسق عن أمر ربه:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]

إن الدرس المستفاد منه من مثل هذا الطرح أن أي يشخص يقع في الغواية يكون قد وقع فيها عن سبق إصرار، وذلك بأن يكون قد أضمر في نفسه إيقاع الضرر بالآخرين. فعندما تكون في معضلة ما، وتفكر في جلب المصلحة لنفسك بالطريقة المشروعة، فإن ذلك لا يقع إطلاقا (نحن نرى) في باب الغواية. ولكن يصبح ذلك غواية إن كان هدفك إلحاق الضرر بالآخرين. فالتاجر الذي يعمد إلى تنزيل أسعار البضاعة خدمة للناس ولمصلحته الشخصية في تصريف البضاعة بالسعر المعقول، فهو لا شك ليس من الغاوين، لكن التاجر الذي يفعل ذلك من أجل أن يلحق الضرر بالمنافسين له ليخلو له السوق بعد ذلك، فيتصرف به حينئذ كيفما يشاء، فهو لا شك من الغاوين. والموظف الذي ينافس زملائه في العمل بطريق شريفة محترمة لرفع سوية العمل وجلب المنفعة لنفسه، فهو ليس من الغاوين، لكن الموظف الذي يفعل ذلك من أجل جلب منفعة له وإلحاق الضرر بزملائه، فهو لا شك من الغاوين. ولا يمكن (نحن نظن) أن يقع في فعل الغواية إلا أن يكون قاصدا الحاق ضرر بالمنافس له.

السؤال: كيف نفهم أن الله هو من أغوى إبليس؟

رأينا المفترى: إنها سنة الله الكونية بفوقية الخلق.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان الشيطان يعلم بأن سنة الله الكونية تقضي بأن يكون خلقا من بعد خلق، وأن الخلق الجديد سيكون له الأفضلية على الخلق السابق، كانت الخطة الشيطانية نحن نتجرأ على الظن- تنطوي على محاولة الشيطان أن يوقف هذه السنة الإلهية حتى تصبح الأرض غير صالحة لسواهم فلا يتم إيجاد خلق من فوقهم في هذه الأرض. فيجلب بذلك منفعة له ويوقع ضررا بالخلق الجديد.

وهذا ما فعله الشيطان مع آدم لاحقا، فقد وضعه أمام آدم خيارين: الخلافة (العصا) أو الملك (العضو الذكري). فكان على آدم أن يسلك الطريق السليمة وهي الخلافة، فيبقى متحكما بالجن، لكن الشيطان قدم له الخيار الثاني الذي جلب له منفعة خاصة (وهو الجنس)، فكان على آدم الاختيار، فما كان من آدم إلا أن غوى:

- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: 121]

السؤال: أليس في ذلك (من وجهة نظر آدم على الأقل) منفعة له، فما الضرر الذي أوقعه آدم على غيره؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن آدم قد جلب مصلحة ذاتيه لنفسه (أي الجنس) لكن كان ذلك على حساب زوجه؟

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها.

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه فيها لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم.

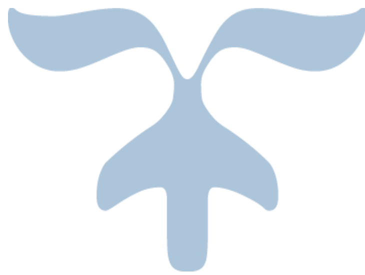
المدكرون: رشسد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & محمد مقداد
بقلم: د. رشيد الجراح - 17 كانون ثاني 2019



الجزء الرابع

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء الرابع: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

باب: الفرق بين الخلق والإنشاء والإنبات

حاولنا في الجزء السابق التفريق بين مفردات ثلاثة هي الخلق والإنشاء والإنبات.

- ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]

فوجدنا بأن الله قد أنبتنا من الأرض. وهنا يجب أن يثار التساؤلات التالية:

- كيف أنبتنا الله من الأرض؟
- ما هو الإنبات؟
- كيف يختلف الإنبات عن الإنشاء؟
- كيف يختلف الإنبات والإنشاء عن الخلق؟
- الخ

افتراء 1: نحن نفتري الظن بداية بأن مفردة "النبات" (ومشتقاتها) تعني النمو التدريجي الذي يمر به كل كائن حي سواء كان نباتا أو حيوانا أو بشرا (كما نسميها بمفردتنا الدارجة).

ولكن المشاهد بأنه على الرغم أن كل الثمرات تنبت (أي تنمو) بنفس الطريقة (أي النمو التدريجي)، إلا أنها تختلف عن بعضها البعض، ويفضل بعضها على بعض في الأكل. فما الذي يجعلها تختلف بالرغم أن الأرض واحدة والماء واحد؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: إنه النشوء. وهذا – برأينا- ما يجعلها متشابهة وغير متشابهة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نتجرأ على افتراء الظن بأن سبب الإنشاء هو الماء كما نفهم ذلك من الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾ [المؤمنون: 18-19]

فالماء – حسب فهمنا لهذه الآية الكريمة - هو الذي أنشأ الله لنا به الجنات التي فيها فواكه كثيرة منها نأكل.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن عملية الإنشاء هي عبارة عن عملية كتابة الشيفرة الوراثية لكل فصيلة من هذه الفصائل، فكل فصيلة من هذه الفصائل لها شيفرة وراثية على شكل ما يسمى بالمفردات العلمية الدار جة بشريط DNA، وهو الذي – نحن نظن- يجعل كل فصيلة من هذه الفصائل مميزة عن غيرها.

وهنا نصل إلى نتيجة - حسب فهمنا لهذه اللحظة – في ظاهرها متناقضة تماما. ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

نتيجة مفتراة 1: الماء هو الذي ينبت الجنات.

- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: 60-61]
- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: 10]
- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: 9-11]
- ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: 25-32]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: 99]

نتيجة مفتراة 2: الماء هو الذي ينشئ الجنات.

- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المؤمنون: 18-19]

السؤال: كيف ذلك؟ أي كيف يمكن أن يكون الماء هو سبب الإنبات (وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ)؟ وكيف يكون الماء في الوقت ذاته هو سبب الإنشاء (فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)؟

افتراء خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن بأن للماء وظفتين اثنتين هما.

1- أن ينبت به الجنات. وإنبات الجنات هو الذي يجعل الشجر ينمو شيئا فشيئا. فهناك عنصر محدد في الماء هو (نحن نظن) الذي يجعل الشجر والزرع قادرا على النمو (الإنبات)، فما هو ذلك العنصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن مادة الإنبات (أي النمو التدريجي بالمفردات الدارجة) هي عملية التمثيل الضوئي التي تحتاج إلى عنصر الأكسجين.

2- أن ينشئ الجنات. وإنشاء الجنات هو الذي يجعل الشجر يحتفظ بخصاصه الوراثية. فهناك عنصر في الماء هو الذي يجعل الشجر والزرع قادرا على الاحتفاظ بتلك الصفات، فما هو ذلك العنصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن العنصر المائي الذي ينشئ الزرع كله هو عنصر الهيدروجين. انتهى.

الدليل: لكي نجلب الدليل على افتراءاتنا هذه، علينا أن نحاول التفريق بشكل أكثر دقة بين الإنبات من جهة والإنشاء من جهة أخرى، لنطرح إذا السؤال على النحو المباشر التالي: ما الفرق بين الانبات والإنشاء؟

افتراء خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الانبات والإنشاء هما عمليتا النمو التدريجي، لكن في حين أن الإنبات يكون عاموديا (إلى الأعلى)، فإن الإنشاء يكون أفقيا (على الجوانب). فالفرق بينهما هو كالفرق بين العلاقة العامودية والأفقية.

السؤال: وكيف ذلك؟

نتيجة مفتراة: عملية إنشاء الجنات هي عملية أولية أساسية تبدأ بعمل القاعدة اللازمة لبداية الإنبات، وهي العملية اللازمة لتجذر الزرع في الأرض، وذلك بعمل الروابط بين طرفي الشريط الوراثي، الأمر الذي يؤدي إلى فلق الحب والنوى. وهو ما يسمى بالشريط الوراثي أو الحمض النووي الصبغي (DNA). فالله هو من يفلق الحب والنوى، وعملية فلق النوى هو عملية انقسام الخلية الأم.

افتراء 1: الخلق هو عملية تحول من حالة إلى خالة أخرى.

افتراء 2: الإنشاء هو عملية ربط أفقية لطرفي الشريط الوراثي للمادة المخلوقة.

افتراء 3: الإنبات هي عملية النمو العامودي للمادة المنشأة.

السؤال: ما هو هذا العلم الذي تمت بناء عليه عملية إنشاء الخلق الإلهي؟

جواب مفترى من عند أنفسنا لا تصدقوه: إنه الشريط الوراثي (أو ما يسمى بالمفردات الأجنبية DNA)

السؤال: ما هو الشريط الوراثي؟ ومن أين جاء هذا الشريط الوراثي؟

رأينا المفترى: الشريط الوراثي هو نفسه لجميع المخلوقات التي أنشأها الله إنشاء.

السؤال: كيف يختلف الشريط الوراثي من خلق إلى خلق إذا؟

رأينا المفترى: إنه الخلق فوق خلق (أي الإنشاء). انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما خلق الله البعوضة، جاء بعد ذلك عملية إنشاء البعوض، فكتب الله الشريط الوراثي الأولى للبعوض. فكانت خلقا حسنا، فما جرى عليها تعديل، فكانت البعوضة هي البعوضة نفسها منذ أن خلقها الله، فأنشأها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لكن عندما شاء الإله أن يخلق خلقا آخر فوق البعوضة، قام بتعديل الشريط الوراثي بعمليات ربط (إنشاء) مختلفة، أي أنشأها بطريقة جديدة، فكتبت فيه نتيجة ذلك معلومات جديدة، فكان خلقا آخر. وهكذا بقي الخلق يرتفع بعضه فوق بعض إلى أن وصل إلى الخلق الأخير وهو البشر، فجاء شريطه الوراثي من ذرية قوم آخرين وهم الجن، فأصبح اسمه الجينات الوراثية.

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: 133]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: يسمى الشريط الوراثي بالجينات الوراثية لأنه أصلا جاء مطورا من الشريط الوراثي للجن، فهم من أنشأنا الله من ذريتهم. ومن هنا – نحن نفتري الظن- جاء التفوق البشري على الجن.

نتيجة مفتراة (1): الجآن خير في الخلق (النار مقابل التراب)

نتيجة مفتراة (2): الإنس خير في النشوء (الجينات متطورة أكثر).

نتيجة مفتراة مهمة جدا: يتفوق الجن على الإنس في مادة الخلق، لكن الإنس متطور أكثر جينيا (الشريط الجيني).

نتيجة مفتراة (3): الخلق مرحلة سابقة للإنشاء.

نتيجة مفتراة (4): الإنشاء يبدأ بعد مرحلة العظام.

نتيجة مفتراة (5) الإنبات مرحلة لاحقة للإنشاء.

فتصبح الصورة في ذهننا على النحو التالي: خلق – إنشاء - إنبات

السؤال: كيف تتم عملية الإنشاء؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن الإنشاء يتعلق بالأرض، قال تعالى:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ٦١﴾ [هود: 61]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: 32]

والنفس، قال تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ [الأنعام: 98]

والذرية، قال تعالى:

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: 133]
- ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: 23]
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 12-14]

ولو تدبرنا النص القرآني أكثر، لوجدنا بأن النشأة قد حصلت ثلاث مرات، وهي:

النشأة الأولى:

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ [الواقعة: 62-65]

والنشأة الأخرى:

- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ٤٧﴾ [النجم: 45-47]

والنشأة الآخرة:

- ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: 20]

افتراء 1: النشأة الأولى "إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ"

افتراء 2: النشأة الأخرى "كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ "

افتراء 3: النشأة الآخرة "أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ"

إن ملخص الفكرة الأولية التي نحاول الترويج لها هنا هي أن عملية الإنشاء هي بحد ذاتها عملية كتابة الشريط الوراثي التي تميز كل فصيلة عن غيرها من الفصائل الأخرى، وهذا الشريط الوراثي هو الذي يجعل كل الفصيلة (نوع) قادرة على النمو بطريقتها الخاصة. فالشريط الوراثي هو في الأصل واحد لكن عملية ربط (إنشاء) مكوناته بعضها ببعض هو ما يجعل كل فصيلة تختلف عن غيرها.

التساؤلات

- كيف حصل هذا؟
- لماذا حصل هذا كله؟
- ما انعكاسات ذلك علينا نحن الخلق الاخير (الإنس)؟
- الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أن مثل هذه التساؤلات تعيدنا على الدوام إلى فهم آلية الخلق الأول، وخاصة قصة خلق آدم واستخلافه في الأرض.

المرحلة الأولى: ما قبل السكن في الجنة

التساؤلات

- لماذا قرر الإله خلق آدم؟
- لماذا احتجت الملائكة على القرار الإلهي؟
- لماذا رفض إبليس على وجه التحديد السجود لآدم؟
- الخ

ليكون السؤال الحتمي هو: ما الذي جعل الإله يشاء أو لنقل يتخذ قراره (المفردات الدارجة) باستخلاف آدم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الخليفة السابق (وهم الجن) قد أحدثوا فسادا في الأرض، كانت عاقبته المباشرة أن يأتي الإله بخلق جديد يخلفون الجن الذين أفسدوا في الأرض حينئذ:

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133)

- ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣﴾ [الأنعام: 133]
- ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفجر: 12-13]

السؤال: وما هو الفساد الذي أحدثه الجن في الأرض كلها حتى تم استخلاف غيرهم (البشر)؟

رأينا المفترى: إنها الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عن الاقتراب منها:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩﴾ [الأعراف: 19]

السؤال: لماذا لم يصلح الله إفساد الجن في الأرض؟ أي لماذا لم يعمد الإله إلى اقتلاع (إي إزالة) تلك الشجرة من جذورها من الجنة وكفي؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها) تجيب على هذا التساؤل:

- ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾ [يونس: 81]

نعم. الله لا يصلح عمل المفسدين. فعندما يحدث خلق من خلق الله فسادا في الأرض، لم تكن السنة الإلهية على نحو أن يصلح الله عمل المفسدين. وذلك لو أن السنة الإلهية كانت على نحو إصلاح عمل

المفسدين، لما وجد الفساد على الأرض إطلاقا، ولانتفت الحكمة الإلهية في تمحيص العباد ليعلم الله المفسد منهم من المصلح. فالله قد جعلنا خلائف في الأرض للنظر فيما نعمل:

- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: 14]

رأينا المفترى: لما أحدث الجن الفساد في الأرض بتلك الشجرة، جاء القرار الإلهي باستخلاف البشر (آدم) عليهم ليذيق من يزغ منهم عن الأمر من عذاب السعير، فكان آدم خليفة، وكانت علامات الخلافة هي تلك العصا التي كانت بيد آدم. فلا يستطيع أحد منهم أن يزغ عن الأمر. وكانت السنة الإلهية تقضي بأن يسخر الجن جميعا (بمن فيهم الملائكة) لأمر آدم، وكانت العصا التي بيد آدم هي التي يذيق بها آدم من يزغ منهم عن الأمر عذاب السعير. فكانت العصا (نحن نتخيل) سوط عذاب مسلط عليهم أجمعين بالضبط كما حصل للجن بسبب منسأة سليمان:

- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢﴾ [سبأ: 12]

وما خرجوا من ذلك العذاب المهين إلا يوم أن أكلت دابة الأرض تلك المنسأة، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- تتمة السياق القرآني السابق:

- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٣ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: 12-14]

(للتفصيل حول هذه القضية انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان باب السامري وما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته).

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لم تكن الجن (وخاصة الشياطين منهم) تستطيع أن تزغ عن أمر آدم مادامت تلك العصا بيده، وذلك لأن باستطاعة آدم أن يذيق من يزغ منهم عن أمره عذاب السعير. فكانت خطة الشيطان تقضي بأن ينزع تلك العصا من يد آدم. وبالفعل نجح الشيطان بأن ينزع تلك العصا من يد آدم بمبدأ المقايضة: أن يترك آدم عصا الخلافة من يده في سبيل أن يملك عصا الخلد (عضوه الذكري). فنجحت خطة الشيطان فتمت المقايضة بنجاح للشيطان وخسارة واضحة لآدم.

(للتفصيل حول هذه الجزئية أرجو العودة إلى ما جاء في بعض مقالاتنا السابقة خاصة نظرية الأمانة منها).

لكن دعنا نركز النقاش هنا على قصة الخلق الأول بطرح السؤال التالي مرة أخرى: لماذا أحدث الجن الفساد في الأرض كلها بتلك الشجرة؟

رأينا المفترى: إنها الغواية

السؤال: وكيف ذلك؟

السؤال: كيف نفهم أن الله هو من أغوى إبليس؟

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39-40]

رأينا المفترى: إنها سنة الله الكونية بفوقية الخلق

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان الشيطان يعلم بأن سنة الله الكونية تقضي بأن يكون خلقا من بعد خلق، وأن الخلق الجديد سيكون له الأفضلية على الخلق السابق، فالجن لهم أفضلية على الخلق السابق لهم كالطير والدواب مثلا، كانت الخطة الشيطانية - نحن نتجرأ على الظن- تنطوي على محاولة الشيطان أن يوقف هذه السنة الإلهية حتى تصبح الأرض غير صالحة لسواهم فلا يتم إيجاد خلق من فوقهم في هذه الأرض. فيجلب بذلك منفعة له ويوقع ضررا بالخلق الجديد.

وهذا (نحن نتخيل) ما فعله الشيطان مع آدم لتنفيذ خطته تلك: فقد وضعه أمام خيارين: الخلافة (العصا) أو الملك (العضو الذكري). فكان على آدم – بناء على أمر ربه بعدم الاقتراب من الشجرة- أن يسلك الطريق السليمة وهي الخلافة، فيبقى متحكما بالجن. لكن الشيطان قدم له الخيار الثاني الذي جلب له منفعة خاصة (وهو الجنس)، فكان على آدم الاختيار، فما كان من آدم إلا أن غوى:

- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

السؤال: أليس في ذلك (من وجهة نظر آدم على الأقل) منفعة له، فما الضرر الذي أوقعه آدم على غيره؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن آدم قد جلب مصلحة ذاتيه لنفسه (أي الجنس) لكن كان ذلك على حساب زوجه. كما أن ذلك كان منفعة للإله نفسه انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: من أجل الإجابة على هذا التساؤل، علينا أن نحاول البحث أولا في بعض التساؤلات التي يمكن أن يثيرها النقاش السابق الخاص بالغواية، فلقد افترينا القول – بناء على فهمنا للآية التالية- بأن الله هو من أغوى إبليس:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39-40]
- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: 82-83]

والآيات ذاتها تبين بأن الشيطان هو من توعد آدم وذريته بالغواية. ولم يمنع الله نفسه إبليس من غواية الناس أجمعين "قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ"، واستثنى من ذلك فقط عباد الله المخلصين "إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ". لتكون التساؤلات الآن على النحو التالي:

- ما هي الغواية؟

- كيف أغوى الله إبليس؟
- لماذا أغوى الله إبليس؟
- كيف أغوى الشيطان آدم؟
- كيف يغوي الشيطان ذرية آدم؟
- لماذا سمح الله لإبليس أن يغوي الناس أجمعين؟
- وهل الله نفسه يغوي عباده؟
- الخ.

باب الغواية

دعنا نتفقد - بداية- الآيات الكريمة التي وردت فيها مفردة الغواية ومشتقاتها. لنحاول من خلالها الوقوف (بإذن الله وحده) على المعنى الحقيقي للغواية كما يبينها النص القرآني ذاته، قال تعالى:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39-40]
- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: 82-83]
- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]
- ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤﴾ [هود: 34]
- ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٨ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 18-19]
- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ٦٣﴾ [القصص: 63]
- ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢﴾ [الصافات: 32]
- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 2]

وبناء على هذه السياقات، نستطيع الانتهاء إلى السيناريوهات التالية:

- الله نفسه هو من أغوى إبليس:
- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]
- الله يغوي الناس:
- ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤﴾ [هود: 34]
- غوى آدم بفعل وسوسة الشيطان له:

- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: 120-121]

- إبليس يغوي الناس أجمعين ولا ينفذ من ذلك إلا عباد الله منهم المخلصين:

- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82-83]

- موسى وقع فريسة الغواية:

- ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ۝١٨﴾ [القصص: 18]

- كثير من الناس وقعوا في الغواية، فكانوا هم سببها وكانوا هم ضحيتها في آن واحد:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ۝٦٣﴾ [القصص: 63]

- ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢﴾ [الصافات: 32]

- محمد لم يقع في فعل الغواية اطلاقا:

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: 2]

السؤال الرئيسي: ما هي الغواية؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة الغواية (مشتقاتها) بناء على السياقات السابقة، لربما تجرأنا ابتداء على افتراء الظن بأن الغواية تتمثل بتمحيص ما يدور في قلب الشخص الذي يبغي الأمور أن تكون عوجا. انتهى.

ولما كان إبليس أول الغاوين، فهو (نحن نظن) أول من كان يبغيها عوجا، وقد كان هذا (نحن نفتري الظن) من أهم أسباب استخلاف آدم في الأرض. فالله كان يعلم أن إبليس يبغيها عوجا، فآتاه من حيث لا يحتسب عندما طلب منه السجود لم هو أقل منه خيرية في الخلق. (وسنرى تفصيل هذا بعد قليل بإذن الله). لكن، لو دققنا الآن في الآيات التالية جيدا:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٩﴾ [هود: 19]

- ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٣﴾ [إبراهيم: 3]

لوجدنا بأن موصفات هؤلاء هي على النحو التالي:

1. هم الذين يصدون عن سبيل الله "ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ"
2. وهم الذين يبغونها عوجا "وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا"
3. وهم بالآخرة هم كافرون "وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ"
4. وهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة "ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ"

والآن دعنا نحاول أن نسقط ذلك تباعا على السياقات القرآنية التي وقع فيها البعض في الغواية.

فهذا إبليس قد كان أول من غوى:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف: 16]

وكان الله نفسه هو من أغواه:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف: 16]
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: 39-40]

فما الذي دفع إبليس أن يغوي؟ ولماذا أغواه الله؟ وهل يعتبر هذا حجة لإبليس على ربه؟

رأينا المفترى، نحن نظن أن إبليس قد غوى لأنه كان يصد عن سبيل الله، وهو ممن استحب الحياة الدنيا على الآخرة، وهو ما كان يبغيها عوجا، وهو من كان بالآخرة من الكافرين. انتهى.

فهو أصلا قد أستحب الحياة الدنيا على الآخرة، وليس أدل على ذلك من طلبه من ربه أن ينظره إلى يوم يبعثون:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾ [الحجر: 36]

ولا شك أنه ممن يصد عن سبيل الله، وليس أدل على ذلك من قوله:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف: 16]

فهو إذا ممن قعد لعباد الله صراط الله المستقيم، ولا يستطيع النفاذ من شركه إلا قليل من عباد الله المؤمنين وخاصة المخلصين منهم.

- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82-83]

ولا شك أنه كان من الكافرين بصريح اللفظ القرآني:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]
- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [ص: 74]

ولو كان إبليس ممن يؤمنون بيوم الدين، لما تجرأ على ألا ينزل عند الأمر الإلهي له بالسجود:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف: 12-13]
- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ [ص: 75-81]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لقد آثر إبليس (نحن نفتري الظن) حب الحياة الدنيا (الخلود في الأرض) على الآخرة، وكان من الكافرين.

السؤال: كيف كان إبليس من الكافرين؟ ألم يكن يعترف بالله ربا له؟ أليس هذا ما قاله حتى بعد رفضه السجود لآدم؟

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾ [الحجر: 36]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: للإجابة على هذا التساؤل، دعنا ندقق في السياق القرآني التالي جيدا:

- ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾ [إبراهيم: 1-3]

حسب صريح اللفظ في هذه الآية الكريمة، نستطيع أن نفتري القول بأن للكافرين ثلاث صفات رئيسية، ألا وهي:

1. يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة.
2. يصدون عن سبيل الله.
3. يبغونها عوجا.

- .... وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾ [إبراهيم: 1-3]

وهؤلاء هم أنفسهم الذين لا يريدون أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور، بل على العكس هم الذين يبغونها عوجا بأن يخرجوا الناس من النور إلى الظلمات. ففي حين أن الله هو وليّ الذين آمنوا فيخرجهم من الظلمات إلى النور، كان الطاغوت (الشيطان) هو وليّ الذين كفروا، فيخرجهم من النور إلى الظلمات.

- ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٥٧﴾ [البقرة: 257]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نظن بأن واحدة من أهم صفات الكافرين هي أنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة. وبناء على هذا، نستطيع إذا أن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن من أهم صفات من استحب الحياة الدنيا على الآخرة هو أنه ممن يبغونها عوجا. فليس كل ما في الحياة الدنيا هو الطريق المستقيم، فمن سلك الطريق المستقيم، فهو ممن أحب الآخرة على الدنيا، وبالمقابل فإن كل من سلك غير الطريق المستقيم، فهو ممن أحب الحياة الدنيا على الآخرة. ونحن نتجرأ على الظن بأن كل من كان من هؤلاء الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، لا يمكن إلا أن يقع في فعل الغواية. انتهى.

السؤال: لكن كيف ذلك؟ كيف يقع كل من أحب الحياة الدنيا على الآخرة في فعل الغواية؟ وهل هناك أحد لا يحب الحياة الدنيا؟ وما هو معيار حب الحياة الدنيا على الآخرة أصلا؟

رأينا المفترى: نعم. كل من أحب شيئا من الحياة الدنيا على الآخرة وقع – لا محالة- في الغواية شاء أم أبى. ولو استثنيا المسيح عيسى ابن مريم لأنه أصلا كلمة الله وروح منه، ولا يصنف في فئة الناس.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالتنا تحت عنوان كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم)

يبقى شخص واحد فقط من بين العالمين هو الذي لم يقع في فعل الغواية، لأنه ببساطة ما أحب شيئا من الحياة الدنيا على الآخرة.

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: 2]

نعم. محمد هو الشخص الوحيد الذي نفى الله عنه الوقوع في الغواية، وذلك لأن محمدا (نحن نتخيل) قد كان يستطيع امتلاك الأرض وما فيها، لكنه آثر الحياة الآخرة على الدنيا، فما كان في قلبه من حب لشيء في الحياة الدنيا على الآخرة، فما استطاع الشيطان أن يغويه

(للتفصيل حول هذا الموضوع، ندعو القارئ الكريم للرجوع – إن هو أراد- إلى الجزء السادس من مقالتنا تحت عنوان فقه الزكاة).

الدليل: دعنا نستعرض فعل الغواية في قصة الخلق كلها، فلنبدأ بما حصل لآدم نفسه، فهو لا شك قد غوى:

- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: 121]

ليكون السؤال الفوري هو: ما السبب الذي دفع آدم أن يقع في فعل الغواية؟ أي لم غوى آدم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب الرئيسي الذي دفع آدم لأن يقع في فعل الغواية هو حبه للحياة الدنيا على الآخرة، فهو من اختار الخلد والملك الذي لا يبلى:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ [طه: 120]

وهنا يبرز سؤال مفصلي في النقاش وهو: أليس إبليس هو من أغوى آدم؟

جواب مفترى: نعم، إبليس هو من أغوى آدم، ولكن آدم هو نفسه من غوى، فكيف ذلك؟ هل يكون إبليس هو المسئول عن غواية آدم؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن إبليس لم يكن سبب الغواية ولكنها كان محركها فقط، لأن جل ما فعله إبليس (نحن نظن) هو أنه أظهر ما في نفس آدم من حب للحياة الدنيا على الآخرة، فالشيطان (نحن نعتقد جازمين) ليس مسئولا عما وقع به آدم من المعصية، لأن الشيطان ليس له سلطان على أحد، ولكنه يفضح - بوسوسته لفريسته- ما في قلب ذاك الشخص فعلا، فهو من قال:

- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

فلا يحق للإنسان (أي إنسان) أن يلوم الشيطان على ما يقع فيه من الغواية، لأن الشيطان ليس أكثر من المحرك لما في نفسك فقط. فإن كنت من الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، تأتي وسوسة الشيطان

لتفضح ما في نفسك بإخراجه على الملأ، ويكون ذلك ما يناله الله من التقوى التي أخفيتها، فيتحصل العلم الإلهي بها. وهذا بالضبط ما نفهمه نحن من الآيات الكريمة التالية:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ [سبأ: 20-21]

فإبليس ليس أكثر ممن يصدق ظنه فيمن اتبعوه "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ"، ولا يستثنى من ذلك إلا فريقا من المؤمنين "إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ"، وهو ليس له عليهم من سلطان "وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ"، ولكن إبليس هو محرك ما تفضله نفسك وتشتهيه، ومهمة إبليس ليس أكثر من عامل يحرك تلك الرغبة، فيتحصل العلم الإلهي بمن يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك "إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ". وفي هذا (محن نرى) رد على كل من حاول أن ينسب الوقوع في المعصية للشيطان. فالشيطان ليس مسئولا عن معصيتك، بل عليك أن تلوم نفسك لأنها هي من جعلت للشيطان عليك سلطان. فطهارة النفس – نحن نفتري الظن- هي الكفيلة بأن تبقي الشيطان مذموما مدحورا. ولا يجعل النفس فريسة سهلة للشيطان إلا حب العاجلة على الآخرة:

- ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ [الإسراء: 18]

تلخيص ما سبق: كانت رغبة آدم الحقيقة هي تفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، ففضل الخلد والملك الذي لا يبلى على الخلافة، فجاء الشيطان فصدق على آدم ظنه، فأخرج ذلك على العلن، فوقع آدم في الغواية:

- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: 120-121]

سؤال: ما فائدة تلك الغواية؟ أو بكلمات أخرى، لماذا سمح الله للشيطان أن يغوي آدم؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: لحصول العلم الإلهي بما يتقيه الإنسان عن ربه، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾ [سبأ: 20-21]

فجل ما يفعله الشيطان هو أن يخرج ما أخفى الإنسان، فأظهرته الغواية – بفعل وسوسة الشيطان- على العلن، فتحصل العلم الإلهي بكل من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك.

السؤال: لماذا إذا أغوى الله نفسه إبليس؟

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف: 16]

رأينا المفترى: لو عدنا إلى قصة غواية الشيطان ذاتها، لوجدنا بأن الله هو من أغوى إبليس فعلا:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف: 16]
- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: 39-40]
- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82-83]

فكيف نفهم أن الله هو من أغوى إبليس؟ هل يمكن أن نتصور ذلك على نحو ما قد يتبادر لذهن القارئ للنص للوهلة الأولى بأن الله هو سبب معصية إبليس؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، وذلك لأن الغواية – نحن نظن- ليست أكثر من تحريك ما تفضله النفس وتهواه. فإبليس كان في نفسه (نحن نتخيل) شيئا من السوء، فهو من كان يبغيها عوجا، وهو من كان في نفسه رغبة الصد عن سبيل الله، وهو من كان من الكافرين بالآخرة.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٩﴾ [هود: 19]
- ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ [إبراهيم: 2-3]

فكان لابد أن يستخرج الله ما في نفس إبليس، فآتاه من حيث لا يحتسب بالغواية التي تحرك وتكشف ما في نفسه من الكبر والاستكبار. فعلم الله قد أحاط بأن في نفس إبليس واحدة من خيارين:

1. إما أنه قد علا.
2. أو أنه قد استكبر.

السؤال: فكيف سيظهر إبليس ما في نفسه فعلا؟

رأينا المفترى: لما كان هذا – نحن نتخيل- ما يحاك في نفس إبليس ولا يظهره علانية للإله حينئذ، آتاه الله من حيث لا يحتسب، فخلق الله آدم من طين وأمر إبليس بالسجود له، لكن لما كان إبليس لا تطيق نفسه السجود لآدم، لأنه يظن أنه خير منه:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف: 12-13]
- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ [ص: 75-78]

ظهر فورا ما كان يحاول إبليس أن يتقيه عن ربه، فرفض السجود لآدم، فكان من الغاوين.

نتيجة مفتراة: مادام أن الله هو من أغوى إبليس، فهو إذا قد اختبره بما يخرج فعلا ما يجول في نفسه من الكبر. فالله إذا ليس مسئولا عن وقوع إبليس في المعصية، وهو ليس سبب غواية إبليس، ولكنه هو الذي حركها بفتنته بآدم – المخلوق الذي هو أقل خيرية من آدم في الخلق، فتحصل العلم الإلهي لما في نفس إبليس بفعل تلك الغواية. فكان إبليس من الكافرين.

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 73-74]

ومادام أن إبليس كان من الكافرين، فهو إذا ممن ينطبق عليهم قوله تعالى في الآيات التالية:

- ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ٣﴾ [إبراهيم: 2-3]

فهو إذا ممن يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، فكان طلبه من ربه موافقا لحقيقة ما في نفسه، فجاء طلبه من ربه أن يكون من المنظرين:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩﴾ [الحجر: 36-39]
- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢﴾ [ص: 75-82]

وهو لا شك ممن يبغونها عوجا، فهو لا يريد الناس أن تخرج من الظلمات إلى النور ولكن يريد أن يخرجهم من النور إلى الظلمات:

- ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ٣﴾ [إبراهيم: 1-3]

تلخص ما سبق: بناء على ما سبق، نستطيع تسطير الافتراءات التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا:

1. الله هو من أغوى إبليس، لأنه حرك بأمره إبليس السجود لأدم ما في نفس إبليس فعلا من التكبر.
2. إبليس هو من أغوى آدم، لأنه حرك بنصيحته لآدم ما في نفس آدم من حب للخلد والملك الذي لا يبلى.
3. إبليس هو الذي تكفل بغواية عباد الله (إلا المخلصين)، لأنه سيحرك (وبالتالي اظهار) ما في نفوسهم من سوء.
4. الهدف من الغواية كلها هو حصول العلم الإلهي بمن استحب الحياة الدنيا على الآخرة، وبمن يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك.

ولو رجعنا إلى قصة نوح مثلا، لوجدنا الآية الكريمة التالية التي تبيّن لنا عدم فاعلية النصيحة عند كل من كان ممن يبغونها عوجا، لأن هؤلاء لا محالة الله مغويهم:

- ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود: 32-36]

نتيجة مفتراة: النصيحة لن تفيد مادمت مصرا على ما في نفسك من الأضغان. فمادام أن القوم مصرّين على أن لا يتبعوا نداء المرسلين بالنجاة، فهم ممن أرد الله غوايتهم، لاظهار أضغان كل من في قلوبهم مرض:

- ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾ [محمد: 29]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري الظن بأن الغواية ليست أكثر من الطريقة الفاعلة لإخراج أضغان من في قلوبهم مرض من العباد. فكل ما في قلبك من مثقال ذرية من ضغن، كان الله لا محالة مستخرجها. فالله لن يتركك ما دام قلبك ليس سليما، فاحذر أن تكون من المراوغين، فحتى رسل الله وقعوا في الغواية.

مثال: لو عدنا إلى قصة موسى، لوجدنا النص القرآني – كما نفهمه طبعا- يثبت وقوع موسى بالأمس فريسة للغواية:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٨ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾ [القصص: 18-19]

فالذي حصل مع موسى هو أنه قد عاد إلى المدينة، فدخلها ليكون من المصلحين، ولكن عندما وجد الصراع ناشبا بين من هو من شيعته من جهة ومن هو من عدوه من جهة أخرى، ما كان من موسى إلا أن ينصر من هو من شيعته على الذي هو من عدوه، فوكزه موسى، فقضى عليه. وفي اليوم التالي، كان ذلك الشخص نفسه يستصرخه على شخص آخر من عدوه، فهمّ موسى بأن يبطش بالذي هو عدو لهما، لكن كانت ردة فعل موسى الأولية على استصراخ من هو من شيعته على النحو التالي:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [القصص: 18]

فموسى مقتنع الآن بأن هذا الرجل الذي هو من شيعته هو غوي مبين "قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ"، ولكن ذلك لم يمنع موسى من الإقدام على نصرته بدليل أنه أراد أن يبطش بالرجل الآخر الذي هو عدو لهما. وأنظر جيدا عزيزي القارئ – إن شئت- تتمة السياق القرآني السابق:

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٩﴾ [القصص: 19]

ولو كان موسى مصرا على فعلته، لما نفعه نصح ذلك الرجل له، لكن لمّا كان موسى من التائبين الراجعين، توقف عن فعلته تلك.

تلخيص ما سبق: نحن نفتري الظن بأن نصرة موسى للذي هو من شيعته في اليوم الأول كان بدافع حبه لشيعته وعداوته لفرعون وقومه. فنفس موسى لم تكن حينئذ (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) صافية تماما، بدليل وجود بعض ما يعيبها من حبه لشيعته وكرهه لعدوه. فوقع في المحظور، وكان الرجل الذي استنصره حينئذ هو من كشف ما يجول في نفس موسى من الضعف، فوقع موسى فريسة لتلك الغواية "قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ". ولكن لما كان موسى من المقرّين بالذنب إذا ما ارتكبه، جاء نصح الرجل له في اليوم التالي ذا فائدة عظيمة بأن منعه من التمادي في الخطأ. فجاء قوله مصدقا الإقرار بالذنب الذي ارتكبه:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦﴾ [القصص: 16]

وقطع العهد على نفسه مع ربه ألا يكون ظهيرا للمجرمين:

- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧﴾ [القصص: 17]

ولو طبّقنا هذا على المنطق على ما فعل إبليس عندما رفض السجود لآدم، لوجدنا بأن الله قد استخرج ما كان يحيك إبليس في نفسه من الكبر، لكن إبليس لم يتراجع عن ذنبه، لا بل أصر عليه بدليل أنه قد أبي السجود لآدم:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]

ولو تراجع إبليس عن ذنبه وأقر به، لما كان (نحن نتخيل) من المخرجين، ولما كان (نحن نظن) من الكافرين. وربما يثبت زعمنا هذا ما فعله آدم عندما أقرّ بذنبه بعد غوايته، فقال:

- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف: 23]

وهذا يعيدنا على الفور إلى التمييز بين الفعل من جهة والعمل من جهة أخرى. فما بدر من موسى مثلا يقع (نحن نظن) في باب الفعل ولكن ما بدر من إبليس يقع (نحن نعتقد) في باب العمل

السؤال: كيف ذلك؟

باب الفعل مقابل العمل

تحدثنا في مقالة سابقة لنا عن الفرق بين الفعل والعمل، ومن أراد التفصيل في ذلك، فعليه العودة – إن هو أراد- إلى تلك المقالات. أما هنا، فسنكتفي بتسطير الفكرة الرئيسية التي تخدم طرحنا هنا. وهي – برأينا- على النحو التالي:

- الفعل هو ما يقوم به الشخص عن غير أصرار ولا يكون محركه النفس – وهو ما نسميه بمفرداتنا الدارجة الفعل غير المتعمد (أو الفعل الخطأ).

- العمل هو ما يقوم به الشخص عن أصرار بتسويل وتطويع من نفسه – وهو ما نسميه بمفرداتنا الدارجة (عير الدقيقة) الفعل المقصود.

الدليل: نحن نظن جازمين بأن ما قام به موسى مثلا، كان فعلا (وليس عملا) بدليل ما قاله له فرعون عند لقائهما الأول بعد تلقي موسى الرسالة وعودته إلى مصر:

- ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠﴾ [الشعراء: 19-20]

ففرعون يعلم يقينا أن قتل موسى للرجل في سابق الزمان كان فعلا وليس عملا، وقد أقر موسى له ذلك، وأكد بأن ذلك الفعل قد حصل عندما كان موسى من الضالين، الباحثين عن هداية الله له الصراط المستقيم.

نتيجة مفتراة: "الفعل" هو ما تقوم به عن غير قصد مسبق، لذا فهو قابل للتوبة مادام أن الشخص قد أقر بذنبه، لأن ذلك يكون عن غير سبق وإصرار منك، فهو أقرب إلى ما نسميه بمفرداتنا الدارجة "الفعل الخطأ"، لذا لا مانع من طلب مغفرة الخطأ.

- ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝٢٨٦﴾ [البقرة: 286]

لأن الله لا يؤاخذنا على الخطأ:

- ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب: 5]

ولكنه يؤاخذنا على ما تعمدت قلوبنا، لأن ذلك يكون عن سبق وإصرار بتسويل وتطويع من النفس.
الدليل: نحن نظن بأن ما فعله إخوة يوسف مثلا كان بتسويل لهم من أنفسهم، فكان عملا مقصودا، لأنهم خططوا للأمر مسبقا:

- ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف: 18]
- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٨٣﴾ [يوسف: 83]

فكان ذلك فعلا مخططا، قد دبّر بليل.
ولو تفقدنا قصة ابني آدم، لوجدنا أن القاتل قد فعل ذلك بعد أن طوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله:

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: 30]

فالقاتل قد حاك الأمر من قبل، وخطط له حتى نفذه على أرض الواقع. فكان هذا في باب العمل.

لو دققنا في السياقات القرآنية التالية، لوجدنا بأن محرك العمل هي النفس. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات القرآنية التالية:

- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: 30]
- ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل: 111]
- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: 70]

نتائج مفتراة مهمة جدا جدا: بناء على طرحنا هذا، نستطيع تسطير الافتراءات التالية التي هي - لا شك- من عند أنفسنا:

العمل محركه الشخص، لذا فهو عفوي غير مقصود ولا يأتي عن تخطيط مسبق (كما حصل مع موسى).

الفعل محركه نفس الشخص، لذا فهو غير عفوي، ولكنه مقصود لأنه يأتي عن تخطيط مسبق (كما حصل مع أبناء يعقوب ومع أبن آدم الذي قتل أخاه).

وبناء عليه، فإن النتائج الأولية هي على النحو التالي:

1. الفعل يمكن مغفرته إن أقر الشخص بذنبه وتراجع عنه.
2. العمل يقع عليه العقاب حتى وإن تراجع الشخص عنه وأقر به.

ولكن قبل الخوض في هذه النتائج التي نظن أنها مهمة جدا بشيء من التفصيل، علينا أن نحاول التمييز بين نوعين من العمل، بالرغم أن محركهما هي النفس.

فهناك عمل يأتي بتسويل من النفس، وهناك عمل يأتي بتطويع من النفس، ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بين أن تسوّل لك نفسك كما حصل من أبناء يعقوب:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 83]

مقابل أن تطوع لك نفسك كما حصل من ابن آدم الذي قتل أخاه:

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: 30]

بداية، نحن نظن أن محرك العمل في الحالتين هي النفس، لكن النفس يمكن أن تسول لك، ويمكن أن تطوع لك العمل. لذا علينا أن نبحث بداية في الفرق بين الفعل سوّلت (ومشتقاته) والفعل طوّعت (ومشتقاته).

باب الفعل سوّل مقابل طوّع

عند بحثنا في السياقات القرآنية عن الفعل "طوع" ومشتقاته (مثل أطاع ويطيع وطائع ونحوها) وجدنا السياقات القرآنية التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: 168]

- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء: 80]
- ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54]

ولو دققنا مليّا في هذه السياقات القرآنية، لوجدنا أن الفعل أطاع هو فعل تشاركي بين طرفين منفصلين، فها هم المنافقون القاعدون يسدون النصيحة لإخوانهم بأن لا يخرجوا للقتال، لكن هؤلاء لم يطيعونهم، أليس كذلك؟

السؤال: ما الذي نستفيده من ذلك كله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فعل الطاعة يحمل في ثناياه حتمية وجود طرفين، فهناك طرف يقدم مثلا النصيحة لطرف آخر، ولكن لمّا كان العمل اختياريا، يستطيع الطرف الثاني قبول نصيحة الطرف الآخر أو رفضها. فإن هو قبلها يكون هنا قد أطاع الطرف الأول، وإن هو رفضها، لم يكن من الطائعين.

- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: 168]

فقول الطرف الأول عن الطرف الثاني، لو أطاعونا، يعني أنهم على أرض الواقع لم يطيعوهم، أليس كذلك؟

ولو طبقنا هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا على السياق القرآني الثاني:

- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء: 80]

لوجدنا أن طاعة الرسول ليست إجبارية، وكذلك هي طاعة الله. فالرسول يهديك إلى صراط الله المستقيم، فإن أنت قبلت بها، فالله - لا محالة- سيهديك صراطه المستقيم. ولكن هذا لا يعني أنك مجبر على ذلك، فكثير من الناس لا يطيعون الرسول، وبالتالي لا يطيعون الله. لكن ما نود أن نلفت الانتباه إليه هنا أن طاعة الرسول، وبالتالي طاعة الله، ليست طاعة عمياء بلا دليل ولا برهان، وإلا أصبحت تقليدا واتباعا لنهج الآباء. فالرسول لا يطلب منك طاعته فقط لأنه رسول، فعليه أن يقدم لك البرهان، أي الدليل الواضح الذي يبين صدق رسالته. وهنا يضعك على المحك في أن تطيعه أو لا تطيعه، فإن كنت من أصحاب العقول السليمة، فلا شك أنك ستتبع الدليل الحق، وإن كنت ممن في قلوبهم مرض، فإنك ستحيد عن جادة الصواب، وستكون ممن يبغونها عوجا. وبهذا نصل إلى نتيجة مفتراة مهمة جدا هي من عند أنفسنا: أن الطاعة تحتاج إلى تقديم الدليل والبرهان، ويُترك للطرف الآخر حرية الاختيار بأن يطيع أو لا يطيع.

ولو حاولنا اسقاط هذا الفهم المفترى على السياق القرآني الثالث، لوجدنا (نحن نظن) هذه المعاني – بالنسبة لنا- واضحة تماما:

- ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54]

فهذا فرعون (نحن نتخيل) يقدم لقومه الدليل على ربوبيته وإلوهيته لهم، ويطلب منهم أن ينظروا إليه من هذا المنظار:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]
- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]

ويقدم لهم الدليل على ظنه هذا على النحو التالي:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠
خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾ [الزخرف: 51-53]
- ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠
خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
مُقۡتَرِنِينَ ٥٣ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 51-54]

والسبب في إطاعتهم له هو أنهم كانوا قوما فاسقين:

- ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54]

فلو لم يكونوا أصلا قوما فاسقين، لما استطاع فرعون أن يستخفهم، ولما أطاعوه، وليس أدل على ذلك من كلام من كان يكتم إيمانه من قوم فرعون:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [غافر: 38]

الذي قدم لهم الدليل على صدق دعوته لهم:

- ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ
مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ
أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ
٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ
ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن
قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ
ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ
٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا

مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: 28-45]

لكن بالرغم من ذلك، آثر قوم فرعون طاعة فرعون على اتباع هذا الرجل.

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن الطاعة تتطلب وجود التالي:

1. طرف أول يطلب الطاعة من الطرف الثاني
2. طرف ثان له حرية الاختيار
3. تقديم الدليل الذي من أجله طلب الطرف الأول الطاعة من الطرف الثاني

لكن لو حاولنا الآن البحث عن معنى الفعل "سول" ومشتقاته، لما وجدنا هذه العناصر ظاهرة للعيان. فالفعل "سول" لا يكون الطرف الأول فيه إلا الشيطان:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: 25]

أو النفس:

- ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: 18]

فإذا كان الشيطان هو محرك الفعل، يحدث النزغ بين الطرفين. لذا، يوسف ينسب ما حصل بينه وبين إخوته إلى نزغ الشيطان:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

بينما يعزي يعقوب العمل ذاته إلى أنفس أبنائه:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 83]

لذا، جاء وصف ما قام به الإخوة بيوسف وأخيه – على لسان يوسف- على أنه فعل:

- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف: 89]

ولكن يعقوب لم يكن على يقين بأن ذلك بسبب الشيطان، فترك الأمر لربه أن يحكم فيه، فقال "وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ":

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

ولمّا كا يوسف يظن أن هذا من نزغ الشيطان، وأنهم قد فعلوا ذلك وهم جاهلون:

- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ [يوسف: 89]

جاء استغفاره لهم في الحال:

- ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف: 92]

ولكن، لمّا كان يعقوب يظن أن المسألة تتعلق بأنفس أبنائه، كان استغفاره لهم مؤجلا حتى يتأكد (نحن نظن) بأن أنفسهم قد طابت وأن قلوبهم قد شفيت تماما:

- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ [يوسف: 98]

وما أظن يعقوب قد استغفر لأبنائه إلا يوم أن أقروا بأفضلية أخيهم عليه يوم أن خروا له سجدا:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن الفعل "سول" لا يكون إلا من النفس أو الشيطان. أما الفعل "طوع"، فيمكن أن يتدخل بها البشر، فأنا قد أطيعك وأنت قد تطيعني، لكني لا أستطيع أن أسول لك كما لا تستطيع أنت أنت تسول لي. انتهى.

السؤال: الآن، ما علاقة هذا بقصة أبناء يعقوب مقابل قصة أبناء آدم بناء على طرحنا المفترى هذا؟

2. قصة أبني آدم بالحق: نظرة جديدة خيالية جدا وخطيرة جدا جدا

بداية، نحن ندعو الله وحده ألا نكون ممن يفترون عليه الكذب ونعوذ به أن نكون ممن يقولون عليه بغير الحق. كما ندعو القارئ الكريم أن يترك القراءة فورا إن لم يكن مستعدا لسماع ما قد لا تطرب له الآذان عما وصله من عند سادتنا العلماء أهل الدراية وأهل الرواية عن هذه القصة الأقدم في تاريخ البشرية على الأرض.

أما بعد،

لما كان ما فعله أبناء يعقوب قد جاء بتسويل من أنفسهم، فهذا يعني أن المحرك لها كانت النفس (كما صاغها يعقوب):

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

أو بسبب نزغ الشيطان كما نظر إليه يوسف نفسه:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

وما دام أن العمل قد تم بدافع النفس أو الشيطان، فإنه تأثير داخلي لا دخل لأحد من البشر من حولهم بها. فذاك العمل الذي قام به إخوة يوسف لم يكن مدفوعا من قوة خارجية كالأهل أو الزوجات أو الأقارب أو الأصدقاء أو الأعداء المحرضين، ولكنه فعل مدفوع بخوالج أنفسهم الداخلية أو وسوسة الشيطان الداخلية (الذي يوسوس في صدور الناس)، وكلاهما قوة داخلية الله عليم بها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان محرك العمل الذي قام به أبناء يعقوب ضد أخوهم مدفوعا من أنفسهم الداخلية: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]

أما قصة أبناء آدم، فقد جاءت بلفظ "طوعت له نفسه"، ومادام أن العمل قد تم بطريقة التطويع، فإن العامل المؤثر فيها خارجي وليس داخلي.

السؤال: وكيف ذلك ونفسه هي التي طوعت له؟

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]

أليست النفس داخليه؟ أليست هي من طوعت له قتل أخيه؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: نعم هي نفسه، لكن علينا أن ندقق في السؤال التالي على الفور: من هي نفسه التي طوعت له قتل أخيه؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن هذا السؤال ينقلنا إلى ذروة ما نود افتراءه في هذا المقام، فعليك - عزيزي القارئ- إن تتأنى بعض الشيء قبل القفز إلى استنبطات قد لا يحمد عقباها لاحقا (بالنسبة لنا على الأقل).

أما بعد،

لو تفقدنا النص القرآني على مساحته، لوجدنا على الفور أنّ الحديث عن النفس منقسم إلى جزئين هما:

1. الحديث عن النفس الداخلية التي تسوّل لنا عمل السيئات، فنكون محاسبين عليها:

- ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

2. الحديث عن الأنفس التي تتزاوج:

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21]

فجميع نساء العالمين هن أزواجا لنا خلقن من أنفسنا. وسيتم التزاوج بهذه الأنفس قبل الحساب حتى تعود نفوسا مكتملة:

- ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: 1-7]

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة)

السؤال: ما علاقة هذا بقصة ابني آدم بالحق؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: آثر آدم الخلد وملك لا يبلى على الخلافة، فنزل عند نصيحة الشيطان، تاركا الأمر الإلهي له ولزوجه بعدم الاقتراب من الشجرة. فنجح الشيطان في أن ينزع عنهما لباسهما، فأصبح التكاثر بالولادة بدلا من النفخ الذي كان ممكنا قبل نزع اللباس عنهما. فأهبطا من الجنة (بيت المقدس) إلى الواد غير ذي الزرع (ببطن مكة). فكان اللقاء الجنسي الأول بينهما في منطقة منى حيث تدفق المني من آدم في رحم زوجه. فوُلِد لآدم الأب ابنه الأول البكر (إدريس)، ثم تكرر الحمل، فولدت زوجه له الابن الثاني (إسرائيل). ووضع لهما البيت العتيق هناك نقلا من مكان المسجد الأقصى إلى بكة:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

(للتفصيل حول الموضوع انظر الأجزاء السابقة)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن بلغ إدريس وإسرائيل سن الزواج حتى كان آدم وزوجه (نحن نتخيل) قد رحلا عن الدنيا بعد أن قضى عليهما الموت. فكان أول خلاف نشب بين الأخوين على أحقية أحدهما بالبيت، فكان الاتفاق بينهما على آلية حل الخلاف بتقديم القربان، وبالفعل قربا قربانا، فتقبل من إدريس، ولم يتقبل من إسرائيل.

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة حول هذه الجزئية)

السؤال: لماذا اختلف الأخوان على ملكية البيت؟ لِم لمَ يتشاركا البيت معا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه بيت واحد، فلا يستطيع الأخوان مشاركة بعضهما البعض ذلك البيت؟

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو الزواج والعلاقة الجنسية. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كانت السنة الكونية قد أصبحت بالتكاثر بالعملية الجنسية، كان لزاما أن تنفذ تحت سقف البيت، فمن سيكون له الأحقية في سكن البيت من زوجه؟

جواب مفترى: نحن نتخيل أن ابنا آدم لم يستطيعا حل الخلاف بينهما بالطريقة الطبيعية، فكان لابد من تقديم القربان ليأتي القرار بذلك من الله. وبالفعل اتفقا على الآلية واختلفا على النتيجة، ففي حين كانت

النتيجة لصالح إدريس (الابن البكر لآدم)، كان الحنق والغضب قد سيطر على الابن الثاني (إسرائيل). فتوعد أخاه بالقتل:

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة: 27-29]

وفي حين أن الأخ الأكبر (إدريس) كان من المتقين، لم يكن الأخ الأصغر كذلك، فما كان من نفسه إلا أن طوعت له قتل أخيه، فقتله:

- ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]

السؤال: كيف طوعت له نفسه؟ ولِم لم تسول له نفسه (كما هي الحال بالنسبة لإبناء يعقوب مثلا)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو جاء النص على نحو سولت له نفسه، لكان محرك الفعل داخلي، إما النفس الداخلية أو الشيطان، وذلك لأن النفس الداخلية تسول كما كان من أمر أبناء يعقوب ضد أخيهم يوسف:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

أو ما كان من السامري:

- ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦﴾ [طه: 96]

ولأن الشيطان يسول:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥﴾ [محمد: 25]

لكن لمّا كان ما حدث هو أن النفس هي التي طوعت له قتل أخيه، كان التأثير قادما من النفس الخارجية:

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 21]

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو عدنا إلى القصة كما تروى في تراث أهل الكتاب، لوجدنا أن الصراع بين الأخوين كان على الزواج. ونحن إذ لا ننفي القصة بكليتها، فإننا نؤكد أن دين أهل الكتاب هو تحريف الكلم عن مواضعه، وهذا يعني أن القصة صحيحة من حيث المبدأ، لكن تفاصيلها مشوهة في رواياتهم، ولما كان هذا القرآن يقص علينا أكثر الذي هم فيه مختلفون.

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾ [النمل: 76]

نجد أنفسنا ملزمين أن نبحث عن التفاصيل الصحيحة لتلك القصة بين آيات هذا الكتاب العظيم.

وقبل أن نحاول تسطير افتراءاتنا في هذا المقام، نجد لزاما أن نذكّر الجميع بأن هذا لا يعني أننا تراثيين نتمسك بتلك الروايات، ولا يعني في الوقت ذاته أننا حداثيين لنتركها جملة وتفصيلا، ولكننا نحاول أن نتأكد من مصداقيتها بعرضها على كتاب الله. وفي هذا المقام نجد لزاما التأكيد أيضا على أننا لا نتحدث عن الروايات في التراث الإسلامي، لأننا نعتقد جازمين بأن كل تلك الروايات مأخوذة أصلا من تراث أهل الكتاب بعد إجراء بعض التعديلات عليها. لذا، نحن لا نرد على أهل الدراية والرواية من أهل مذاهب الإسلام، وإنما نحاول أن نتحقق من روايات أهل الكتاب الأصلية بعد تمحيصها بناء على ما جاء في الكتاب العظيم الذي جعله الله مهيمنا على ما بين يديه من الكتاب:

- ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]

على أي حال، فالقصة التوراتية كما نقلت في تراث أهل الكتاب تؤكد على وجود صراع بين الإخوة في الزواج، فكيف حصل ذلك من منظورنا الجديد المفترى – لا شك – من عند أنفسنا.

إن محاولة وضع هذه القضية على طاولة النقاش والبحث الجاد تتطلب بداية طرح جملة التساؤلات التي قد تثار في ذهن القارئ للقصة، نذكر منها:

- لماذا كان لآدم وزوجه ابنين اثنين؟
- هل كان لهما ذرية من الإناث؟
- كم عددهن (إن وجدن)؟
- لماذا لم يذكرهن القرآن بصريح اللفظ؟
- كيف حدث التزاوج مع بداية انطلاق الحياة على الأرض؟
- كيف أصبح الزواج لاحقا؟
- ما هي الظروف التي أحاطت بتلك القصة حينئذ؟ متى قضى الموت على آدم وزوجه؟ وكيف حصل ذلك؟ وماذا حصل لسؤتهما؟ هل تم التخلص منها بالدفن؟
- هل كان آدم وزوجه على قيد الحياة عندما حصل الخلاف بين الأخوين؟
- لماذا عمد الأخ القاتل على مواراة سوءة أخيه؟ هل كان ذلك ضروريا في تلك البقعة الممتدة من الأرض الفسيحة؟
- لماذا قربا القربان؟
- ما هو القربان الذي قرباه؟
- كيف تم تقديم القربان؟
- كيف تم قبول القربان
- الخ

باب القربان

دعنا نبدأ القصة من هنا بطرح التساؤل التالي: لماذا قربا القربان؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القربان هو الطريقة الإلهية لحل الخلاف بين المتخاصمين. وفيه غواية للذين يحبون الحياة الدنيا على الآخرة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن القربان هو شعيرة "الأضحية" ذاتها التي لا زلنا نطبقها حتى يومنا هذا. فأصل هذه الشعيرة قد جاءت منذ أول خلاف نشب على الأرض بين ابني آدم. فقد قدما القربان لحل مشكلة عائلية نشبت بينهما. وهذا يعني – بمفرداتنا الحالية- أن الشعيرة (أصل الشعيرة) لا تعود (كما صورها الفكر الدارج) إلى قصة إبراهيم عندما أُمر أن يذبح ولده اسماعيل. ولكن كان جلّ ما فعله إبراهيم هو (نحن نرى) أنه قد طبق الشعيرة ذاتها التي بدأت مع ابني آدم عندما نشب الخلاف العائلي بينهما.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن مشكلة عائلية قد نشبت في بيت إبراهيم، فكان على إبراهيم أن يحل تلك المشكلة، وما كانت المشكلة ستحل بغير هذه الطريقة الإلهية (القربان) لكشف أسباب المشكلة والمفتعلين لها، وطريقة حلها على أرض الواقع، والأهم من ذلك كله التقوى التي نالها الله من المتخاصمين جميعا.

(للتفصيل حول ماهية المشكلة التي نشبت في بيت إبراهيم، فإننا ندعو القارئ – إن هو أراد- للعودة إلى الأجزاء السابقة)

أما ما يهمنا هنا فهو تسطير الافتراءات التالية التي سندافع عنها تباعا:

- الأضحية شعيرة من شعائر الله.
- الأضحية تقدم من أجل حل مشكلة اجتماعية بين المتخاصمين.
- الأضحية تطرد شياطين الإنس والجن.
- الأضحية تؤدي إلى حل الخلاف بين المتخاصمين.
- الأضحية تكشف ماهية المشكلة.
- الأضحية تكشف دور كل طرف فيها.
- الأضحية تكشف حجم المشكلة.
- الأضحية تبين طريقة حل المشكلة.
- حجم الأضحية يجب أن يكون بحجم المشكلة.
- الأضحية فيها غواية من يحبون الحياة الدنيا على الآخرة.

وسنحاول في السطور التالية تبيان روايتنا المفتراة من عند أنفسنا هذه حول فقه الأضحية (القربان)، سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، فلا نفتري عليه الكذب، ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يزدنا علما، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

لنبدأ النقاش في هذه القضية منطلقين من الآيات الكريمة التي وردت في السياق القرآني التالي، وهذه الآيات هي التي ستكون محور النقاش هنا، قول تعالى:

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: 36-38]

لعل القارئ الكريم قد أدرك أن السياق القرآني هنا يتحدث في الآية الأولى رقم (36) عن واحدة من شعائر الله، وهي البدن. وأن لنا فيها خير، وعلينا أن نذكر اسم الله عليها صواف، ومطلوب منا أن نأكل منها إذا وجبت جنوبها وأن نطعم منها القانع والمعتر، ولهذا سخرها الله لنا، وهذا يستوجب شكرنا لله على ذلك.

وانظر عزيزي القارئ في الآية ذاتها مرة أخرى:

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: 36]

فتكون التساؤلات ذات العلاقة التي يجب أن تثار هنا هي على النحو التالي:

1. لماذا البدن من شعائر الله؟
2. لماذا لنا فيها خير؟ وما هو ذلك الخير الذي فيها لنا؟
3. وكيف نذكر اسم الله عليها صواف؟ ولماذا؟
4. وكيف سنأكل منها إذا وجب جنوبها؟
5. لماذا نطعم منا القانع والمعتر؟
6. كيف سخرها الله لنا؟
7. لماذا يتوجب شكرنا لله على ذلك؟

وتبين لنا الآية الكريمة التالية (37) في السياق ذاته بأن الله لن يناله لحوم هذه البدن ولا دماؤها، ولكن يناله من ذلك شيء واحد، ألا وهو التقوى، وهذا مدعاة لأن نكبر الله على ما هدانا، وفي الوقت ذاته هي بشارة للمحسنين:

- ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: 37]

فتكون التساؤلات التي يجب أن تثار هنا هي:

1. لماذا لا ينال الله لحومها ولا دماؤها؟
2. كيف يناله التقوى منا؟
3. كيف نفهم أنه قد سخرها لنا لذلك؟
4. كيف يكون تسخيرها لنا مدعاة لأن نكبر الله على ما هدانا؟
5. وما هي الهداية التي تحصلت لنا من جراء ذلك؟
6. كيف يكون ذلك بشارة للمحسنين؟
7. الخ.

وفي الآية الثالثة (38) من السياق ذاته، نجد ارتباط ذلك بدفاع الله عن الذين آمنوا، وانتفاء حب الله لكل خوان كفور.

- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج: 38]

فتكون التساؤلات التي يجب أن تطرح هنا هي على النحو التالي:

1. كيف يدافع الله عن الذين آمنوا؟
1. ما علاقة هذا بالبدن التي هي من شعائر الله؟
2. ما علاقة هذا بأن الله لا يحب كل خوان كفور؟
3. الخ.

ويكون السؤال الجامع (overarching question) هنا هو: كيف يمكن ربط جميع الأسئلة السابقة التي أثرناها حول كل آية من هذه الآيات الثلاثة المجتمعة معا في السياق القرآني ذاته لنخرج بتصور واضح يجيب عليها جميعا؟

رأينا المفترى: إنها شعيرة الأضحية (القربان). انتهى.

نحن نظن – مفترين القول من عند أنفسنا- بأنه لو فهمنا فقه الأضحية كقربان يقدم من أجل حل مشكلة ما، وكشف من يحب الحياة الآخرة ومن يحب الحياة الدنيا على الآخرة، فإننا سنتمكن بحول الله وتوفيق منه الإجابة على جميع الأسئلة السابقة بسر وسهوله.

فالله وحده نسأل أن يعلمنا وأن يزدنا علما وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

لقد حاولنا في مقالات سابقة لنا في مقالتنا تحت عنوان فقه الحج تبيان بأن البدن هي الأنعام التي سلخ عنها جلدها بعد أن تم ذبحها. وأن هذه الأنعام يجب أن تكون حيّة بدليل أن علينا أن نذكر اسم الله عليها صواف، أي ما دام صوفها يغطيها، فالقربان – نحن ظن بداية- لا يمكن أن يتم بمجرد توافر لحومها، أي لا يجوز أن نشتريها لحما أو أن نُحْضِرها لحما جاهزا من السوق، بل يجب أن تُحضَر كأنعام حية، وأن تذبح، ليسيل دمها، وأن تسلخ (إزالة الجلد عن اللحم)، وما أن توجب جنوبها، أي تصبح جاهزة للأكل كوجبات طعام (للتفصيل حول هذا الموضوع، انظر مقالاتنا السابقة في فقه الحج)، فعلينا أن نأكل منها بأنفسنا وأن نطعم منها القانع والمعتر، وكان هذا هو أحد الأسباب التي من أجلها سخرها الله لنا، وذلك يستوجب منا شكر الله على هذه النعمة التي أنعمها الله علينا.

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٣٦﴾ [الحج: 36]

السؤال: كيف نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن واحدة من الأسباب التي من أجلها سخر الله لنا الأنعام لتكون (كبدن) واحدة من شعائره هو لحل مشكلة قد نشبت بين أفراد الأسرة أو العائلة أو العشيرة أو البلدة أو حتى المجتمع كله. فالبدن لنا فيها خير "لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ".

السؤال الأول: كيف نفهم أن البدن فيها خير لنا؟ وما هو ذلك الخير الذي جعله الله لنا في هذه الشعيرة؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة الخير في سياقات القرآن المختلفة، لوجدنا على الفور بأن الخير يتحصل مما قد لا تريده النفس وتهواه. فقد تكره امرأتك أو أحد نسائك لكن هذا لا ينفي أن يجعل الله فيه خيرا كثيرا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: 19]

وعلى الرغم من أن طلب موسى من قومه أن يقتلوا أنفسهم هو - لا شك - مما يكرهون وقد يشق عليهم، إلا أن ذلك كان فيه خير لهم:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]

وعلى الرغم من مشقة الصيام على الذين يطيقونه، لكنه خير لنا:

- ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ [البقرة: 184]

واخفاء الصدقات (بالرغم من شهوة النفس في الظهور)، إلا أن ذلك هو خير لنا:

- ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]

والتصدق بمالك على من عسر عليه سداده خير لك، بالرغم من حب الشخص لماله وتعلقه به:

- ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠﴾ [البقرة: 280]

والنفور خفافا وثقالا والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله خير لنا، على الرغم من المشقة المالية والنفسية التي يتكبدها النافر في سبيل الله:

- ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التوبة: 41]

وعلى الرغم من ظاهر الشر في حديث الإفك، إلا أن حقيقته هو ليس شرا وإنما هو خير لنا:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور: 11]

وحتى ترك ما تطلبه النفس وتتمناه وهو الكسب في التجارة، إلا أن الخيرية تتحصل بترك ذلك كله لتلبية نداء الصلاة من يوم الجمعة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ [الجمعة: 9]

والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس هو لا شك خير لنا بالرغم من صعوبة ذلك على النفس في تنفيذه.

- ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ [الصف: 11]

الافتراء الأول الخطير جدا جدا: لو حاولنا ربط قضية الخيرية هذه بموضوع البدن، سنجد على الفور أن فيها خير، لأنها – نحن نفتري الظن من عند أنفسنا- تجعل الإنسان يتكبد جهادا بنفسه وماله، لكن ذلك سينعكس عليه إيجابيا رغم الصعوبة في تنفيذها على أرض الواقع. انتهى.

السؤال: لماذا يجب أن نشكر الله على تلك الشعيرة؟

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: 36-38]

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الأضحية (كقربان) هي شعيرة تجلب لنا الخير بالرغم أنها تكبدنا جهادا بأنفسنا وأموالنا. والخير الذي يُجلب لنا من تطبيق هذه الشعيرة هو ما يستوجب شكرنا لله. فكيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: لو تابعنا الحديث في السياق نفسه، لوجدنا أن الله يبين لنا أنه لن يناله لحومها ولا دماؤها، فالقضية ليست جلب لحم أو إراقة دم للإله كما جرت العادة في الديانات الوثنية التي كانت تقدم القرابين من أجل إسكات غضب الرب، وبكأنه إله دموي يحب إراقة الدماء باسمه. وهنا يبرز التساؤل التالي: مادام أن الله لن يناله لحومها ولا دماؤها، فلم طلب منا القيام بذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الهدف الأول الذي من أجله طلب الله منا تنفيذ شعيرة الأضحية (القربان) كبدن هو الخير الذي سيصيبنا من جراء ذلك. وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل بإذن الله. لكن هذا لا يعني بأن الله لن يناله شيء على الإطلاق، فالنص القرآني يبين بأن الله لن يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله لتقوى منا "وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ". وهذا سبب آخر لم سخرها الله لنا.

ولو دققنا مليّا في النص ذاته، لوجدنا أن مفردة التسخير في هذا السياق القرآني قد وردت مرتين، فجاءت في المرة الأولى على نحو " كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ " وفي المرة الثانية على نحو "كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ"، ليكون السؤال الحتمي هنا هو: لماذا؟ أي لماذا تكررت عبارة التسخير مرتين في هذا السياق القرآني؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن البدن قد سخرها الله لنا كقربان لهدفين اثنين، وهما:

1. منفعة (خير) لنا "لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ"
2. منفعة للإله "يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ"

ولو دققنا في اللفظ أكثر، لوجدنا بأن العبارة قد وردت في سياق الحديث عن الخير الذي يكون لنا في البدن بصيغة الجمع "كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ"، لكنها وردت بصيغة المفرد العائد على الله نفسه في سياق الحديث عن التقوى التي ينالها الله منا "كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ"، ليكون السؤال الآن على النحو التالي: لماذا جاءت في المرة الأولى بصيغة الجمع بينما جاءت في المرة الثانية بصيغة المفرد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب (ربما مخطئين) أن الخير الذي سيكون لنا من البدن هو خير جماعي، يحدثه الله وجنوده (أكثر من طرف)، ويتشارك فيه كثير من الناس، لذا كان التسخير جمعيّا، فكان اللفظ بصيغة الجمع "سَخَّرۡنَٰهَا". أما التقوى التي يناله الله، فهي خالصة له وحدة ولا ينتفع بها إلا هو، ولا يشاركه في ذلك أحد غيره، لذا جاءت بصيغة المفرد "سَخَّرَهَا" انتهى.

3. تلخيص ما سبق: نحن نفتري الظن بأن الله قد جعل لنا البدن واحده من شعائره "وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ"، ليتحصل منها منفعتين اثنتين، أحدهما الخير الذي سيعود علينا جراء تنفيذها كما أمر الله على أرض الواقع "لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ"، والأخر منفعة للإله وحده فلا يشاركه بها غيره "يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ".

وهنا يبرز التساؤلين التاليين:

1. ما هو الخير الذي ستحدثه البدن للناس كشعيرة من شعائر الله "لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ"؟
2. ما هي المنفعة التي ستتأتى للإله من جراء تنفيذنا لأمره بتقديم هذه الشعيرة "يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ"؟

دعنا نحاول الإجابة على هذين التساؤلين تباعا، ولنبدأ بالتساؤل الأول الخاص بالخير الذي سيتحصل لنا من جراء تقديم البدن كشعيرة من شعائر الله.

أما بعد،

لو دققنا في السياق القرآني ذاته، لوجدنا أن البدن هي واحدة من شعائر الله:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ

مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: 36-38]

والحالة هذه، فإنه قد استوجب علينا الآن أن نجلب السياقات القرآنية التي تتحدث بالتفصيل عن شعائر الله كلها، فكان أول ما وجدنا في النص القرآني على مساحته الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: 32-33]

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا على الفور بأن تعظيم جميع شعائر الله هي من تقوى القلوب "وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ"، كما أن لنا في جميع شعائر الله (والبدن لا شك واحدة منها) منافع "لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى"، وهذا يتطلب منا طرح سؤالين اثنين، وهما:

1. ما هي تلك المنافع؟
2. لماذا هي إلى أجل مسمى؟

من أجل الإجابة على هذه التساؤلات، وجدنا لزاما علينا أن نحاول أولا فهم مفردة "منافع" ومشتقاتها كما بيّنها النص القرآني ذاته، طارحين التساؤل المبدئي التالي: فما هي المنافع وخاصة منافع الأنعام (البدن)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن المنافع ليست دفء، فالدفء شيء والمنافع شيء آخر. ونظن أيضا بأن المنافع ليست طعاما يؤكل، بدليل التجاور اللفظي بين هذه الأشياء الثلاثة (الدفء والمنافع والأكل) في الآية التالية ذاتها:

- ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: 5]

ومنافع الأنعام ليست الجمال وحمل الأثقال. انظر الآية السابقة في سياقها الأوسع:

- ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾﴾ [النحل: 5-7]

ومنافع الأنعام ليست شيئا يشرب، بدليل التجاور اللفظي بين ما نشرب من بطون الأنعام والمنافع:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةٗۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةٗۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]

ومنافع الأنعام ليست بيوتا ولا أثاثا من أصوافها وأوبارها وأشعارها:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ۝٨٠﴾ [النحل: 80]

ومنافع الأنعام ليست الركوب:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٧٩﴾ [غافر: 79]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نستفيد من الأنعام ما يلي:

الدفء – الجمال – الأكل – المشارب – الركوب - حمل الأثقال – البيوت – الأثاث – المنافع.

سؤال محوري: مادامت المنافع ليست من الطعام أو الشراب أو حمل الأثقال أو صناعة الأثاث والبيوت أو حتى الجمال والدفء، فماذا تكون؟ أي ما هي منافع الأنعام؟

رأينا المفترى: حاولنا في أكثر من مقالة سابقة لنا التعرض لمعنى مفردة المنافع، وجلبنا السياقات القرآنية التي ترد فيها مفردة المنافع ومشتقاتها، مثل هذه التي تبين استخدامات الخمر والميسر:

- ﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩﴾ [البقرة: 219]

أو هذه التي تتحدث عن منافع الحديد:

- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢٥﴾ [الحديد: 25]

أو هذه التي تتحدث عن الإبقاء على حياة موسى في بيت فرعون:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: 9]

أو تربية يوسف كغلام في بيت الذي اشتراه من مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٢١﴾ [يوسف: 21]

وخلصنا إلى افتراء القول حينئذ بأن المنفعة هي التي تليّن (أو لنقل تسهّل) كل ما يتصف بالقسوة. فالحديد فيه منافع لأنه هو الذي يقطع الصخر والشجر وحتى الحديد نفسه، فيستحيل تليين الصعاب دون استخدام الحديد. والخمر فيه منافع، لأنه كمادة مخدرة تمكّن الطبيب من إجراء العملية الجراحية للمريض بيسر وسهوله على الطرفين (الطبيب والمريض نفسه)، فإجراء عملية جراحية دون اللجوء إلى استخدام المخدر (الخمر) سيكون فيه مشقة على الطبيب والمريض معا.

وكان الإبقاء على حياة الطفل موسى في بيت فرعون هو ما ليّن (أو لنقل خفف وطء) العلاقة المتشنجة بين فرعون من جهة وامرأته من جهة أخرى، وكذلك كانت المنفعة التي جناها الرجل الذي اشترى يوسف من مصر وامرأته، فقد ليّنت العلاقة المتشنجة بينهما.

(ومن أراد التفصيل في هذا، فإننا نحيله إلى مقالتنا السابقة على المدونة)

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن المنافع تمتد لتشمل الأنعام، فما هي منافع الأنعام في ضوء هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا عن معنى مفردة المنافع؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن منافع الأنعام هي هذه بالضبط: تليين (أو لنقل تسهيل) العلاقة المتشنجة بين المتخاصمين من الناس. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى، افترينا آنفا بأن الله قد سخر لنا الأنعام من أجل الخير الذي يكون لنا فيها:

- ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: 36-38]

وهذا الخير هو ما يتوجب علينا أن نشكر الله من أجله، وذلك لأن العلاقات الاجتماعية المتشجة بين المتخاصمين من الناس لا يمكن أن تليّن (أو أن يخفف وطء تشنجها) إلا بالأنعام. انتهى.

ولو دققنا بالنص مرة أخرى، لوجدنا بأن هذه المنافع هي إلى أجل مسمى:

- ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: 32-33]

ليكون السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن منافع الإنعام (والتي هي – برأينا- تليين العلاقة المتشنجة بين المتخاصمين من الناس) محدودة الأجل، أي أن فاعليتها تكون محدودة بالزمن. فهي (نحن نظن) لا تحلّ المشكلة مرة واحدة وإلى الأبد، ولكنه حلٌّ مؤقت، قد يتكرر نشوبه على فترات زمنية متفاوتة. لذا يجب استخدامها واللجوء إليها كلما دعت الحاجة إلى ذلك. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: كلما نشبت مشكلة جديّة بين طرفين (كما حصل في حالة ابني آدم)، وجب اللجوء إلى استراتيجية تقديم القربان، بهدف فض الخلاف بين المتخاصمين.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن فقه الأضحية مبني على مبدأ جلب الخير لنا، ألا وهو حل مشكلة في العائلة، ومعرفة الطرف الذي سببها والأطراف الراغبة والمستعدة لحل المشكلة

والأطراف غير المستعدة لحل المشكلة الراغبين في دوام نشوب المشكلة وتفاقمها. وهؤلاء هم من سيقعون في الغواية وذلك بسبب أنهم يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: حتى نبين لكم رأينا في ذلك بوضوح أكثر، وجب علينا أن نتعرض قبل ذلك إلى الهدف الثاني من تسخير البدن لنا كشعيرة من شعائر الله. فقد ذكرنا أن الله جعل منها تسخيرين اثنين، أحدهما للخير الذي يتحصل لنا منها وهي المنافع، وكذلك للتقوى التي ينالها الله منا جراء تقديم البدن كقربان.

فيكون السؤال الآن هو: ما هي التقوى التي ينالها الله منا جراء تقديم البدن قربانا كشعيرة من شعائر الله؟

رأينا المفترى: نعود الآن إلى الآية الكريمة الموجهة لنا وهي قوله تعالى:

- ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج: 37]

تساؤلات:

- كيف ينال الله التقوى منا بالأضحية (البدن)؟
- ما هي التقوى؟
- كيف يكون ذلك من أجل أن نكبر الله على ما هدانا؟
- ما هي تلك الهداية التي تتحصل لنا جراء هذا الطقس الشعائري؟
- وما علاقة ذلك ببشارة المحسنين على وجه التحديد؟
- الخ

باب التقوى

لابد لنا - بداية - من تعريف مفردة التقوى ذاتها، فغالبا ما جُبِل الفكر الشعبي على الظن بأن التقوى هي حالة إيمانية متقدمة، وكفى. وهو ما يجعلنا نشكك بدقة الفهم هذا، لأنها تتقاطع بذلك مع مفردات قرآنية أخرى، والأهم من ذلك هو صعوبة فهم آلية تحقيق التقوى على أرض الواقع. فمتى يمكن أن يقال عني من المؤمنين أو من المتقين أو من المحسنين التي سترد (أو مشتقاتها) جميعها في الآية التي تليها مباشرة. وانظر السياق القرآني كله مرة أخرى:

- ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: 36-38]

فهنا نجد التقوى، ونجد المحسنين، ونجد الذين آمنوا، ونجد ونجد الخوان، ونجد الكفور.

فيكون السؤال الجامع هو: لم تجاورت هذه الألفاظ جميعا في السياق الواحد؟ فهل من آثارة من علم تبين لنا ماهية هذا التجاور اللفظي كله؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى مفردة التقوى بحد ذاتها، لوجدناها قد وردت في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: 197]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: 2]
- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: 26]
- ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: 108]

ولو دققنا في هذه السياقات جميعها، لوجدنا بأن التقوى هي حالة ايجابية، فلا يوجد ذم لمن اتقى، فالتقوى هي خير، فهو زاد يتزود به الإنسان:

- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: 197]

ونحن مأمورون أن نتعاون على البر التقوى، ولا نتعاون على الإثم والعدوان:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: 2]

لكن نبقى بحاجة أن نتفهم ما هي التقوى أصلا التي طلب الله منا أن نتعاون عليها. ونحن نفتري الظن بأن التقوى هي النقيض المقابل للعدوان. وليس أدل عندنا على هذا من التوازن اللفظي بين طرفي المعادلة في الآية السابقة، فالله أمرنا بأن نتعاون على شيئين اثنين: البر والتقوى.

وبالمقابل نهانا أن نتعاون على الإثم والعدوان ولو وضعنا طرفي المعادلة في الميزان، لوجنا بأن ما يناقض البر هو الإثم، وما يناقض التقوى هو العدوان " وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ "

افتراء خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن كل فعل ينقصه شيء من التقوى سيتأتي فيه شيء من العدوان. وهذا يعني أنه كلما زادت التقوى قلّ العدوان، وكل ما قلّت التقوى زاد العدوان. وإن انعدمت التقوى تجلى العدوان بكل صوره وأشكاله، وإن حضرت التقوى كلها، اختفى العدوان كله. فالعلاقة بين التقوى والعدوان هي علاقة عكسية تماما.

الدليل: فحتى الصدقات يمكن أن تبدى ويمكن أن تخفى، لكن إخفاءها خير من أن تبدى، قال تعالى:

- ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: 271]

السؤال: لماذا يكون إخفاء الصدقات خير من أن تبدى؟

رأينا المفترى: لأن إخفاء الصدقات بشكل كامل، ينتفي فيه وجود شيء من العدوان على المتصدق عليه. فإبداء الصدقات مهما عظمت قد يترتب عنه شيء من الأذى على المتصدق عليه، فالله هو من أرشدنا بقوله:

- ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: 263]

ولو تابعنا ما جاء في هذا السياق القرآني، لوجدنا بأن الصدقات يمكن أن تبطل تماما بالمن والأذى:

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: 264]

نتيجة مفتراة: إن إبداء الصدقات قد يتبعه شيء من المنّ والأذى، وهذا فيه – لا شك عندنا- عدوان على المتصدق عليه. فحتى نستطيع أن نزيل هذا العدوان (من المنّ والأذى) مهما صغر، فالتقوى هي الحل.

لكن يبقى السؤال: ما هي التقوى؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن التقوى ليست حالة إيمانية فقط، وإنما هي طريقة إيمانية.

السؤال: وما الفرق؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه من أجل تحقيق الحالة الإيمانية من التقوى علينا أن نسلك الطريقة الصحيحة في إحداثها على أرض الواقع، ولو دققنا في النص القرآني التالي، لوجدنا بأن التقوى ليست أكثر من لباس (أي غطاء)، قال تعالى:

- ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف: 26]

فالتقوى – بصريح اللفظ القرآني- هي لباس "وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ"، وذلك هو الخير "ذَٰلِكَ خَيۡرٌ" وهو من آيات الله "ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ"، والغاية أن يكون هناك احتمالية أن نتذكر ذلك الخير "لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ".

لنصل إلى النتيجة المفتراة المهمة جدا جدا، ألا وهي: كل فعل يكون مغطى بلباس التقوى فهو خير. انتهى.

فمفردة التقوى كلباس واضحة في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل: 81]

فالله هو من جعل لنا سرابيل لتقينا الحر، وهو من جعل لنا سرابيل لتقينا بأس بعضنا بعضا.

السؤال: ما علاقة هذا كله بشعيرة البدن (الأضحية) التي ينال الله التقوى منا؟

رأينا المفترى: عندما ينشب خلاف بين الناس، يكون هناك محرك لهذا الخلاف وهم شياطين الإنس والجن. لكن هناك بالمقابل من يقع ضحية هذا الخلاف ولا يدري عن تفاصيل ومحركات هذا الخلاف. فالذين افتعلوا هذا الخلاف، قد بدءوا ذلك من قلوبهم، فأخرجوه إلى صدورهم، فدبروا الأمر بليل وحركوه. وهؤلاء – لا شك عندنا- لا يخفى أمرهم على الله، لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور:

- ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]

وهؤلاء – لا محالة – الله يعلمهم، فهم منافقون، وقد يكونون ممن مردوا على النفاق:

- ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة: 101]

فحتى محمد نفسه لم يكن يعلمهم "لَا تَعۡلَمُهُمۡ"، لكن الله (وجنوده) يعلمونهم "نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ". فلا يخفى أمرهم على الله.

لكن يبقى هناك بالمقابل الذين لا يوجد في قلوبهم مشكلة، فما ظهر في صدورهم شيئا من النفاق. لكنهم - لا شك- متفاوتون في الإيمان حتى وإن كانت قلوبهم تخلو من النفاق. وهنا تأتي شعيرة البدن (كأضحية) لتبين ما في قلوب هؤلاء من التقوى. فيعلمها الله:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: 36-38]

السؤال: وكيف ذلك؟

لا شك عندنا أن هؤلاء المؤمنين جميعا ليسوا هم السبب في إحداث المشكلة، لكن بالرغم من ذلك هم متفاوتون في الرغبة في حل المشكلة التي نشبت من حولهم. فالله قدم لهؤلاء الهداية في حل تلك المشكلة، ألا وهي الأضحية (البدن). لكن ربما لن تجد أكثرهم مستعدا أن يضحى بالنفس والمال. فربما تجد بعضهم يبقى صامتا لا يحرك ساكنا، ينأ بنفسه عن المشكلة، بينما تجد آخرين يجاهد بنفسه بالإصلاح بين الناس، فيبذل الجهد بالتقريب الكلامي بين المتخاصمين، ويبقى نوع ثالث من المؤمنين وهم المستعدون لحل المشكلة بالجهاد النفسي والمادي. فيكون المؤمنون – حسب فهمنا المفترى هذا - على أنواع ثلاثة، ألا وهي:

- المؤمنون الصامتون
- المؤمنون الذين يبدلون الجهد النفسي في حل المشكلة، فهؤلاء من يجاهدون بأنفسهم
- المؤمنون الذين يبذلون الجهد النفسي والمادي في حل المشكلة. وهؤلاء الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.

السؤال: ما علاقة هذا بفقه الأضحية؟

رأينا المفترى: عندما تنشب المشكلة في الأسرة أو العائلة، يكون هناك دائما طرف يحاول أن يفض الخلاف بين المتخاصمين. وهؤلاء هم الذين لم يكن لهم يد في نشوب المشكلة، لكنهم وجدوا أنفسهم واقعين فيها بسبب علاقاتهم العائلية مع أفراد العائلة الذين أحدثوا تلك المشكلة. وتأتي الشعيرة الإلهية بتقديم القربان لتبين مقدار التقوى التي في قلوب هؤلاء المؤمنين من عباده الذين لا يحبون الفساد في الأرض. فالذي يبقى صامتا منهم هو في أدنى سلم درجات الإيمان، والذين يبدل الجهد النفسي (فيجاهد بنفسه) في حل المشكلة هو في وسط ذلك السلم، لكن الذي يبذل الجهد النفسي والمادي (فيجاهد بماله ونفسه) هو في أعلى ذلك السلم الإيماني، وهم المحسنون، وهولاء من جاءت لهم البشارة صريحة في الآية الكريمة ذاتها:

- ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج: 37]

تساؤلات:

- من هم المحسنون؟
- لماذا لهم البشارة هنا؟
- الخ

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية التي وردت فيها مفردة "المحسنين"، لوجدنا على الفور أنها تختم الآيات التي تتحدث عن المنفقين في سبيل الله، قال تعالى:

- ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: 195]
- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: 236]
- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: 134]

- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١﴾ [التوبة: 91]

فالذي ينفق من ماله (مهما قلّ) ابتغاء وجه الله، فهو لا شك من المحسنين، فربما سبق دينار (كما قال السلف) ألف دينار. فمن أنفق دينارا واحدا ابتغاء رضوان الله ومغفرة منه – لا شك- هو خير ممن أنفق ألف دينار رياء الناس وغاية في نفسه.

ولو تابعنا البحث عن المحسنين في آيات الكتاب الحكيم، لوجدناهم هم الذين لا يبغون الإفساد في الأرض:

- ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56]

ولو تدبرنا الآية التالية، لوجدناهم هم الذين يعفوا ويصفحوا:

- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾ [المائدة: 13]

والآية الكريمة التالية تجمع لنا صفات المحسنين كلها: المنفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران: 134]

ولو تدبرنا الآيات أكثر، لوجدنا بأن يوسف كان هو النبي الذي كثر وصفه بأنه من المحسنين:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف: 22]
- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ [يوسف: 36]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [يوسف: 56]
- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ [يوسف: 78]
- ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: 90]

فبالرغم من كل المشاكل التي أحدثها له كل من حوله من إخوته في صغره، وامرأة العزيز ونسوة المدينة في شبابه، وصاحباه السجن اللذان كان سببا في سجنه، إلا أنه كان من المحسنين لهم جميعا، فهو من تصدق عليهم، فأنفق من ماله:

- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]
- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]

وهو من صفح وعفا عنهم عندما تجمعوا عنده:

- ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف: 92]

وهو من أحسن إلى صاحبيه السجن، فقدم لهم المساعدة النفسية في السجن، فما بخل عليهم بما عنده من العلم:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

وهو من لم يمس شرف امرأة العزيز بكلمة سوء حتى وإن كان مكرها ومكر نسوة المدينة قد كلفه سنين من عمره في السجن. ولم يحاول الانتقام من أي أحد منهم بعد أن مكّن الله له في الأرض وأصبح عزيز مصر. فكان فعلا محسنا بكل ما في الكلمة من معنى. فكانت خاتمة ذلك أن الله كان معه على الدوام، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: 128]

السؤال: ما علاقة هذا بفقه الأضحية كشعيرة يبشر الله بها المحسنين؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية السابقة جيدا، لوجدنا التجاور واضحا بين الذين اتقوا والذين هم محسنون "إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ". فما دلالة هذا التجاور هنا عندما نربطها بالآية التي تتحدث عن تقديم البدن (كأضحية) في قوله تعالى:

- ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج: 37]

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الإحسان حالة متقدمة من الإيمان تتجلى بالتضحية بالنفس وبالمال. ولو عدنا إلى شعيرة الأضحية كطريقة إلهية في فض الخلاف وإرساء قواعد المحبة في العائلة وفي البيت الواحد، لوجدناها تكشف لنا عن هؤلاء المؤمنين المتقين الذين هم محسنون. فعليك عزيزي القارئ أن تتخيل – إن شئت- مقدار الأجر والثواب العظيم الذي تناله من الله عندما تتبرع بجهدك ومالك لكي تفض الخلاف الناشب بين أفراد أسرتك بهذه الشعيرة العظيمة. ولك أن تتخيل الأجر والثواب العظيم الذي تناله من الله عندما تكون

أنت من تأذى من جراء هذا الخلاف، لكن بالرغم من ذلك تكون من الذين يصفحون وينفقون في السراء والضراء وممن يكظمون غيظهم ويعفون عن الناس:

- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]
- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: 134]

دعاء: اللهم أسألك وحدك أن تجعلني من عبادك المخلصين إنك أنت السميع البصير.

السؤال: ما الذي سيحققه لك كل ذلك؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى السياق القرآني الأول الذي كان محور النقاش عن فقه الأضحية، لوجدنا الآية الأخيرة تبين لنا نتيجة هذا الفعل من الإحسان، فلننظر في السياق مرة أخرى في محاولة منا لتلخيص النقاش السابق كله، قال تعالى:

- ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج: 36-38]

فالمتدبر للآية الأخيرة (38)، سيجد على الفور أن عمل الإحسان هذا ستكون له نتيجة وعاقبة. أما النتيجة فهي أن يدافع الله عن الذين آمنوا "إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟"، وأما العاقبة، فإن الله لا يحب كل خوان كفور "إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ".

السؤال: كيف نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: عندما تنشب مشكلة، يكون هناك دائما من هو مؤمن لا يحب الفساد في الأرض، ويكون هناك بالمقابل من هو خوان كفور (وهو الذي يحب أن يحدث الفساد في الأرض). فإن أنت أردت أن تكون من عباد الله المخلصين، فما عليك إلا أن تبذل طاقتك في حل الخلاف لكي لا يحدث الفساد، ويتجلى ذلك بأن تنفق من مالك ومن جهدك (بتقديم الأضحية لهذه الغاية)، وأن تكون مستعدا لأن تصفح وتكظم غيظك وتعفو عن الناس إن أنت تضررت من جراء فعل المفسدين في الأرض. وأن يكون ذلك خالصا لوجه الله لا تريد ممن حولك جزاء ولا شكورا. وأن تترك الأمر لرب السماوات والأرض أن يتولى أمرك، فيكون هو وليك في ذلك. وعليك أن تتيقن - رأي العين- أن الله سيدافع عن الذين آمنوا إن أنت أخلصت ذلك لوجهه، فتكون مؤهلا أن ينطبق عليك قوله تعالى:

- ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: 69]

وتأكد أيضا بأن الله لا يصلح عمل المفسدين. وأن حالهم لن تنصلح مادامت قلوبهم لا تتقي، أي ما دامت لا تخفي التقوى. وأن هذا العمل على أهميته وفاعليته، سيكشف هؤلاء الشياطين الذين يفسدون في الأرض ويبغونها عوجا، فهم من سيكون للشيطان عليهم سلطان، فيغويهم.

آآآآآآآآآآآه. شو دخل هذا الكلام بالغواية اللي بدأنا الحديث به عن قصة آدم مع الشيطان وغواية الله للشيطان وغواية الشيطان لآدم وذريته؟

خلينا نلخص ما افتريناه في فقه القربان أولا، ثم نعود بعد ذلك لنتابع من جديد الحديث في قصة ابني آدم وقربانهم الذي قدماه عندما قتل إسرائيل أخاه إدريس بعد أن طوعت له نفسه (ما خلق الله لهم من أزواج) في الأجزاء القادمة بإذن الله.

دعاء: فالله وحده نسأله أن يؤتينا رشدنا وأن يعلمنا ويزدنا علما، إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد

تلخيص فقه الأضحية (القربان)

لما كان الله لا محالة سيعلم ما في قلوبنا (من تقوى)، جاءت الأضحية كشعيرة إلهية لتكشف ما في قلوب المؤمنين من عباده من مقدار تلك التقوى فعلا. فظننا أن من يريد أن يقدم الأضحية، فعليه أن يضحي (يجاهد) بالنفس وبالمال. فيكون هو الشخص الراغب في حل المشكلة التي نشبت بين أفراد العائلة. فهو الشخص الصادق الباحث عن حل المشكلة الذي يبذل من جهده ويدفع جيبه، ليجلب المنفعة (تليين قلوب المتخاصمين). فيطعم منها القانع والمعتر، فيحضر تلك الأضحية وجهاء القوم (القانعين) كما يحضرها فقراؤُهم والمحتاجين منهم (المعتر). فيكون المتقبلون أن يحضروها والمستعدون أن يأكلوا منها هم فعلا الراغبون في حل المشكلة، وإنهاء حالة التشنج والتوتر وبالتالي إنهاء حالة الفساد في الأرض. وبالمقابل، يكون الرافضون حضورها، الممتنعون عن الأكل منها، هم سبب المشكلة المصرّون على عدم حلّها، وبالتالي إحداث الفساد في الأرض.

فالأضحية فيها خير لنا، والخير يتمثل - نحن نفتري الظن – في جلب المنافع ودرء الفساد. لذا، فإن المنفعة التي تجرها الأضحية – نحن نفتري الظن- لا تكون عائدة على الأموات، ولكن منفعتها تتأتى مباشرة للأحياء، لأنها وسيلة لحل الخلافات بين المتخاصمين في العائلة الواحدة. لذا يجب أن تذبح بنية المنفعة (تليين العلاقة بين المتخاصمين)، وكشف التقوى التي في قلوب عباد الله المؤمنين. وبناء عليه، نحن نتجرأ على تقديم الافتراءات التالية:

- يجب أن تذبح في المكان المتضرر من المشكلة.
- يجب أن تجهز ويدعى إلى حضورها جميع من لهم علاقة بالمشكلة (أفراد الأسرة الواحدة جميعا).
- يجب أن يدعى لحظورها عِلية القوم المعروف عنهم بالإصلاح بين الناس (القانع) كما يجب أن يدعى لحظورها فقراءهم والمحتاجين منهم (المعتر).
- من حضرها وأكل منها، فهو على استعداد للحل.

- من رفض حظورها وأبى الأكل منها، فهو من أحدث المشكلة، وهو من يصر على استمرارها.
- إراقة الدم في مكان المشكلة كفيل بطرد الشياطين منه، فمن حضر الأضحية وأكل منها فهو (وإن كان ممن شارك الشياطين في إذكاء نار الفتنة) إلا أنه مستعد لإنهاء المشكلة وفض شراكته مع أولئك الشياطين (الإنس منهم والجن)، أما من رفض الحضور عليها أو الأكل منها فهو الشيطان نفسه، مشغل المشكلة ومحركها.

(وسنتحدث عن هذه الجزئية بالتفصيل إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها لاحقا إن شاء الله).

وأخيرا، نحن نظن أن تطبيق شعيرة الأضحية بمثل هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا (بعد تصويبه وإظهار نقاط ضعفه) كفيل بأن يخرج هذه الشعيرة من أطار وثنية اتباع دين الآباء. فالمطبق لهذه الشعيرة اتباعا لدين الآباء لا يلمس – ابتداء - المنفعة المتحصلة منها، وربما من هنا يأتي هجوم المنكرين لهذه الممارسات الدينية على أنها طقوس وثنية لا طائلة منها. فلابد لأهل العلم (نحن نطالب) أن يبينوا الأصل العقائدي الصحيح من مشروعية هذه العبادة (وغيرها) للناس أجمعين. ولو فهم الناس (كل الناس) فقه العبادة (أي عبادة) كما شرعها الله، لسدت أفواه الكثيرين، ولتحصل للمؤمنين منفعة عظيمة، تنعكس إيجابيا على حياتهم العملية.

إن أول تبعات هذا الافتراء هو تنظيم هذه العبادة، ونحن نقترح التالي:

- الكف عن جعلها تبدو وكأنها ميدان لذبح الكائنات الحية من الأنعام
- اتباع سبل النظافة بأن يتم الذبح في البيت وليس في الشوارع ودكاكين الجزارين
- إعلان النية للأضحية، فيكون ذلك خبر يتناقل في المجتمع المحلي، فتكون الأضحية عند فلان من الناس خبرا بأن هناك مشكلة عالقة تحتاج حلا.
- يسمع المجتمع المحلي، فيتبارى إلى حظورها القانع والمعتر.
- سيعلم الجميع (الحاضر منهم والغائب) بمن هو مستعد لحل تلك المشكلة، وسيعلم كذلك بمن أشعلها ويصر على استمرارها.
- يتبين المضحي منفعة الأضحية على الفور.
- يترتب عليه أن يعمل على استمرار العلاقة الإيجابية مع من تقبلوها والإعراض عمن رفضها بالهجر الجميل.
- يترتب على المضحي أن يوكل لله الدفاع عنه ولا يتولى ذلك بنفسه، بعد أن يكون قد أنفق وصفح وكظم غيظه وعفا عن الناس.
- أن يوقن ذلك المؤمن المتقي المحسن بأن الله يدافع عن الذين آمنوا.
- وليعلم ذلك المنافق المفسد في الأرض (المشعل للفتن بين الناس) أن الله لا يحب كل خوان أثيم.
- الخ.

دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن أكون ممن علمتهم من لدنك علما لا ينبغي لغيري إنك أنت العليم الحكيم. وأدعوك وحدك أن تعلمني ما لم أكن أعلم، وأن تزدني علما وأن تهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوك وحدك أن تؤتيني رشدي، فأكون من عبادك المحسنين. وأعوذ بك أن أكون ممن يفترون عليك الكذب، أو ممن يقولون عليك ما ليس لهم بحق. وأسألك وحدك أن لا يكون أمري كأمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، إنك أنت العليم الخبير.

وللحديث بقية بإذن الله

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان

بقلم د. رشيد الجراح

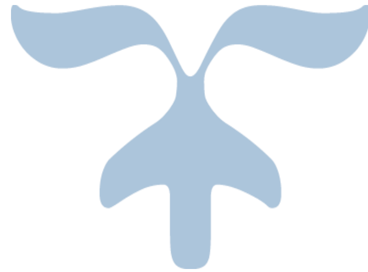
26 آب 2019



الجزء الخامس

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء الخامس: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

تعرضنا في الجزء السابق من هذا الكتاب لفقه الأضحية التي ظننا – مفتري القول من عند أنفسنا- بأنها القربان الذي بدأ تشريعه مع أول مشكلة عائلية نشبت على الأرض عندما دب الخلاف بين ابني آدم، فاتفقا على حل الخلاف بينهما بآلية تقديم القربان، ولكنهما اختلفا على النتيجة عندما رفض إسرائيل (الأخ الأصغر) أن يلتزم بنتيجة تقديم القربان التي كانت لصالح أخيه الأكبر إدريس. ففي حين أن القربان قد تقبل من إدريس لم يُتقبل من إسرائيل، وذلك لأن الأول كان من عباد الله المتقين "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ"، بينما كان إسرائيل ممن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة. فكان القربان هو ما أخرج ما في نفس إسرائيل من حب الحياة الدنيا على الآخرة وهو ذاته ما كشف ما في قلب إدريس من التقوى.

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: 27-30]

وليس أدل على إفساد إسرائيل في الأرض حينئذ من تتمة السياق القرآني ذاته:

- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٢﴾ [المائدة: 32]

وقد افترينا الظن في الجزء السابق من المقالة بأن القربان يمكّننا من معرفة نوعين من الناس، وهما:

1. عباد الله المتقين الذي لا يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.
2. المفسدون في الأرض الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة.

كما افترينا الظن بأن دور الشيطان يكمن في تحريك تلك الغواية لتتحقق على أرض الواقع. فهو ليس ملام على غوايتك لأنك أنت من غويت فعلًا. فالغواية تفتعلها النفس ويظهرها الشيطان، وليس أدل على ذلك من شهادة الشيطان في العذاب:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

ويأتي القربان ليكشف لنا نحن البشر ما في صدور العالمين من غواية وما في قلوب المؤمنين منهم من تقوى. فالله هو من سخر لنا الأنعام التي تقدم كقربان (الأضحية) لهدفين اثنين:

1. للخير الذي فيها لنا، لأنها ليست أكثر من آلية فاعلة لتحل الخلاف الناشب بين المتخاصمين، فهي تبين لنا المتقين كما تدلنا على الذين في قلوبهم مرض (وهذه هي – برأينا- المنفعة التي تتأتى لنا من جراء تقديم القربان)،
2. لينال الله منا التقوى، فيعلم ما في قلوب المؤمنين من تقوى (فيعلمها الله).

ونحن نتجرأ على الظن بأن الغواية تتحصل في الصدر، فعلم الله بها نافذ، وهي لا شك ما يجول في صدر الشخص من سوء. لكن علينا أن نميّز بين الغواية من جهة والفتنة من جهة أخرى. ونحن نفتري الظن بأن الفتنة هي محلها القلب، وقد تتجلى بالخير كما تتجلى بالسوء، فالله قد يفتن الناس، فتكون النتيجة على نحو أن يؤمن بعضهم ويكفر آخرون:

- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٠﴾ [النحل: 110]

وهذا من أجل أن يتحصل العلم الإلهي لما في القلوب:

- ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 2-3]

أما الغواية، فهي مبنية بكليتها على الجانب السلبي، فعاقبتها دائمًا وخيمة:

- ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود: 34]

*** نتائج مفتراة:**

- الفتنة لما في القلب.
- الفتنة قد تكون عاقبتها خيرًا وقد تكون عاقبتها سوءً.
- الفتنة هدفها علم الله بالذين صدقوا وعلمه بالكاذبين.
- الغواية لما في الصدر.
- الغواية عاقبتها دائمًا وخيمة.

ولو تابعنا تدبر الآيات القرآنية الخاصة بهذه الشعيرة كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج: 36-38]

لوجدنا أن الخير الذي فيها لا يتوقف عند هذا الحد، بل أن تقديم البدن (كقربان) هو – نحن نظن- أحد الوسائل الفاعلة على شكر الله: كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة "الشكر" (ومشتقاتها) في السياقات القرآنية كلها، لوجدنا بأن الشكر ليس قولًا يردده اللسان فقط، بل هو فعل ينفذ على أرض الواقع. انتهى.

الدليل: دعنا نبدأ جلب الدليل من تفقدنا للآية الكريمة التالية:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: 14]

فالمدقق في صريح اللفظ هنا سيجد الحث للإنسان أن يشكر لله وأن يشكر لوالديه "عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ"، ليكون السؤال الآن هو: كيف يجب على الإنسان أن يشكر لوالديه؟ هل يكفي أن يقول لهم بلسانه "شكرًا لكما"؟ هل يكون الشكر للوالدين قولًا فقط؟ أم هل يجب على الإنسان أن ينفذ شكره لوالديه عملًا واقعا يبين أنه فعلًا يشكر لهما؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا صريح اللفظ يدلنا على أن الشكر هو عمل يمكن للإنسان أن يحققه على أرض الواقع، قال تعالى:

- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13]

فها هم آل داود ينفذون الشكر عملًا، وليس فقط قولًا (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا). أليس كذلك؟

ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن هدف الشكر هو طلب الزيادة:

- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: 7]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الطريقة العملية لتحقيق الزيادة من أي شيء تريده هو الشكر. ومن هذا المنظور نحن ندعو القارئ الكريم أن يقرأ الآية الكريمة التالية.

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: 12]

نعم. من يشكر فإنما يشكر لنفسه. فهو من يريد الزيادة من الخير. فما تقدم لوالديك على سبيل الشكر لن ينقص ذلك من مالك شيئا، لأن الله - لا شك عندنا- سيخلفه. فكل ما تنفق من شيء شكرًا لله وشكرًا للوالدين، فإن الله - لا محالة - سيخلفه لأن الله هو خير الرازقين:

- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 39]

ومن هنا نحن نحث الناس أجمعين ألا يقع في قلبهم شكرًا لله على شيء إلا أن كانوا يريدون الزيادة من ذلك. فإن أنت أصابك خير، فلك أن تشكر الله بلسانك كما تشكره عملًا (كما سنحاول تبيان ذلك بعد قليل إن

شاء الله). لكن إن أنت أصابك ما تكره، فلا تشكر الله على ذلك، لأن الله ليس سببا في ذلك المكروه مصداقًا لقوله تعالى:

- ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النساء: 79]

السؤال: ماذا يتوجب على الإنسان أن يفعل إذا ما أصابته السيئة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن على من أصابته السيئة أن يجأر إلى الله، مؤمنا أن الله هو وحده القادر على كشف هذا السوء الذي أصابك:

- ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [النحل: 53-54]
- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النمل: 62]

السؤال: وماذا يتوجب على الإنسان قوله في دعائه ليكشف الله ما به من سوء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن كل من أصابه ابتلاء بنقص من الخير أن يكون من الصابرين:

- ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]

وعليه في ذات الوقت أن يؤمن بالقول والعمل بما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 156]

وستكون النتيجة الحتمية بإذن الله على النحو التالي:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: 157]

نتيجة مفتراة 1: عندما تصيبك نعمة من الله، عليك أن تشكر الله (قولًا وعملًا) بنية الزيادة من الخير.

نتيجة مفتراة 2: عندما يصيبك السوء عليك أن تجأر (قولًا وعملًا) إلى الله أن يكشفه عنك.

نتائج مفتراة من عند أنفسنا:

- الشكر يتحقق على أرض الواقع بالعمل
- الشكر هو ما يكفل الزيادة
- من يشكر فإنما يشكر لنفسه
- ما تنفق من مالك بنيّة الشكر، فإن الله سيخلفه

السؤال: ما علاقة هذا بفقه شعيرة الأنعام (الأضحية)؟

تصورات مفتراة من عند أنفسنا: جرت فطرة الناس على تقديم القربان (الأضحية) من الأنعام عندما يتحصل لهم من الخير الوفير. فلو راقبت الناس على فطرتهم التي فطرهم الله عليها، لوجدت أن من رزق منهم

بمولود جديد، قد عمد إلى تقديم القربان من الأنعام، فيذبح من الأنعام تحت ما يسميه الناس اليوم – بالمفردات الشعبية- "بالعقيقة". وتجد من بنا منهم بيتًا قد عمد كذلك إلى تقديم القربان من الأنعام، فيذبح ويولم ليطعم القانع والمعتر، وكذلك يفعل من اشترى مركبة جديدة أو حصل على وظيفة، ومن أوتي سعة من المال لم تكن في حساباته من ذي قبل. وهذا ما نسميه نحن هنا بمفرداتنا بـ "قربان الشكر".

ولا تتوقف منفعة القربان من الأنعام عند هذا الحد، بل هي أيضا (نحن نظن) وسيلة فاعلة لدفع النقم. فما كانت نجاة آل لوط من العذاب إلا لأنهم ممن كانوا يشكرون الله:

- ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ۝٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ۝٣٥﴾ [القمر: 34-35]

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الشكر قد جاء سابقًا للإيمان في دفع عذاب الله:

- ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ۝١٤٧﴾ [النساء: 147]

نتيجة مفتراة: من كان يشكر الله عملًا واقعًا على الأرض فقد حصّن نفسه من العذاب.

وقد كان الشكر (نحن نظن) المفتاح الأول لاجتباء إبراهيم وهدايته:

- ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٢١﴾ [النحل: 120-121]

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن عكس الشاكر ليس الكافر وإنما الكفور:

- ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: 3]

نتيجة مفتراة 1: الإنسان قد يكون شاكرًا "إِمَّا شَاكِرٗا".

نتيجة مفتراة 2: الإنسان قد لا يكون شاكرًا، فهو إذا يكون كفورًا "وَإِمَّا كَفُورًا".

ولو حاولنا ربط هذه الجزئية "وَإِمَّا كَفُورًا" في هذا السياق القرآني مع سياق الآيات التي تتحدث عن البدن التي انطلقنا منها في حديثنا هذا كله، لوجدنا دقة الترابط اللفظي في كتاب الله العزيز، قال تعالى:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج: 36-38]

فالذين يقدّمون البدن لإصلاح الفساد في الأرض هم - لا شك- من الذين آمنوا، وهم من سيدافع الله عنهم. لكن الذي يسعى في الأرض الفساد (بإحداث المشاكل) هو – بالمقابل - خوان كفور "إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ" يستحيل أن يكون عبدًا شكورًا. فالمقابلة هنا هي بين من هو شاكر من جهة ومن هو خوان كفور من الجهة المقابلة. فهو خوّان بإحداث الخيانة وبالتالي الفساد في الأرض، وهو كفور لأنه يستحيل أن يكون شاكرًا، لأنه لا يقدم البدن كأضحية للقضاء على هذا الفساد.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نجد التقابل في هذا السياق القرآني بين من هو من الذين يشكرون الله (وهم المحسنون الذين ينفقون في سبيل الله ولا يحبون الفساد في الأرض، فيصفحوا ويكضموا غيض قلوبهم ويعفون عن الناس) من جهة والخائنين الذين يعمدون إلى نشر الفساد في الأرض ولا يشكرون الله على نعمه "كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ".

ونجد التحذير الإلهي لنا (واضحا لا لبس فيه) من فئة محددة من الناس وهم من جاء وصفهم في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 204-207]

فهؤلاء متقنون (لا بل متفننون في) الكلام "المعسول"، فهم الذين يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم:

- ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾ [التوبة: 8-10]

فهؤلاء هم من إذا تولوا سعوا في الأرض ليفسدوا فيها، وهم الذين يستطيعون أن يخدعوا كثيرا من الناس بظاهر القول:

- ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ [الرعد: 33-34]

فكيف نستطيع أن نميّز هؤلاء؟ وكيف يمكن أن يُمتحن ما في قلوبهم؟

رأينا المفترى: إنه القربان (الأضحية)

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الذي يضحي هو من يقدم الأضحية، فهو يجاهد بنفسه وبماله مهما قلّ. فالله قد طلب منّا أن ننفق في سبيله شريطة ألا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة:

- ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: 195]

فالذين عاهدوا الله على أن يصدّقوا وأن يكونوا من الصالحين، سيغويهم الله بأن يؤتيهم من فضله، لكن ستكون النتيجة الحتمية أنهم سيبخلون ويعرضون. وهؤلاء هم الذين في قلوبهم مرض لأنهم هم الكاذبون، فالله يعلم سر هؤلاء ونجواهم لأن الله علام الغيوب. ولا يتوقف مرض قلوبهم عند هذا، بل هم الذين يلمزون المطوّعين في الصدقات كما يلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم، فما يكون من أولئك مرضى القلوب إلا أن يسخروا من هؤلاء الذين لا يجدون إلا جهدهم، وستكون النتائج عليهم كارثية على نحو أن يسخر الله منهم أولًا ثم يكون لهم عذاب أليم.

- ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: 75-79]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن كشف "المتشدقين بالقول" بلا عمل (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) هم في الحقيقة ألد الخصام "وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ"، وهم الذين يسعون في الأرض فسادًا، فيستحيل أن يكونوا من المضحّين بأنفسهم وأموالهم، أي من يقدمون الأضحية (القربان) لكف الفساد من الأرض. فهم الذين لا يعملون شكرًا. وهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: 2-3]

فالله يحذر عباده المؤمنين أن يقعوا في هذا المنزلق الخطير (أن يقولوا ما لا يفعلون). فالفعل هو الذي يصدق القول. فكل قول لا يصدقه العمل هو من باب "وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ"

وتستطيع عزيزي القارئ أن ترى (بأم عينك) هؤلاء الذين لا يحبون أن ينفقوا في سبيل الله، فهم الذين لو استلم أحدهم الميكرفون وقام خطيبًا في الناس لأعجبك قوله. لكن هل جربت أن تراقب أفعاله بعد أن سمعت أقواله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الغالبية العظمى من هؤلاء الخطباء "المفوهين" هم من الذين يحبون المال حبًّا جمًّا. وفي الوقت ذاته هم أنفسهم الذين يأكلون التراث أكلًا لمًّا:

- ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)﴾ [الفجر: 17-20]

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن هؤلاء هم أنفسهم الذين إذا ما وقفوا خطباء بالناس سردوا من حكايات التراث ما يعد وقد لا يحصى. فهم مغرمون بقصص التراث الفائت، لكننا لا نجدهم في الوقت ذاته يطبقون عمليًا على أرض الواقع ما يتلفظون به بألسنتهم، فهم الذين يختارون من التراث زخرف القول غرورًا. فترى الكلمات تنساب من أفواههم كالشعر الموزن، فحطاباتهم مملوءة بالسجع، كما تزينها المحسنات البديعية كالجناس والطباق وجزالة الألفاظ التي لا يفهمها الناطق بها ناهيك عن سامعها، لكنهم في الوقت ذاته أبعد الناس عن تطبيق ما يقولون على أرض الواقع. لذا، فهؤلاء – برأينا- هم شياطين الإنس (كما شياطين الجن) لا يوحون لبعضهم البعض إلا زخرف القول غرورًا:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112)﴾ [الأنعام: 112]

وذلك لأن الحياة الدنيا هي التي غرتهم:

- ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51)﴾ [الأعراف: 51]

فمن غرته الحياة الدنيا هو الذي آثر ما فيها على الآخرة، فيكون الإنفاق في سبيل الله هو أكثر شيء لا تطيقه نفسه، فلا ينفق من ماله إلا بشح الأنفس:

- ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)﴾ [الحشر: 9]
- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (16)﴾ [التغابن: 16]

فالذي ينفق هو من استطاع أن يوق شحّ نفسه، وبالمقابل فإن من لم يوق شحّ نفسه، فلن يكون من المفلحين.

افتراءات غير مقصودة: إذا رأيت من لا يوق شح نفسه، فيبخل، ولا يعمل شكرًا بالإنفاق، ويتشدق بزخرف القول غرورًا، فيعجبك قوله، ويخذلك فعله، فهذا من شياطين الإنس الذين وجب الحذر منهم، لأنهم ممن إذا تولوا في الأرض سعوا ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل. فالذي تراه يلبس ثوبه ذات الشكل الواحد، ويخطب في الناس بكلام التراث، ويحب المال حبًا جمًا، ولا ينفق في سبيل الله، فهذا من شياطين الإنس. والشي الذي يفضح نواياهم غير الشريفة هو شيء واحد، ألا وهو القربان (الأضحية).

السؤال: لماذا يزداد الغني غنى؟ ولماذا يزداد المحتاج حاجة؟

رأينا المفترى: لو دققت في مظاهر بعض حياة الناس العاديين، لوجدت أن بعض الأغنياء يزداودن غنى، في الوقت الذي يزداد فيه بعض الفقراء فقرًا بغض النظر عن وازعهم الإيماني. ليكون السؤال هنا هو: لماذا؟
رأينا المفترى: عندما كانت سنة الله الكونية على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: 7]

كان سلوك بعض الأغنياء متماشيًا مع هذه السنة الكونية، فهم ممن يشكرون بالإنفاق، ولما كانت سنة الله على النحو التالي:

- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: 39]

ولما كانت سنة الله الكونية على النحو التالي:

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾ [لقمان: 12]

كان كل من عمل شكرًا قد طبق فعلًا هذه السنن الكونية، فبسط الله له الرزق. وقد كان آل داود هم أكثر من طبق هذه السنن الكونية، فكانت النتيجة كما جاءت على لسان سليمان على النحو التالي:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾ [النمل: 36]

وبالمقابل، نجد كثيرًا من الفقراء لا ينفقون شيئًا مما آتاهم الله متذرعين بعامل القلة والعوز. فهم بذلك لا يطبقون سنّة الشكر، فلا يستفيدون من نتائجها. ولو علم هؤلاء ما في عمل الشكر من خير يعود عليهم، لما تلكأوا عن الإنفاق (ولو كان بهم خصاصة) لحظة واحدة:

- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 8-9]

فالإنسان يجب أن يتعلم أن يوق شح نفسه بعمل الشكر، فلا يكون خوانًا كفورًا:

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ۝٣٧ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج: 36-38]

بناء على ما سبق من منطق مفترى من عند أنفسنا، نستطيع أن نتجرأ على الافتراءات التالية التي نظن أنها تتأتى من تقديم القربان (الأضحية):

- حل المشاكل العائلية.
- حل المشاكل الفردية.
- جلب المنفعة.
- درء الفاقة والحاجة.
- تطهير المكان.

باب الطهارة: القربان في الحج

تحدثنا في واحدة من مقالاتنا السابقة عن الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: 125]

فطرحنا السؤال عن آلية تطهير البيت كما نفذها إبراهيم وإسماعيل على أرض الواقع. وكان رأينا المفترى حول هذه الجزئية يتمثل بالتالي: تطهير البيت يتحقق بالقربان (الأضحية). انتهى.

تصورات مفتراة من عند أنفسنا: عند حديثنا عن طهارة البيت، فإننا نعتقد جازمين بأن الطهارة هنا تعني تنظيف المكان من رجز الشيطان. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

تصورات مفتراة من عند أنفسنا: بعد أن نزل آدم عند نصيحة الشيطان له بالأكل من الشجرة، جاء الأمر الإلهي للجميع بالهبوط من الجنة (بيت المقدس)، فكان هبوطهم (نحن نظن) إلى الواد غير ذي الزرع ببطن مكة، وكان الهبوط للجميع بمن فيهم الشياطين.

- ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البقرة: 38]

فكان وادي مكة هو المكان الذي (نحن نفتري الظن) بنت فيه الشياطين مملكتهم الأولى. فأصبح ذاك المكان (وما زال) يعج بالشياطين. وعندما وضع أول بيت للناس هناك، كان تواجد الشياطين حوله كثيفا. فكان لازما تنظيف المكان من رجزهم على الدوام. وعندما بوأ الله لإبراهيم مكان البيت، أسكن بعضًا من ذريته هناك، ليقيموا الصلاة:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

لقد عمد إبراهيم إذا إلى إسكان بعضًا من ذريته هناك بهدف إقامة الصلاة، وهو الأمر الذي – لا شك- يغيظ الشياطين. ويكأن إبراهيم يريد أن تقام الصلاة على الدوام في عقر دار الشياطين، الأمر الذي سيجعل ذكر الله غير منقطع في تلك البقعة الجغرافية من الأرض.

ولكي يحقق ذلك عملًا غير منقطع على أرض الواقع، رفع إبراهيم القواعد من البيت العتيق مع ولده إسماعيل، وجاءه الأمر الإلهي بتطهير المكان، فأصبح لزاما دوام تنظيف المكان من الشياطين التي تحيط بالبيت، فيبقى مكانًا مطهرًا للطائفين والعاكفين والركع السجود:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

فكان تطهير البيت (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) يتم بالقربان (الأضحية). انتهى.

وبناء عليه، فإننا نظن (ربما مخطئين) بأن الهدف من تقديم قربان الأضحية في موسم الحج هناك هو من أجل تطهير البيت من رجز الشيطان. فالأضحية (أي القربان) التي يقدمها الحاج بعد اتمام الحج، لها – برأينا- منفعتان اثنتان:

1. احتفالًا بانتهاء مراسم الحج والفوز بالجائزة.
2. تطهير المكان من رجز الشيطان في هذا العام حتى العام القادم، فكان القربان إلى أجل مسمى:

- ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: 33]

(وهو ما تحدثنا عنه عندما تعرضنا لمفردة الكوثر)

(للتفصيل انظر ما جاء في بعض مقالاتنا السابقة حول هذه القضية خاصة الجزء التاسع من فقه الزكاة)

فالمنفعة الأولى تتمثل – برأينا- في تليين العلاقة بين العبد وربه. فالعبد الذي يقدم القربان الذي محله إلى البيت العتيق هو شخص قد أقر بذنبه، فأراد إصلاح العلاقة مع ربه، فذكر الله يتم هنا في الحج على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، وتكون مخصصة لأن نأكل منها بأنفسنا ونطعم منها البائس الفقير:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم

مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: 26-35]

ولو دققنا في النص هنا جيدًا، لوجدنا بأن ما نذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام في الحج هو للأكل الشخصي ولإطعام البائس الفقير، بينما تكون البدن التي هي من شعائر الله والتي ذكر اسم الله عليها في البيوت من أجل أن نأكل منها ونطعم القانع والمعتر (للتفصيل انظر الجزء السابق من هذه المقالة). وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- تتمة السياق القرآني ذاته:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾ [الحج: 36-38]

نتائج مفتراه مهمة جدًا

- ما يذكر اسم الله عليه في الحج يكون لنأكل منها ونطعم البائس الفقير "فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ"

- ما يذكر اسم الله عليه من البدن في البيوت (الأضحية) يكون لنأكل منها ونطعم القانع والمعتر "فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ"

تلخيص ما سبق: يأتي القربان (الأضحية) في مناسك الحج كشعيرة من شعائر الله. فتكون فاعليته خيرًا لنا لنشكر الله، فيكون ذلك من باب ما نعمل شكرًا لله. فنأكل منها ونطعم البائس الفقير.

وتأتي المنفعة الأخرى لهذه الشعيرة من ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام في الحج تطهيرًا للبيت من رجز الشيطان. فمادام أن اسم الله قد ذكر عليها، فإنها لن تكون من الفسق في شيء. ولو دققنا في الآية الكريمة التالية جيدًا:

- ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ۝١٢١﴾ [الأنعام: 121]

لوجدنا على الفور الترابط الواضح بين الفسق والشياطين. فأول من فسق عن أمر ربه هو إبليس:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]

نتيجة مفتراة 1: ما لم يذكر اسم الله عليه يقع في باب الفسق.

نتيجة مفتراة 2: ما ذكر اسم الله يستحيل أن يكون فيه فسق، لأن ذكر الله – لا محالة- يحبط عمل الشياطين. ولو دققنا في مفردة الفسق ومشتقاتها، لوجدنا أن أهم ما يميز الفسق، هو إذكاء العداوة بين الناس، فالفاسق هو الذي يحاول إيقاع الخلاف (وبالتالي العداوة) بين الأطراف.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: 6]

ومثال ذلك الذين يرمون المحصنات الغافلات "وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ". فمحرك فعلهم هذا هو إذكاء العداوة وإيقاع المشاكل بين الناس:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4]

وقد جاءت صفات الفاسقين جليّة في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 26-27]

فالفاسقون هم:

- الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه،
- ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل،
- ويفسدون في الأرض

والنتيجة الحتمية لهؤلاء هي الخسران المبين "أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ"، وذلك لأن سنّة الله التي مضت في الفاسقين هي على نحو أن الله لا يهدي القوم الفاسقين:

- ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: 108]
- ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: 24]
- ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [يونس: 33]

والسبب في ذلك أنهم نسوا الله، فأنساهم الله أنفسهم:

- ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: 19]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: من كان له ميثاق مع الله، ثم تولى بعد ذلك، فهو لا محالة من الفاسقين.

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: 81-82]
- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: 59]
- ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: 102]

ومهما فعل هؤلاء الفاسقين، فلن يتقبل الله منهم:

- ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [التوبة: 53]

فإبليس كان أول من فسق عن أمر ربه:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50]

فهو كان ممن أخذ أصر الله، ثم تولى، وكان ذلك نتيجة لاستكباره:

- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: 20]

نتيجة مفتراة 1: إبليس فسق عن أمر ربه لأنه أخذ الإصر ثم تولى.

نتيجة مفتراة 2: إبليس استكبر في الأرض.

نتيجة مفتراة: إبليس هو من يذكي العداوة بين الناس.

فيصبح التقابل واضحًا بين المؤمنين الذين وليّهم الله من جهة والذين فسقوا باتخاذهم الشيطان وليّ لهم من جهة أخرى:

- ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: 18]

وذلك – برأينا- ما حصل من بني إسرائيل، فعلى الرغم من ميثاق ربهم، إلا أنهم فسقوا:

- ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً

يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: 24-27]

والفسق هو أهم صفات المنافقين:

- ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ [التوبة: 67]
- ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٨٠﴾ [التوبة: 80]
- ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨٤﴾ [التوبة: 84]
- ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التوبة: 96]

فأولئك الذين قد يرضيك قولهم ولكن المشكلة هي متجذرة في قلوبهم:

- ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾ [التوبة: 8]
- ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝١٦﴾ [الحديد: 16]

تلخيص ما سبق: عندما يأخذ الله العهد من أحد، ثم يتولى ناسيًا الله (عن قصد طبعًا)، فإن الله ينساهم، فتقسى قلوبهم، فيكونوا من المنافقين الفاسدين، فلا يكون الله وليّ لهم. لأنهم يكونوا حينئذ عدوا لله وملائكته وجبريل وميكال:

- ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٩٨ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٩٩ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠٠﴾ [البقرة: 98-100]
- ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾ [المائدة: 80-81]

فلا يكونوا ممن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فيكثر الفاسقون بينهم:

- ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110]

وتنتقل ولايتهم للشيطان، فينشط عمله فيهم، فيكثروا في الفسق، كما حصل مع الأقوام السابقة كقوم نوح:

- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الذاريات: 46]

أو قوم فرعون:

- ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل: 12]
- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32]
- ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: 54]

أو كثير من قوم موسى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: 5]
- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: 163]

أو قوم لوط:

- ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: 74]

أو كثير ممن اتبعوا عيسى ابن مريم:

- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: 27]
- ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: 47]

والفسق هو أحد أهم أسباب هلاك القرى:

- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16]
- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: 34]

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنعام: 49]
- ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ۝١٦٥﴾ [الأعراف: 165]
- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾ [السجدة: 20]
- ﴿۝٣٤ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾ [الأحقاف: 35]

فأحد أهم أسباب جلب العذاب هو الفسق، الذي يحدثه الناس بتحريض من وليهم الشيطان. ولكي يحبط عمل الشيطان، فلابد من إحداث الأمن، فقد جاءت دعوة إبرهيم لهذا البلد أن يكون آمنا، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: 35]

فيكون السؤال الآن هو: كيف سيتأتى الأمن في هذا البلد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الأمن لا يمكن أن يحدث في ظل وجود الفسق والفاسقين. ففي حين أن الفاسقين يسعون إلى إحداث الفساد، وبالتالي جلب العذاب الإلهي على المكان كما حصل مع الأقوام السابقة، فإن الأمن يتأتى بكف يد الفاسقين. ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن أحد وسائل جلب الأمن إلى المكان يتأتى بإحباط عمل الشيطان، فلا ينتشر الفسق. وهنا يأتي دور القربان (الأضحية) التي يذكر عليها اسم الله التي نأكل منها ونطعم البائس الفقير. ولا يتوقف تأثيرها الإيجابي عند هذا الحد، بل تكون الضمانة الحقيقية بأن يُعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا. ولو تدبرنا الآيات التالية التي تتحدث عن إبراهيم، لوجدنا أن الإيمان يجب ألا يلبس بظلم:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝٨٣﴾ [الأنعام: 82-83]

فالذبح على النصب والاستقسام بالأزلام هما من الفسق الذي يحدثه الشيطان وأولياؤه.

- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣﴾ [المائدة: 3]

فلله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء، يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفا هم – برأينا- من ألبسوا إيمانهم بظلم:

- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: 3]

نتيجة مفتراة: ذكر اسم الله على ما يذبح من الأنعام كشعيرة في الحج هي كفيلة حقيقية بأن لا يلبس الإيمان بظلم (وهذه هي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه)، وكانت الآلية الضامنة لذلك على أرض الواقع هي شعيرة الذبح في الحج.

إن هذا الطرح السابق يوصلنا إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: تأتي شعيرة القربان (الأضحية) في الحج لتكون تطهيرًا للمكان من رجز الشيطان، ويأتي ذكر الله عليها للحد من الفسق الذي يكون محركه الشيطان وأولياؤه. وتكون في تلك الأضحية منافع إلى أجل مسمى.

ليكون السؤال الآن هو: ما هو الأجل المسمى؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا السياقات القرآنية التي ترد فيها عبارة "أجل مسمى"، لوجدنا أنها خاصة بالوقت الذي يتعلق بوقوع الأمر على أرض الواقع، فالدّين يكتب إلى أجل مسمى، وهو الوقت الذي يصبح فيه سداده لازمًا على المدين:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: 282]

وحياة الناس على الأرض محددة بأجل مسمى يتحقق على كل واحد منهم عندما يحين أجله:

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنعام: 2]
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: 60]
- ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: 3]

- ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [إبراهيم: 10]
- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النحل: 61]
- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝١٢٩﴾ [طه: 129]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: 5]
- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الزمر: 42]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [غافر: 67]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١٤﴾ [الشورى: 14]

والعذاب محتوم بأجل مسمى:

- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ۝٤٥﴾ [فاطر: 45]
- ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [نوح: 4]
- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٣﴾ [العنكبوت: 53]

والشمس والقمر في حركة جريان حتى بلوغ الأجل المسمى لهما:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد: 2]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٢٩﴾ [لقمان: 29]
- ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣﴾ [فاطر: 13]
- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ۝٥﴾ [الزمر: 5]

وجاء خلق السماوات والأرض إلى أجل مسمى:

- ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: 3]
- ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الروم: 8]

وكذلك هي منافع الأنعام محددة بأجل مسمى:

- ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٣٣﴾ [الحج: 33]

السؤال: ما هو الأجل المسمى لمنافع الأنعام؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الطهارة ليست دائمة وإنما مؤقتة، يتوجب حصولها عند أجلها المسمى. لذا، فإن الطهارة يجب أن تكون متكررة كلما حان الأجل المسمى لها. انتهى.

الدليل: نحن نظن أن الطهارة فعل متكرر، يحدث بحلول الأجل المسمى، وليس أدل على ذلك – برأينا- من طهارة النساء من المحيض:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

فالأذى يصيب النساء طوال الشهر، وما أن يأتي المحيض حتى يكون هو بذاته الآلية التي تُحدِث الطهارة من ذلك الأذى الذي تحصل في جسم المرأة طوال الشهر كله. لذا، فإن عملية تطهير جسم المرأة من الأذى يتأتى كل شهر مرة واحدة.

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا (ربما المغلوط) نفهم آلية تطهير أي مكان آخر، كطهارة البيت:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: 125]

فطهارة البيت تكون من الرجز الذي أحدثه الشيطان طوال العام هناك، فيأتي القربان بالأضحية (إراقة الدم) لتطهير المكان كله من أذى الشيطان. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟ وأين الدليل على ما تفتري من قول؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الدليل على ذلك يتأتي من تقديم بعض الافتراءات المسبقة التي جاءت في مقالات سابقة لنا، نذكر منها:

- الخلافة في الأرض للخلق الأخير.
- الخلق الجديد هو خليفة الخلق السابق.
- الخلق السابق هم الجن.
- الخلق الجديد هم البشر.
- الإنس جاء خليفة للجن.
- الملائكة جزء من الجن.
- الشياطين هم من الإنس والجن.
- أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.
- تلكأت الملائكة عن تنفيذ الأمر الإلهي في بادئ الأمر.
- تخاصموا في الملأ الأعلى.
- أسفرت خصومتهم عن عقد اجتماع تشاوري بينهم.
- جاء نتائج ذلك الاجتماع أن يسجدوا لآدم كلهم أجمعون.
- رفض ذلك الإجماع إبليس فقط، فأبى أن يكون من الساجدين لآدم لأنه كان يظن بخيريته على آدم.
- كانت تلك هي غواية الله لإبليس بأن أخرج ما في نفسه من الكبر.
- كانت غواية إبليس لآدم أن أخرج ما في صدره من حب الحياة الدنيا على الآخرة.
- الخ.

وهنا يطرح التساؤل التالي على الفور، ما علاقة هذا بطهارة البيت من رجز الشيطان؟

رأينا المفترى: لو دققنا في رد الملائكة الأول على الأمر الإلهي لهم بالسجود لآدم، لوجدناه على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: 30]

فالمدقق في هذا السياق القرآني سيجد على الفور بأن أكثر ما كان يقلق الملائكة (كعباد الله المؤمنين من الجن) أن يحدث الفساد وسفك الدماء في الأرض. فالملائكة يخشون الفساد في الأرض كما يخشون سفك الدماء.

وقد افترينا في مقالة سابقة لنا بأن سفك الدماء الذي علمته الملائكة كان من سلوك الكائنات الحية الأخرى (كالدواب) على الأرض. فالملائكة ترقب سفك الدماء الذي تقوم به الدواب في البرية، فكانت تخشى أن يقوم المخلوق الجديد بهذا الفعل كما قامت به الكائنات الحية السابقة كالدواب من ذي قبل. لكن كان الرد الإلهي حاسما بخيرية الخلق الجديد بذاك العلم الذي أودعه الله في آدم عندما علمه علم الأسماء كلها. انظر الآية التالية في السياق ذاته:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]

فجاء رد الملائكة على الفور على نحو الإقرار بالعلم الإلهي الذي لم يكونوا على دراية به:

- ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: 32]

فما كان منهم إلا أن يسجدوا كلهم بعد أن أجتمعوا على هذا الرأي:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30]

ولم يتخلف عن الجمع (الاجتماع الملائكي) إلا إبليس:

- ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 31]

إن ما يهمنا من هذا الطرح هو أن الجن كافة (الملائكة منهم والشياطين) لا تحب سفك الدماء، لا بل تهابه ولا تقرب منه.

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الجن كينونات لا تستطيع العمل في وجود الدم. انتهى. فالدم هو ما يكبح عملهم تمامًا.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن شياطين الجن تحب الفساد لكنها لا تحبذ القتل:

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [المائدة: 32]

فمهمة الشيطان الرئيسية تكمن في أن ينزغ بين الناس لإحداث الفساد كما حصل في حالة يوسف وإخوته:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100]

وقد كان الفساد الأول على الأرض قد بدأ مع قصة ابني آدم:

- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 32]

فيكون السؤال هنا: ما الذي حصل حينئذ؟

رأينا المفترى: طرحنا في مقالتنا السابقة بعض التساؤلات حول القصة نعيدها هنا لمتابعة النقاش فيها ثم نحاول ربطها بالفكرة الرئيسية للبحث بإذن الله وتوفيق منه:

- لماذا كان لآدم وزوجه ابنان اثنان فقط؟
- هل كان لهما ذرية من الإناث؟
- كم عددهن (إن وجدن)؟
- لماذا لم يذكرهن القرآن بصريح اللفظ؟
- كيف حدث التزاوج مع بداية انطلاق الحياة على الأرض؟
- كيف أصبح الزواج لاحقًا؟
- ما هي الظروف التي أحاطت بتلك القصة حينئذ؟ متى قضى الموت على آدم وزوجه؟ وكيف حصل ذلك؟ وماذا حصل لسوءتهما؟ هل تم التخلص منها بالدفن؟
- هل كان آدم وزوجه على قيد الحياة عندما حصل الخلاف بين الأخوين؟
- لماذا عمد الأخ القاتل على مواراة سوءة أخيه؟ هل كان ذلك ضروريًا في تلك البقعة الممتدة من الأرض الفسيحة؟
- لماذا قربا القربان؟
- ما هو القربان الذي قرباه؟
- كيف تم تقديم القربان؟
- كيف تم قبول القربان
- الخ

السؤال الأول: لماذا كان لآدم ابنان اثنان فقط؟

رأينا المفترى: قد لا يخطر مثل هذا السؤال على بال الكثيرين ممن يقرأون النص القرآني من العامة من الناس، وقلما تجد له بعض الإجابات في جعبة أهل الدراية من أهل العلم المتخصصين في التفسير القرآني، ربما لظنهم أن هذا من البديهيات التي قد لا تستدعي إثارة السؤال حولها، أو ربما لصعوبة إيجاد التبرير المرضي لها، فيأخذون الأمر من باب المسلمات التي لا تحتاج أن يناقش ولا حتى أن تطرح التساؤلات حولها. لكن لما كنا نظن - نحن - أن كلام الله مقصود بذاته، فإن له – لا محالة - تبرير حقيقي، لا بد أن يبين مع الوقت متى ما أشغلت العقول بها بهدف التدبر والوصول إلى الحقيقة. ومن هذا المنطلق، فإننا لن نتردد أن نجعل الأمر قضية مهمة مطروحة على طاولة النقاش.

أما بعد،

نحن نؤمن – ابتداء- بأنه كان بالإمكان أن يكون لآدم ولد واحد، كما نؤمن بأنه كان بالإمكان أن يكون له أكثر من اثنين من الأبناء. فالتساؤل الذي يوجه النقاش هنا هو: لماذا كان له اثنان من الأبناء فقط؟

وينبثق عن هذا التساؤل الرئيسي تساؤلات أخرى لها علاقة مباشرة بمحاولة الوصول إلى إجابة مرضية، نذكر منها:

- هل كان لآدم فعلاً اثنان من الأبناء فقط؟
- وإن كان كذلك، فما الذي كان يمنع آدم (نحن نسأل) من كثرة الإنجاب؟
- وهل كان تحديد الإنجاب باثنين من الأبناء قرارًا من آدم نفسه أم كان قدرًا مفروضًا عليه؟
- الخ

رأينا المفترى: نحن نؤمن يقينًا بأنه لم يكن لآدم أكثر من اثنين من الأبناء بدليل صريح اللفظ في النص القرآني:

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

فصريح اللفظ في الآية الكريمة (كما نفهمه طبعًا) يبين لنا بأن ذرية آدم من الذكور (الأبناء) قد انحصرت باثنين فقط. وقد افترينا القول من عند أنفسنا في مقالات سابقة لنا بأن الابن الأكبر كان اسمه إدريس بينما كان الابن الأصغر هو إسرائيل. كما حاولنا الترويج لفكرة مفادها أن الابن الأصغر إسرائيل هو الذي قتل أخاه الأكبر إدريس.

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان: لماذا قدم لوط بناته بدلًا من ضيوفه؟)

السؤال: لماذا انحصرت ذرية آدم باثنين من الأبناء فقط؟

رأينا المفترى: نحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) أن القرار بأن يكون لآدم اثنين من الأبناء هو قرار آدم نفسه. وإن صح افتراؤنا هذا، يكون السؤال الحتمي إذًا هو: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية (كما نفهمها طبعًا) تجيب على هذا التساؤل، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾ [المائدة: 87]

فالمتدبر لهذه الآية الكريمة، سيجد أنه يتوجب علينا أن نكون واقعين في المنتصف بين ضابطين إلهيين اثنين متضادين، وهما: ألا نحرم ما أحل الله لنا "ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ" يقابله في الطرف الآخر ألا نعتدي (وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ).

السؤال: ما علاقة هذا بمسألة أن يكون لآدم اثنين من الأبناء فقط؟

رأينا المفترى: لو دققنا النظر فيما أحله الله لنا، لوجدنا أن الله قد أحل لنا الطيبات. وبالمقابل، فالله نهانا عن الاعتداء. ولو دققنا في العلاقة المتضادة بين ما أحله الله لنا والاعتداء فيه على مساحة النص القرآني، لوجدناه قد ذكر في سياقين اثنين، وهما سياق الحديث عن المحرمات من الطعام:

- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173]

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: 3]
- ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: 145]
- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: 115]

وفي سياق الحديث عن النكاح:

- ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: 229]
- ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: 13-14]
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ [الطلاق: 1]
- ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المائدة: 107]

لتكون النتيجة المفتراة من عند أنفسنا هي على النحو التالي: نحن نظن بأن قرار آدم إنجاب اثنين من الأبناء قد كان محكومًا بهذين الضابطين المتضادين: ألا يحرم ما أحل الله وفي الوقت ذاته عدم الاعتداء. انتهى.

السؤال: كيف يكون قرار آدم إنجاب اثنين من الأبناء محكوما بعدم تحريم ما أحل الله وعدم الاعتداء في آن واحد؟

رأينا المفترى: لكي نفهم العلاقة بين هذه وتلك، علينا أن نحاول طرح جميع الخيارات التي كانت متاحة أمام آدم في قضية الإنجاب على وجه التحديد. فنحن نظن بأن الخيارات التي كانت متاحة أمام آدم هي خيارات ثلاثة فقط، وهي على النحو التالي:

- أن ينجب ابنا واحد (مفرد).
- أن ينجب اثنين من الأبناء فقط (مثنى).
- أن ينجب أكثر من اثنين من الأبناء (جمع).

السؤال: لماذا تجنب آدم الخيار الأول وهو إنجاب ابن واحد فقط؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب هو جلب المنفعة للبشرية فيما أحله الله.

السؤال: لماذا تجنب آدم الخيار الثالث بإنجاب أكثر من اثنين من الأبناء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو تجنب الإعتداء.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: بداية يجب فهم آلية التزاوج التي سُطّرت في كتاب الله على النحو التالي:

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21]
- ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: 11]
- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21]

فجميع نساء الأرض (الأزواج) قد خلقن من أنفسنا "خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا". لكن السؤال الذي يجب أن يطرح هو: كيف يتم التزاوج؟ هل يتزوج الأبن من أمه أو أخته أو ابنته؟ ألسن مخلوقات من أنفسنا؟

رأينا المفترى: بالرغم أن النساء مخلوقات من أنفسنا، لكن هناك ضوابط للنكاح. فالضابط الأول للنكاح هو:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: 23]

فعلى الرغم أن الأم والبنت والأخت هن الأقرب في الخلق من أنفسنا، لكن النكاح لا يقع على هؤلاء. فالنكاح يقع على من خلقنا من أنفسنا شريطة ألا تكون من هؤلاء، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة مهمة جدًا: يكون النكاح من الأنفس شريطة ألا تكون من النفس القريبة، أي يجب أن تكون من نفس مختلفة. فأنا وأختي قد جاء خلقنا من نفس واحدة، لكني لا أنكحها. وأنت وأختك قد جاء خلقكم من نفس واحدة، لكنك لا تنكحها. لكن لا ضير أن أنكح أنا أختك، وتنكح أنت أختي. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بمسألة أن يكون لآدم ابنًا واحدًا فقط؟

منطقنا المفترى (ربما المغلوط): نحن نظن بأنه لو كان لآدم واحدًا من الأبناء فقط، لكان له واحدة من البنات لكي تبقى البشرية في تكاثر طبيعي.

السؤال: وما المشكلة في ذلك؟

رأينا المفترى: لو كان لآدم بنتًا واحدة، لكانت تلك الأنثى قد خلقت من نفس ذلك الإبن الواحد:

- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: 21]

السؤال: وما المشكلة في ذلك؟

رأينا المفترى: كانت خطة آدم (نحن نتخيل) بأن لا يكون التزاوج بين أولاده (الأبناء والبنات) من ذات النفس، ولكن أن يكون التزاوج من نفس مختلفة.

السؤال: وكيف سيتحقق ذلك لآدم؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن خطة آدم كانت مبنية على أن يكون له ابنان اثنان، وأن يكون له ابنتان اثنتان. تكون كل واحدة منهما قد خلقت من نفس واحد من الأبناء: فيكون إدريس واخته التي خلقت من نفسه، ويكون إسرائيل ونفسه التي خلقت منه. لكن التزاوج (النكاح) الذي كان يخطط له آدم يجب أن يكون مبني على اختلاف الأنفس، وذلك بأن يتزاوج الابن الأول (إدريس) من تلك التي خلقت من نفس أخيه (إسرائيل)، بينما يتزاوج إسرائيل (أي ينكح) من تلك التي خلقت من نفس أخيه إدريس.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: ليتجنب آدم الخطأ (أو لنقل الإثم) الذي وقع فيه مع نفسه (زوجه).

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: كان الله قد خلق آدم ليكون خليفة في الأرض، وكان من المفترض ألا يحصل النكاح بل أن يتم التزاوج فقط. ويكون التكاثر بين آدم وزوجه لإنجاب الذرية بالنفخ، كما حصل في حالة مريم أبنت عمران. فلا تنكشف السوءة. لكن لما آثر آدم الملك على الخلافة، وبدى لهما ما وري عنهما من سوءاتهما، خسر آدم القدرة على النفخ، وما عاد ممكنا إلا النكاح (المس) عن طريق السوءة التي كان الله قد واراها عنهما. فتحصل نتيجة ذلك الأذى الذي مصدره المحيض.

السؤال: كيف ذلك؟ لم أفهم شيئًا يسأل صاحبنا متعجبًا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو التزم آدم بالأمر الإلهي ألا يقرب الشجرة وألا ينزل عند نصيحة الشيطان، لظلّ آدم قادرًا أن ينفخ في فرج زوجه (كما حصل مع مريم أبنت عمران عندما جاءها روح الله ونفخ في فرجها، فحملت المسيح عيسى بن مريم.)، ولكانت الذرية ستتحصل لآدم وزوجه بتلك الآلية الأقل تكلفة، وأقل ضررًا. وهي الآلية التي يحصل فيها – برأينا- الحمل دون المس، فيكون حملًا خفيفًا (كما حصل مع مريم أبنت عمران):

- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: 20-22]

لكن عندما اختار آدم أن ينزل عند نصيحة الشيطان وأن يأكل من الشجرة، خسر آدم ذلك اللباس الذي كان يواري سوءتهما. وما عاد قادرا على النفخ في فرج زوجه. وأصبح لزامًا عليه أن يستخدم عضوه الذكري لإنجاب الذرية، فأصبح المس إلزاميًا لإنجاب الذرية، وأصبح حملًا ثقيلًا بعد أن كان حملًا خفيفًا:

- ﴿۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: 189]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: قبل الوقوع في المعصية، كان أمام آدم خياران اثنان فيما يخص إنجاب الذرية، وهما:

1. أن ينفخ في فرج زوجه، فلا يمسسها (الخيار الإلهي لآدم).
2. أن يمسس فرج زوجه، فيتغشاها بعضوه الذكري (الخيار الشيطاني لآدم).

وكان الذي يمكّن آدم من تنفيذ الخيار الإلهي على أرض الواقع هو ذلك اللباس. فالطاقة (الروح) الموجودة في ذلك اللباس كافيه لإحداث النفخ، وحصول الحمل خفيفًا. لكن عندما خسر آدم وزوجه ذلك اللباس، لم يتبق له إلا الطاقة الكامنة في عضوه الذكري لإحداث الحمل، فكان لزاما عليه استخدامه، فكان حملًا ثقيلًا.

السؤال: ما الفرق بين الحمل الثقيل والحمل الخفيف؟

رأينا المفترى: لا شك أن الحمل الخفيف هو الذي يتحقق بأقل تكلفة وأعلى فاعلية ممكنة، وهذا ما يمثله (نحن نظن) حمل مريم بالمسيح عيسى بن مريم. فهو حمل خفيف، لأنه تم بآلية النفخ في الفرج. فكان البطن طاهرًا، وما استمر أكثر من ليلة واحدة، وخرج من بطن أمه غير ناسي العهد الأول:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: 30-34]

فالحمل لم يشكل عبئًا على الأنثى (مريم)، كما أنه لم يحدث ضررًا بالغلام المولود (عيسى).

أما الحمل الثقيل الذي يتحصل نتيجة المس، فهو يقع في بطن غير طاهر (ولكنه متطهر)، وفي الوقت ذاته تكون له آثار سلبية على الطفل وعلى الوالدين:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 14-15]

نتيجة مفتراة مهمة جدًا: في حين أن حمل المسيح كان حملًا خفيفًا لأنه تم بآلية النفخ، كان حمل ذرية آدم حملًا ثقيلًا لأنه تم بالمس.

تخيلات مفتراة: لقد أودع الله في آدم القدرة على الاختيار حتى تكون إرادة آدم مستقلة عن إرادة ربه. فيتحمل آدم تبعات القرار الذي يتخذه بنفسه. فكان المتاح أمام آدم حينئذ طريقتين اثنين في الإنجاب: النفخ أو المس. وكان النفخ سيتم مادام آدم يلبس وزوجه ذلك اللباس الذي يواري سوءاتهما. ولكن إنْ هما فقدا ذلك اللباس، سيبقى متاح أمامهما الخيار الآخرفقط، ألا وهو أن يتغشى آدم زوجه بعضوه الذكري، فيتم الإنجاب بالمس.

السؤال: أين الدليل على هذه الافتراءات ربما غير المسبوقة؟ يسأل صاحبنا مستغربًا.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا السؤال ينقلنا على الفور إلى قصة خلق المسيح بكل تفاصيلها من البداية حتى النهاية، لنطرح حولها أسئلة وجودية ربما لم تطرح من ذي قبل. لكن من أراد متابعة النقاش هنا، فعليه أن يعود أولًا ليقرأ في سلسلة مقالاتنا تحت عنوان "كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم؟"، ثم يكون متحضرًا بعد ذلك لتلقي أسئلة أكثر جرأة وأعمق دلالات عن تلك الحادثة المفصلية في تاريخ البشرية. ففي تلك المقالات ستجد الأرضية الأولية لفهم القصة بطريقة مختلفة عن قصص التراث الإسلامي والمسيحي واليهودي، وربما تجد هنا قليلًا من متعة المنطق والخيال الذي قد لا يرضى به الكثيرون. وفي جميع الأحوال، نجد لزامًا تذكير القارئ الكريم بأن ما سنفتريه بعد قليل ليس أكثر من جهد بشري قابل للنقد والتصحيح، وإلا يصبح خيالًا زائفًا مكانه الصحيح سلة المهملات على سطح جهاز الكمبيوتر الذي تقرأ من على شاشته الآن. فالله وحده نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدًا، وأن يزيدنا علمًا، ونعوذ به أن نكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق.

أما بعد،

تساؤلات حول قصة خلق المسيح عيسى بن مريم؟

- لماذا حصلت القصة في ذلك الوقت من الزمن في تاريخ البشرية؟
- لماذا حصلت مع امرأة عمران على وجه التحديد؟
- هل كان من الممكن أن تحصل مع امرأة أخرى غير امرأة عمران؟

- لماذا نذرت امرأة عمران ما في بطنها؟
- ما الذي دفع امرأة عمران أن تنذر ما في بطنها؟
- لماذا تقبل الله منها؟
- لماذا كان ما أنجبته امرأة عمران أنثى؟
- هل كانت مريم أنثى كنساء العالمين؟
- ما المختلف عند مريم الذي جعل الله يتقبلها؟
- ما الذي جعل مريم مؤهلة لأن ينفخ الروح في فرجها؟
- لماذا كان لمريم ذرية؟ فهل للنساء أصلا ذرية؟
- الخ.

ربما ظن غالبية الناس من شتى المراجع العقائدية، بأن مجيء المسيح عيسى بن مريم في تلك الفترة الزمنية قدر إلهي لا مفر منه، وربما ظن أهل الدراية منهم أن ذلك استحقاق زماني كان لابد أن يحصل في تلك الحقبة من الزمن، ولم يكن ممكنًا أن يحصل في زمن غير ذلك الزمن. وربما يرى الكثيرون منهم عبثية طرح **السؤال التالي:** لماذا كان مجيء عيسى بن مريم في ذلك الوقت بالذات؟

أما نحن، فلن نتردد عن طرح التساؤلات حول مجيء اﻻلمسيح، لأن ذلك ربما سيفتح لنا آفاقًا جديدة في فهم القصة بطريقة أكثر واقعية وإن كانت تفصيلاتها – كما سترون بعد قليل- أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع. فالسؤال المحوري هو: هل كان مجيء المسيح في ذلك الزمن أمرًا لا مفر منه؟ هل الله هو من اتخذ القرار بأن يكون ميلاد المسيح في تلك الفترة من الزمن؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فالله لم يقرر أن يكون مجيء المسيح في تلك الفترة.

السؤال: إن صح ما تفتري (يقول صاحبنا)، فهات الدليل على كلامك إن كنت من الصادقين؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا نرد السؤال بسؤال أكبر منه، ألا وهو: ماذا لو لم تنذر امرأة عمران ما في بطنها، هل كانت ستنجب مريم؟ وحتى لو أنجبت مريم، هل كان الله سيتقبلها دون نذر من والدتها (كما فعلت)؟ وهل كان المسيح سيأتي حينئذ؟ الخ.

ربما سيرد صاحبنا المحاور بالقول بأن ذلك كان قدرًا من الله، فالله هو من قدر الأمور أن تكون على تلك الشاكلة.

رأينا المفترى: دعنا عزيزي المحاور من تلك القدرية التي ستكبل أيدينا وتكمم أفواهنا عن طرح التساؤلات، وتعال معي – إن شئت- لنتدبر التساؤل التالي بطريقة أخرى: هل الله هو من جعل امرأة عمران تنذر له ما في بطنها؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا الخطير جدًا جدًا: لو دققنا في الآية الكريمة التي جاءت في كتاب الله على لسان امرأة عمران، لوجدنا على الفور بأن المرأة هي نفسها من اتخذت القرار بأن تنذر لله ما في بطنها محررًا:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ [آل عمران: 35]

إن أبسط ما يمكن أن نفهمه من هذه الآية الكريمة (ربما مخطئين) بأن امرأة عمران هي من اتخذت القرار بأن تنذر لله ما في بطنها محررًا. وأن الله هو من تقبل منها نذرها ذاك. فيكون السؤال الآن هو: ما الذي

جعل امرأة عمران تتخذ ذلك القرار؟ وهل لو اتخذت امرأة أخرى (غير امرأة عمران) قرارًا مشابهًا، هل كان الله سيتقبل منها كما تقبل من امرأة عمران؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فلو نذرت كل نساء العالمين ما في بطونهن ما تقبل الله منهن إلا بشرط أن يتحصل لهن ما تحصل لامرأة عمران. انتهى.

السؤال: ما الذي تحصل لامرأة عمران حتى تقبل الله منها؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة السابقة، لوجدنا بأنها قد بدأت بمفردة إذ "إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ".

فما الذي يمكن أن نستفيده من تلك الإذ؟

جواب مفترى: إن أبسط ما يمكن أن نستنبطه من ابتداء الآية الكريمة بمفردة "إِذْ" هو أن الأمر قد حصل فجأة دون تخطيط مسبق.

السؤال: وما الذي يمكن أن نستفيده من قولك هذا؟ يسأل صاحبنا.

نخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل ما حصل مع امرأة عمران على النحو التالي: تتزوج امرأة عمران من هذا الرجل الصالح (عمران) الذي كان متزوجًا من امرأة أخرى من قبلها، فأنجب من امرأته الأولى ولده هارون، وتحمل امرأة عمران الجديدة هذه منه بعد زواجهما، فينتفخ بطنها بمريم، فكانت مريم أخت هارون.

- ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾ [مريم: 28]

نتيجة مفتراة مهمة جدًا: هارون هو (نحن نظن) الأخ غير الشقيق لمريم (أخوها من أبوها وليس أخوها من أمها).

تخيلات مفتراة خطيرة جدًا جدًا: في تلك الفترة التي كانت امرأة عمران الجديدة تحمل مريم في بطنها، يقضي الموت على الرجل، فتبقى المرأة حاملة ما في بطنها من ذلك الرجل الصالح. وعند وفاة الرجل بالموت تقوم المرأة بتفقد مقتنياته الثمينة جدًا التي لازالت في بيتها، فيقع بصرها فجأة (إذْ) على ما لم يكن بالحسبان: إنه التابوت. انتهى.

السؤال: ماذا تجد المرأة في ذلك التابوت؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا أكثر جرأة من سابقتها: ما أن فتحت المرأة ذلك التابوت حتى وجدت ما تطير له الألباب ويخطف الأبصار: إنه اللباس. انتهى.

ما أن عثرت المرأة على ذلك اللباس حتى أدركت قيمته، وعرفت فائدته. إنه اللباس الأول: لباس آدم وزوجه في الجنة. وهنا جاء قرار المرأة بأن هذا اللباس هو من نصيب ما في بطنها، فنذرت ما في بطنها محررًا لله:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ [آل عمران: 35]

ولما كانت امرأة، فقد خاطبت ربها بسمعه (فالله لا ينظر بعينه للنساء لحيائه). ولكنه يسمع قولهن:

- ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: 1]

وكان ذلك عن علم، فخاطبته بصفته السميع العليم "أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ".

السؤال: كيف تقبل الله منها؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو دققنا في النص كما يجب، لوجدنا أن الله لم يتقبل منها مباشرة، ولكنه تقبل منها بعد حين. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات التي تليها مباشرة:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 35-37]

فالمدقق في النص القرآني بصريح لفظه، يجد أن الله قد تقبلها منها بعد أن وضعتها. ولو كان القبول الإلهي مباشرة، لربما جاء النص على نحو أن الله قد تقبل منها (أي من امرأة عمران) بعد أن نطقت بدعوتها تلك. لكن النص القرآني يثبت أن الله قد تقبلها (مريم) بعد أن وضعتها. ليكون السؤال الآن: لماذا؟ أي لماذا تقبل الله مريم بعد أن تمت عملية الوضع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما عثرت امرأة عمران على ذاك التابوت، ووجدت فيه ذلك اللباس، أطلقت دعوتها بأن تنذر لله ما في بطنها محررًا. ولكن انتظرت المرأة حتى وضعت ما في بطنها، وهناك تقبل الله ما وضعت امرأة عمران، فكانت مريم "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا".

السؤال مرة أخرى: لماذا جاء القبول الإلهي لدعوة امرأة عمران بعد أن وضعت ما في بطنها (مريم)؟ يسأل صاحبنا مستغربًا.

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن القبول الإلهي قد تحقق عندما قامت امرأة عمران بإلباس تلك المولودة لها من بعلها عمران (مريم) ذلك اللباس الذي وجدته في التابوت.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدًا: مادام أن امرأة عمران قد ألبست مريم ذلك اللباس، كان القبول الإلهي لها في الحال. فعين الله على آياته. انتهى.

تخيلات مفتراة: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لو نذرت كل نساء الأرض على مر الزمان ما في بطونهن محررًا لله، فلن يتقبل الله منهن إلا ممن كانت تملك ذلك اللباس. انتهى.

وهذا يعني – بالضرورة – ما يلي:

- كان مجيء عيسى (كلمة الله) في ذلك الزمان على وجه التحديد استحقاقًا لآيات الله، فكما وقعت العصا في يد موسى، فكان اصطفاء الله له واختياره له أمرًا لا مفر منه، كان وجود القميص بين يدي امرأة عمران استحقاقًا لفرض آيات الله.

- لو وقع ذلك اللباس بين يدي أي امرأة أخرى في تاريخ البشرية، وفعلت ما فعلت امرأة عمران، لجاء عيسى في ذلك الزمن
- لو لم يقع القميص في يدي امرأة عمران، ولو لم تفعل ما فعلت، لما جاء المسيح عيسى بن مريم.
- الخ.

السؤال: أين الدليل على هذه الافتراءات (بل التخريصات)؟ يرد صاحبنا على الفور.

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها طبعا)، تقدم لنا الدليل على افتراءتنا هذه، قال تعالى:

- ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةً وَرَحۡمَةً ۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: 27]
- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]
- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]

السؤال: ما علاقة هذه الآيات بما كنت تخرص به من ذي قبل؟ يرد صاحبنا على الفور.

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه الآيات الكريمة، هل ترى فيها ما يلفت الانتباه؟ هل ترى بأن لها (أو حتى من الممكن أن يكون لها) علاقة بموضوع البحث الذي نقدمه هنا؟ ارجع البصر مرتين ثم انظر هل ترى فيها ما يمكن أن يفتح بصرك على شيء فيها له علاقة بالموضوع برمته؟

أما نحن، فإننا ندعوك بداية - حتى ترى العلاقة التي ما زالت حتى اللحظة في مخيالنا فقط- إلى تدبر السؤال التالي: لماذا ترد عبارة قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بالرسل؟ ولماذا يأتي في السياقات ذاتها ذكر موسى وعيسى على وجه التحديد؟ ولو دققت أكثر لوجدت أن الله قد قفا بالرسل من بعد موسى فقط، فلِم لَم تكن "التقفية بالآيات" من بعد نوح أو من بعد إبراهيم مثلًا؟ وبكلمات ربما أكثر وضوحًا نحن نسأل: لماذا جاءت تقفية الرسل من بعد موسى فقط؟

وبالمقابل، لم استمرت "التقفية بالرسل" حتى عيسى فقط؟ كيف يكون الله قد قفا بعيسى "وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ"؟ فهل عيسى هو آخر الرسل؟ وماذا عن محمد؟ فلِم لم تأت على نحو وقفينا بمحمد؟ أليس هو خاتم النبيين؟ من يدري؟!

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الآيات الكريمة الثلاثة التي أوردناها سابقًا الخاصة بتقفية الرسل من بعد موسى حتى عيسى تثير بحد ذاتها مجموعة من المعضلات التي يجب الوقوف عندها، ونذكر منها ما يلي:

- المعضلة 1: الله قفا بالرسل من بعد موسى على وجه التحديد، فالله قد قفّا إذًا بجميع الرسل الذين جاءوا من بعد موسى، لكنه لم يقفي بالرسل الذين جاءوا قبل موسى كنوح وإبراهيم مثلا.
- المعضلة 2: الله قفا بعيسى بعينه، ولم يقفي بالرسول الذي جاء بعده وهو محمد خاتم النبيين.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأن عملية "التقفية بالرسل" قد بدأت إذا من بعد موسى "وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ" وانتهت مع عيسى "وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ".

السؤال المحوري: كيف نستطيع أن نفهم هذه المعضلات فنخرج بأفهام ترشدنا الطريق إلى النص الديني الحقيقي وليس إلى تأويلات من عند أنفسنا ربما لا تمت للنص الديني بصلة؟
رأينا المفترى: نحن نظن بأنه ربما نستطيع أن نفهم ذلك – إن شاء الله- شريطة أن نفهم معنى المفردة ذاتها، وهي مفردة "وَقَفَّيْنَا"، فهل نستطيع التنظير حول شيء ما ونحن لا نفهمه أصلًا؟ من يدري؟! ما علينا.

دعنا نطرح السؤال المبدئي الذي كان من المفترض أنه قد طُرح منذ قرون طويلة. وحتى لا نصبح من المجادلين، ندعو كل قارئ لهذه السطور أن يرجع - قبل أن يتابع القراءة عندنا- إلى أمهات كتب التفسير لينظر فيها ما خطت أقلام أهل الدراية كما نقلها لنا أهل الرواية منهم حول هذه الآيات الكريمة، فإن هو وجد ما يشبه قولنا الذي سنقدمه بعد قليل، فله الحق أن ينعتنا بالسارقين، أما إن وجد أن كلامنا يخالف كل ما جاء من عندهم، فلا نطلب منه إلاّ أن يتخذ قراره بنفسه إلى أي الفريقين هو أقرب. كما نطالبه أن يراقب عن بعد كيف ستنتشر الأفكار بعد الآن على ألسنة أبطال الفضائيات في القريب العاجل، وكيف ستصبح هذه الأسئلة على ألسنة العوام منهم بعد الآن، وفي الوقت ذاته، لا نطلب منه إلا أن يتمثل قول الحق في كتابه الكريم:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 25]

أما نحن، فكيفينا قوله تعالى:

- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: 64]

أما بعد،

باب ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ: قراءة مفتراة جديدة

إن أبسط أبجديات التفكير عند الحديث حول النص القرآني هو محاولة فهم المفردات القرآنية كما يبينها النص القرآني ذاته. لذا، نحن نظن – كالعادة- أن السؤال المبدئي الذي يجب أن يطرح على الفور عند محاولة تدبر هذه الآيات الكريمة على وجه التحديد هو: ما معنى مفردة "قَفَّيْنَا" في الآيات الكريمة السابقة التي نعيدها هنا لسهولة المتابعة:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]
- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]
- ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾ [الحديد: 27]

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الكلمة غاية في البساطة، وذلك لأن أهل الدين هم أكثر من يشتغلون بها، فهم ينعتون أنفسهم باستخدام تلك المفردة ليل نهار، ولكنهم – للأسف- لا يبصرون. فسهولة المفردة هي التي (نحن نظن) أغشت أبصارهم عن فهمها.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفردة وَقَفَّيْنَا مشتقة من الجذر اللغوي "وقف" (بتسكين القاف). وإن صح افتراؤنا هذا، فعلينا إذا أن نميز بين جذرين اثنين هما:

- وقَف (بتحريك القاف بالفتح)، و
- وقْف (بتسكين القاف)

السؤال: ما الفرق بينهما؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الجذر الأول (وقَف) له علاقة بتوقف الحركة، فهو يدل على انتهاء الحركة حتى الوصول إلى مرحلة الثبات للاطلاع كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27]
- ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات: 24]

ونحن نجد في كلامنا الدارج قولا مشابها من مثل هذا: "تم إيقاف فلانا عن العمل"، فنفهم بأنه قد حصل الحد من مشاركته في العمل لسبب ما.

لكن نجد الجذر وقْف (بتسكين القاف) قد ورد – بالمقابل - في الآيات الكريمة كهذه:

- ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: 46]

ويستطيع المتدبر لمثل هذا السياق القرآني أن يستنبط بأنه لا علاقة لمفردة وَقَفَّيْنَا بمنع الحركة أو الحد منها على وجه التحديد. ليبقى التساؤل المطروح هو: ماذا يعني الجذر وقْف (بتسكين القاف) الذي يرد في مثل الآية الكريمة السابقة (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن مفردة وقْف (بتسكين القاف) لها علاقة مباشرة بالمكان الأكثر شهرة الذي يشتغل فيه رجال الدين: إنها وزارة الأوقاف. انتهى.

ألا ترى بأن كلامك ليس أكثر من فلسفات فكرية ربما غير ضرورية؟ يرد صاحبنا على الفور.

رأينا المفترى: ربما هي كذلك، لكن تمهل لنطرح على الجميع التساؤلات البسيطة التالية:

- هل يمكن – يا سادة- أن ترشدونا لم نسميها وزارة الأوقاف؟
- كيف هي وزارة أوقاف؟
- هل يفهم رأس الهرم في هذه الوزارة (معالي الوزير نفسه) وكادر الوزارة كلهم أجمعون لم تسمى وزارتهم الجليلة بوزارة الأوقاف؟
- والأهم من ذلك كله هو السؤال التالي: من أين جاءت تسمية هذه الوزارة المبجلة بوزيرها وكادرها الوظيفي بهذه التسمية؟ أي لم تسمى أصلا وزارة أوقاف؟

رأينا المفترى: سنترك للجميع حرية الإجابة كما يريدون، لكن سنحاول (نحن) أن ندلي بدلونا في ذلك، ولينظروا (هم) بأنفسهم إن كان ما نفتريه يستحق أن يرقى إلى درجة أن يكون ذا فائدة لهم أو لغيرهم، والأهم من ذلك كله هو إن كان فهمنا هذا سيحل لنا المعضلات السابقة التي أثرناها عند قراءتنا للآيات الكريمة الثلاثة التي ترد فيها مفردة " وَقَفَّيْنَا ". والأكثر إثارة هو السؤال التالي: ما علاقة هذا كله بموضوع ما نذرت مريم الذي جلب هذا الموضوع للناش مباشرة وموضوع العصا والقميص في قصة آدم التي افتريناها آنفا بطريقة غير مباشرة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن هذه الوزارة العظيمة هي الوزارة المسئولة عن الوقف، أليس كذلك؟ فما هو الوقف أصلًا؟ وماذا يعني أن ننعت شيئا ما بأنه وقف؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الوقف هو ما يصف الشيء الذي لا وارث له. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما نجد مالًا أو عقارًا لا وارث شرعي له، فإن ذلك يعتبر وقفًا، وتصبح وزارة الأوقاف هي المسئولة بالقانون لتعنى بهذا الوقف، فكل مال أو عقار أو نفع لا تعود ملكيته لجهة معلومة بعينها تؤول مسئولية القيام عليه إلى وزارة الأوقاف، أليس كذلك؟

السؤال: ما هو المال أو العقار الذي لا وريث له أساسا؟

جواب مفترى: إنها الآثار. انتهى.

ما الذي تقوله – يا رجل- هل وزارة الأوقاف مسئولة عن الأهرامات أو البتراء أو تدمر وأعمدة قرطاج وجرش وبعلبك اللبنانية وطرابلس اللبنانية والليبية؟ أليس هذا محض هراء؟

جواب مفترى: نعم، هذا هراء بلا جدال ولا مخاصمة ما لم تتريث قليلًا - عزيزي القارئ- لتفهم بأننا لا نقصد أن تكون تلك الوزارة مسئولة عن تلك الآثار التاريخية، لكنها مسئولة عن الآثار التي لا وارث لها كالمال والعقار والمنافع الأخرى التي هلك أصحابها. فمفردة الآثار (حتى التاريخية منها) هي أصلًا آثار لأنه لا أحد

يستطيع ادعاء ملكيتها. ولكن علينا أن نفهم أيضا بأن الآثار لا تقتصر جميعها على الأثار التاريخية، ولكنها تشمل أيضا الآثار التي يتركها من لا وارث لها بشكل لا يتوقف مكانيًا ولا زمانيًا. فتخيل معي عزيزي القارئ – إن شئت- أن شخصًا ما يملك الكثير من المال المنقول والعقار غير المنقول وأن هذا الشخص نفسه قد هلك ولم يكن له ولد ولا وريث شرعي يستطيع ادعاء ملكية ما ترك الرجل الذي قد هلك للتو، فأين تذهب ملكية هذه الأشياء التي كان يملكها هذا الرجل؟ وماذا يمكن أن نسمي تلك الأشياء التي تركها من ورائه؟ أليست هي آثار لمن تركها، لكن لمن تؤول مسئولية القيام عليها؟ ألا تصبح ملكًا للدولة؟ ومن هي الجهة الرسمية التي تتولى القيام عليها؟ أليست وزارة الأوقاف على وجه التحديد هي من تتولي المسئولية القانونية في القيام عليها لصالح الدولة ككل؟ ولم لا تعود تلك الأموال إلى خزينة الدولة (وزارة المالية) مباشرة؟ من يدري؟!

والآن دقق - عزيزي القارئ – مرة أخرى في الآيات الكريمة التالية التي ترد فيها هذه المفردة:

- ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: 46]
- ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: 27]

ألا تجد على الفور التلازم اللفظي واضحًا بين مفردة "وَقَفَّيْنَا" ومفردة الآثار "عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم"؟ فكيف نفهم ذلك؟

افتراء مهم جدًا: لا ترد مفردة قَفَّيْنَا في السياقات القرآنية إلا مع مفردة الآثار. فالتقفية هو عمل محصور على الآثار. انتهى.

السؤال: كيف سيخرجنا هذا الفهم المفترى من عندنا من المعضلات التي طرحناها سابقا، والمتمثلة بأن تقفية الآثار قد بدأت من بعد موسى واستمرت حتى عيسى فقط؟

جواب مفترى خطير جدًا جدًا (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نظن أن الموضوع له علاقة بالآثار التي لا يستطيع أحد من العالمين ادعاء ملكيتها، وهي العصا واللباس على وجه التحديد. انتهى.

السؤال الأول: لماذا جاءت تقفية الآثار للرسل الذين جاءوا من بعد موسى؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن قصة العصا والقميص قد ظهرت مع موسى، ثم بدأ تداولها من بعد موسى.

السؤال الثاني: لماذا انتهت عند عيسى؟ لِم لمْ تصل لمحمد؟ لِم لَم يكن محمد هو من قفا الله به على آثار الرسل السابقين كلهم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري أن آخر تلك الآثار قد انتهت مع عيسى. فما وصل لمحمد من تلك الآثار شيئًا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: إن أعظم الآثار التي بدأت برحلة البشرية (آدم وزوجه) على الأرض هما العصا واللباس، وما أن استطاع الشيطان أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما بعد أن جعل آدم يتخلى عن العصا التي

بيده حتى ظلت تلك آثارًا للعالمين. وقد ظهرت وراثة تلك الآثار (العصا والقميص) من بعد موسى، فكانت موجودة في التابوت الذي جاءت تحمله الملائكة في اللقاء التاريخي بين طالوت وجالوت.

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

ومنذ تلك اللحظة بدأت مسئولية تلك الآثار وقفًا على من يجدها من رسل الله، فوجدها داوود، وانتقلت إلى سليمان كمنسأة، فانتهى ذلك الأثر الأول عند موت سليمان عندما أكلت دابة الأرض منسأته، وكان القميص هو الأثر الأخير الذي بقي في التابوت الذي استقر في بيت عمران، فكان هو ذاته (نحن نفتري القول) اللباس الذي ألبسته مريم للمسيح عند ولادته، وارتفع بعد ذلك إلى الله عندما رفع المسيح إليه، فما تبقى من تلك الآثار شيئًا، فما وصل لمحمد من تلك الآثار شيئًا، فكان عيسى هو آخر من قفا الله به على آثار الرسل السابقين:

- ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦﴾ [المائدة: 46]

السؤال: من أين جاءت تلك الآثار؟ وكيف حصل عليها موسى بالذات؟ وماذا عن الفترة السابقة لموسى؟
رأينا المفترى: نحن نرى بأنه للإجابة على هذا التساؤل لابد أن نجلب الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: 125]

ليكون السؤال هو: كيف نفهم أن الله قد اتخذ إبراهيم خليلًا؟
رأينا المفترى: نحن ننفي جملةً وتفصيلًا أن يكون الخليل هو الصاحب أو الصديق أو الرفيق كما تعلمنا في الزمن الغابر من عند سادتنا أهل العلم، وذلك لسبب بسيط وهو أن أبسط معاني الخليل هو العدو، فالأخلاء هم أعداء في الأصل، ويستثنى من ذلك المتقون فقط:

- ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: 67]

نتيجة مفتراة من عن أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الأصل في العلاقة بين الأخلاء هي العداوة، فأنا إن اتخذتك خليلًا، فلا بد أن تنشأ بيننا عداوة.

- ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفرقان: 28]

ولا يستثنى من ذلك إلا أن نكون من المتقين:

- ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: 67]

فهم لن يتحذوا محمدًا خليلًا إلا أن يركن إليهم قليلًا، ولا شك عندنا أن هؤلاء الذين كانوا يطمعون أن يتخذوا محمدا خليلًا لم يكونوا من المتقين:
وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (73)

- ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ [الإسراء: 73]

ولو فعلا افترى محمد على الله غير الذي أوحى إليه، لأصبح خليلا لهم، ولنشبت العداوة – لا محالة - بينهم في يوم القيامة، ولكانت حسرة محمد حينئذ كبيرة لو أنه فعلا أركن إليهم شيئا قليلا، انظر تكملة السياق القرآني ذاته:

- ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: 73-74]

إن ما نجهد أنفسنا لتأطيره هنا هو الافتراء الذي هو – لا شك- من عند أنفسنا ومفاده أن العداوة هي أساس العلاقة بين الأخلاء، وأن هذه العداوة لا محالة ناشبة بين الطرفين إلا إن كانا من المتقين. وبهذا الفهم المفترى نعيد طرح السؤال ذاته وهو: ما معنى مفردة الأخلاء؟ أو من هو الخليل؟ ومتى يمكن أن أنعت فلانًا بأنه خليلًا؟ ولم ستنشب العداوة - لا محالة - بين الأخلاء إن لم يكونا من المتقين؟ فمن هو إذا الخليل؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن العداوة - لا محالة- ناشبة بين الأخلاء وذلك لسبب بسيط وهو: تضارب المصالح. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: مهما كانت طبيعة العلاقة بينك وبين الشخص المقابل لك (سواء كان قريبًا أو صديقًا أو صاحبًا أو عدوًا) سيكون لك خليلًا عندما تتضارب مصلحتك مع مصلحته، وعندها ستتخلى عنه مهما كان الرابط بينكما، وذلك لأن المنفعة الشخصية تصبح حينئذ مقدمة على رابطة العلاقة الشخصية بينكما. ويستحيل أن يحصل ذلك إلا إن وجد هذا الشخص منفعة عظيمة في التخلي عنك، ولا يمكن أن تتخذه عدوا إلا لأنه (نحن نظن) قد أفقدك شيئا ثمينًا أكثر أهمية بالنسبة لك من علاقتك به. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: تخيل عزيزي القارئ – إن شئت- بأن لديك شيئًا ثمينًا جدًا، وعهدت بهذا الشيء إلى شخص آخر (حتى وإن كان ابنك أو زوجتك أو والدك أو صاحبك أو زميلك في العمل أو جارك في السكن أو شخصًا غريبًا عليك عرفته للتو)، كأن تكون بحاجة أن تودع عنده مقدارًا من المال كبيرًا جدًا، وتخيل أن هذا الشخص قد أنكرك حقك في هذا المال عندما طلبته منه، فماذا ستكون ردة فعلك تجاه هذا الشخص؟ ألن تتخذه عدوًا؟ ألن تحصل العداوة بينكما مهما كانت طبيعة علاقتك به؟ ألن تقول بملء فيك:

- ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾ [الفرقان: 28]

تخيل عزيزي القارئ مرة أخرى – إن شئت- أنك أنشأت تجارة مع شخص آخر، وعهدت إليه بتلك التجارة لظنك فيه حُسنًا، ثم وجدت بعد ذلك أنه قد غدر بك، فأكل مالك ظلمًا وزورًا، ألن تكون ردة فعلك حسرة على اتخاذه خليلًا؟ ألن تلقي باللائمة على نفسك أنك قد اتخذته أصلًا خليلًا؟

- ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨﴾ [الفرقان: 28]

السؤال: متى تنتفي العداوة بين الأخلاء؟
جواب مفترى: متى كانا من المتقين:

- ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: 67]

نعم. لا يمكن إلا أن تحصل العداوة بين الأخلاء إلا بشرط واحد وهو أن يكونا من المتقين. فمتى من الممكن أن يعيد لك من استأمنته على مال كثير جدًا ذلك المال غير منقوص منه شيئًا؟
جواب: إن كان من المتقين.
السؤال: ومتى يمكن لمن شاركته التجارة أن يعطيك حقك كاملا غير منقوص؟
جواب: إن كان من المتقين.

نتيجة مفتراة: الخليل هو كل من استأمنته على شيء ثمين، فإن كان من المتقين أعاده لك كاملًا غير منقوص. وبالمقابل، فإن لم يكن من المتقين، فالعداوة بينكما لا محالة ناشبة.

- ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: 67]

وسيكون التمني، لا بل والحسرة على سوء القرار هو ما يلهج به لسانك:

- ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨﴾ [الفرقان: 28]

السؤال المحوري: كيف نفهم أن الله قد اتخذ إبراهيم خليلًا؟

- ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ۝١٢٥﴾ [النساء: 125]

نعم. الله لا يحتاج (نحن نفتري القول) إلى اتخاذ صاحب أو صديق أو ...، لكنه اتخذ إبراهيم على وجه التحديد خليلًا، فهو لم يتخذ نوحًا أو موسى أو عيسى أو حتى محمدًا خليلًا، لكنه اتخذ إبراهيم فقط خليلًا، ونحن نؤمن يقينًا بأن إبراهيم كان من المتقين، لهذا لم تنشب بينه وبين ربه عداوة، لكن بالمقابل كانت العداوة الإلهية ناشبة مع شخصين اثنين لا ثالث لهما، وهما:

1- أب إبراهيم:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ۝١١٤﴾ [التوبة: 114]

2- فرعون:

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: 39]

السؤال: لماذا؟
وسنرى لاحقًا بإذن الله لم كان هذان الشخصان هما عدوا الله على وجه التحديد.

دعاء: فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدًا، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، إنه هو السميع البصير.

جواب مفترى: نحن نظن أن العداوة بين طرفين لا يمكن أن تنشب إلا أن يكون أحد الطرفين قد أخلف الوعد، ومادام أن الله لا يحلف الوعد:

- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: 47]

فإن احتمالية إخلاف الوعد تقع على عاتق الطرف الثاني إلا إن كان من المتقين كإبراهيم مثلًا.

السؤال: لماذا إذًا اتخذ الله إبراهيم خليلًا؟ وكيف تم ذلك؟

جواب مفترى: لو دققنا في مفردة الأخلاء، لوجدنا على الفور بأن لها علاقة بمفردة الخلة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: 254]

ليكون السؤال: ما هي الخُلة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الخلة هي ما يمكن أن أضعه في عهدتك لفترة من الزمن واطلبه منك عند حاجتي إليه. فأنا إن وضعت عندك مبلغًا من المال، فأكون بذلك قد استأمنتك عليه، فتكون أنت المؤتمن، ويكون المال الذي وضعته عندك هو بحد ذاته "خُلة"، وأكون أنا - بالكلمات الدارجة- قد "خليت عندك" هذا المال لهدف ما لفترة من الزمن، وتقع على عاتقك مسئولية أن تعيد تلك "الخلة" لي إن أنا طلبتها منك. فأكون بذلك قد اتخذتك خليلًا، ويكون المال هو الخُلة. ولا شك عندنا أنك لن تعيد لي تلك "الخُلة" إلا أن تكون من المتقين، وفي هذه الحالة فقط لن تنشب العداوة بيننا، لكن - بالمقابل- إن أنت أنكرت ذلك، ورفضت أن تعيد لي "ما خليته عندك"، فإن العداوة لا محالة ناشبة بيننا، وسأتحسر حينئذ (قائلًا يا ويلتي) على اتخاذك خليلًا من الأساس.

السؤال: ما الذي عهده الله "خُلة" عند إبراهيم، فكان إبراهيم خليلًا؟

جواب مفترى: إنها تلك الآثار العظيمة: العصا واللباس

السؤال: كيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: حصلت معصية آدم ربه في الجنة الأولى (جنة المأوى) التي عندها سدرة المنتهى. وهناك كانت الشجرة التي حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب منها.

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: 19]

وهناك حصلت فتنة الشيطان لآدم وزوجه، فأوقعهما في شراكه، فأكلا من الشجرة، فنزع عنهما لباسهما:

- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

فكانت النتيجة على نحو أن يهبطا من الجنة بقرار إلهي، فكان الهبوط منها لهم جميعا:

- ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]

السؤال: كيف حصل الهبوط حينئذ؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه ما أن نزع الشيطان عن آدم وزوجه لباسهما حتى حصل لهما العري:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: 118]

فكان هبوط آدم وزوجه من تلك الجنة على تلك الشاكلة (العري)، فكان ما وري عنهما من سوءاتهما قد بدا لهما حينئذ:

- ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

لنصل إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن آدم وزوجه قد هبطا من الجنة تاركين اللباس الذي كان يغطي ما وري عنهما من سوءاتهما ورائهما في المكان ذاته الذي هبطا منه، أي في جنة المأوى ذاتها التي هي أصلًا عند سدرة المنتهى.

السؤال: أين ترك آدم وزوجه العصا واللباس عندما هبطا من الجنة؟

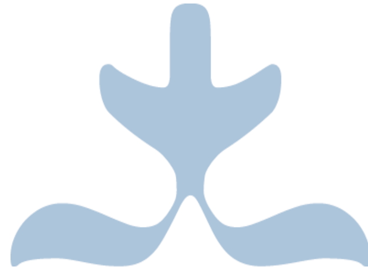
رأينا المفترى: هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذه المقالة إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها.

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه فيها لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانًا نصيرًا، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم.

المدكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & محمد معتصم المقداد

بقلم: د. رشيد الجراح

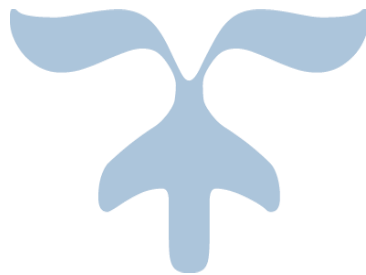
7 أيلول 2019



الجزء السادس

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء السادس: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

انتهينا في الجزء السابق من هذا الكتاب عند طرح التساؤل التالي: أين ترك آدم وزوجه العصا واللباس عند هبوطهما من الجنة الأولى إلى الواد غير ذي الزرع؟

وقد كان هذا السؤال نتيجة النقاش الذي نقلنا حينها للحديث عن السبب الذي دفع امرأة عمران أن تنذر لربها ما في بطنها محررا:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]

وكانت الافتراءات التي سطرناها هناك حول هذه القضية على النحو التالي:

- كان سبب قرار امرأت عمران أن تنذر ما في بطنها محررا هو عثورها المفاجئ على التابوت الذي كان موجودا في بيتها بعد وفاة بعلها عمران.
- وجدت امرأت عمران بقية الآثار التي كانت في ذلك التابوت وهو اللباس (لباس آدم وزوجه الذي نزعه الشيطان عنهما عندما فتنهما بالحياة الدنيا).
- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]
- عمدت امرأت عمران إلى إلباس المولودة لها (مريم) جزءا من ذلك اللباس، فكان ذلك هو القبول الإلهي لها.
- كان ذلك اللباس هو – برأينا- سبب أن أنبتها الله نباتا حسنا.
- بقيت مريم مطهرة (لا تحيض) مادامت لابسة لذلك اللباس.
- أصبحت مريم (بلباسها ذاك) مؤهلة لأن ينفخ في فرجها مادامت أنها قد أحصنته:
- ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]
- ما أن وضعت مريم الغلام الزكي (عيسى) حتى ألبسته اللباس كله الذي كان في التابوت. (وهذا ما سنناقش تفاصيله بإذن الله بعد قليل).
- ظل عيسى يلبس ذلك اللباس إلى أن رفعه الله إليه.
- ما كانت الجن تستطيع الاقتراب من المسيح لأنه لابسا لباس التقوى، وسنتحدث عن هذا لاحقا بحول الله عندما نتعرض للآية الكريمة التالية:
- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾ [الأحقاف: 29-30]

فنحن نظن أن الجن كانوا يستطيعون الاقتراب من موسى كما يستطيعون الاقتراب من محمد لسماع ما أنزل إليهم من الكتاب، لكنهم لا يستطيعون الاقتراب من عيسى بفعل لباس التقوى الذي كان يقي المسيح من خطرهم.

- ما أن رفع الله عيسى إليه حتى كان ذلك نهاية الآثار التي خلاها الله مع إبراهيم:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: 87]

• ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: 46]

• ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: 27]

- كان إبراهيم هو من اتخذه الله خليلا، عندما أودع ذلك الإرث العظيم (العصا واللباس في التابوت) عنده:

• ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: 125]

- الخ

وسنتابع الحديث في هذه الافتراءات بشيء من التفصيل، كما سنتجرأ – كالعادة- على تقديم افتراءات أخرى جديدة (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) في الصفحات القادمة. لكن من أجل تركيز النقاش، دعنا نعيد الأسئلة التي طرحناها هناك حول قصة خلق عيسى وهي على النحو التالي:

- لماذا حصلت القصة في ذلك الوقت من الزمن في تاريخ البشرية؟
- لماذا حصلت مع امرأت عمران على وجه التحديد؟
- هل كان من الممكن أن تحصل مع امرأة أخرى غير امرأت عمران؟
- لماذا نذرت امرأت عمران ما في بطنها؟
- ما الذي دفع امرأت عمران أن تنذر ما في بطنها؟
- لماذا تقبل الله منها؟
- لماذا كان ما انجبته امرأت عمران أنثى؟
- هل كانت مريم أنثى كنساء العالمين؟
- ما المختلف عند مريم الذي جعل الله يتقبلها؟
- ما الذي جعل مريم مؤهلة لأن ينفخ الروح في فرجها؟

- لماذا كان لمريم ذرية؟ فهل للنساء أصلا ذرية؟
- الخ.

أما بعد،

لقد كان الافتراء الأخطر الذي تجرأنا عليه في الجزء السابق هو أن ذلك اللباس (الذي عثرت عليه امرأت عمران في التابوت) هو الذي جعل مريم (نحن نظن) مؤهلة لاستقبال النفخ من روح الله (روحنا). فمادام أن مريم قد أحصنت فرجها (نحن نظن) بذلك اللباس، فلا يمكن لبشر أن يمسها (بالجماع)، لكن يمكن أن ينفخ فيها نفخا، فجاءها الروح إلى الحجاب (مكان نوم الأنثى)، فتم النفخ في فرج مريم المحصن من قبل رسول ربها (روحنا)، فتم الحمل، وحصل الإنجاب بطريقة النفخ وليس بطريقة المس. وهذه هي (نحن ما زلنا نتخيل) الطريقة التي كانت متاحة أمام آدم وزوجه قبل ارتكاب المعصية. فكان لباسهما حينئذ هو لباس التقوى الذي كان يواري سوءاتهما، وكان من المفترض أن ينفخ آدم في فرج زوجته المحصن، فتكون له الذرية (خلافة). ومادام أن الذرية ستكون خلافة، فلن يكون هناك أنساب بينهم، بالضبط كما ستكون عليه حال البشرية بعد النفخ في الصور:

- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: 101]

وقبل الخوض في تفاصيل هذا الافتراء، نجد لزاما أن نسطر بعض الافتراءات الخاصة بإحصان الفرج كما جاء في الآيات الكريمة التي تبيّن لنا حقيقة مريم أبنت عمران نفسها، قال تعالى:

- ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91]
- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]

فهاتان الآيتان الكريمتان تبينان لنا (كما نفهمها طبعا) بأن مريم ابنت عمران (من بين نساء العالمين) هي فقط من أحصنت فرجها. ونحن نتجرأ على الظن أن ليس هناك من نساء العالمين من هي محصنة فرجها غير مريم ابنت عمران.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات القرآنية على مساحة النص القرآني، لوجدنا بأن النساء هن أصلا محصنات مادام العلاقة الجنسية الفعلية لم تقع عليهن بعد:

- ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٤ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ

فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ [النساء: 24-25]

- ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: 5]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: 4]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [النور: 23]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن هناك فرق جوهري بين المحصنة (كنساء العالمين) من جهة والمحصنة فرجها (كمريم فقط) من جهة أخرى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأنيا المفترى: تحدثنا عن الإحصان في مقالات سابقة لنا، وافترينا الظن حينها بأن الإحصان هو ما يشبه خط الدفاع الذي يضرب حول القرى ليحصنها من الأعداء:

- ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: 14]

فتحصين القرى هو عملية وقائية حتى لا يخترقها الأعداء. وكذلك هي الأنثى المحصنة، فهي الأنثى التي لازالت عصيّة على الاختراق، فما دخلت في خلوة مع رجل ليفك إحصانها.

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة).

إن ما يهمنا طرحه هنا هو الحديث عن عملية "إحصان الفرج" على وجه التحديد. فكيف يكون الفرج محصنا (كما حصل مع مريم على وجه التحديد)؟

رأينا المفترى: بالرغم أن المرأة تكون محصنة على كليتها حتى يتم فك هذا الإحصان عنها بالنكاح (عقد الزواج)، فإحصان الفرج يعني – برأينا- استحالة وقوع المس على تلك المرأة. فمن كانت محصنة من النساء، وتم الدخول بها، فإنها تصبح غير محصنة بالرغم أنها تبقى "حافظة لفرجها". قال تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾ [المؤمنون: 5]
- ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: 30]

- ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: 31]
- ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: 35]
- ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المعارج: 29-30]

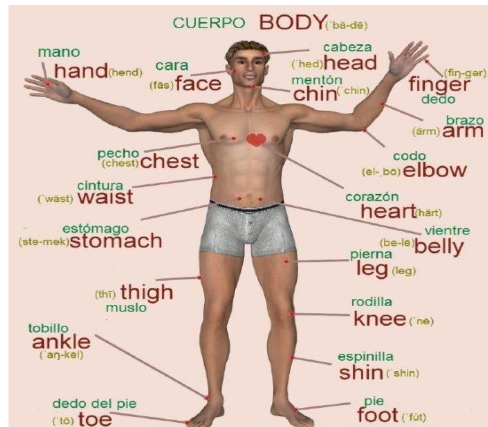
نتيجة مفتراة: علينا إذا أن نميز بين حفظ الفرج من جهة وإحصان الفرج من جهة أخرى، فالرجل المتزوج هو حافظ لفرجه، والمرأة المتزوجة هي حافظة لفرجها على الرغم أن كلاهما غير محصن لفرجه، فحصول العلاقة الجنسية بين الرجل وزوجه يؤدي – لا محالة - إلى فك الإحصان، لكنه لا ينفي أن ان تبقى الفروج محفوظة. انتهى.

السؤال: ما الذي يختلف في مريم؟

رأينا المفترى: نحن لا نستطيع أن نصف مريم بأنها حافظة لفرجها، لأن ذلك لا يمنع من القول حينها بأن فرجها قد انفكت حصانته. ويكأننا نتهمها (زورا وبهتانا) بأن رجلا قد تزوج منها بالطريقة الشرعية، ففك إحصان فرجها بالرغم أنها بقيت تحفظ فرجها كأمي وأمك وبقية نساء العالمين. لذا علينا أن نصف فرج مريم بالإحصان وليس بالحفظ. انتهى.

السؤال: ما معنى أن مريم قد أحصنت فرجها؟

رأينا المفترى: لو دققنا في مفردة الفرج، لربما حق لنا أن نفتري الظن بأن الفرج يشمل المنطقة التي تبدأ من الحوض حيث تلتقي الرجل اليمنى بالرجل اليسرى، وتنتهي مع نهاية أطراف أصابع الرجلين كما في الشكل التوضيحي التالي:



السؤال: لماذا تسمى هذه المنطقة كلها بالفرج؟

رأينا المفترى: لأنها المنطقة الوحيدة التي يمكن أن تفرج. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لتبسيط الصورة إلى الأذهان، دعنا نحاول تقريب الفكرة باستخدام فكرة الفرجار (calippers) الذي يستخدم في الرسم الهندسي كما في الشكل التوضيحي التالي:



فالمدقق بهذه الأداة الهندسية، سيجد أنها تشبه بالضبط فرج الشخص (ذكرا كان أم أنثى)، فكلا رجلي الفرجار مربوطتان بالأعلى بنقطة ثابتة، ويتجمعان هناك في شكل يشبه منطقة الحوض (انظر الصورة من طرفها الأعلى). لكن الرجلين قابلتان للفتح والضم على طول الزاوية، حتى يمكن أن تصل إلى زاوية مفتوحة تماما (180°) كما تفعل لاعبات السيرك والرياضة البدنية المرنة. ويمكن أن تغلق تماما. ويكون التفرج بين هذه الحدين، فتتسع الزاوية وتضيق بمقدار ما يفرج بين الرجلين.

وعند ربط هذا بفرج المرأة، فإننا نتجرأ على القول بأنه لا يمكن أن تحدث العملية الجنسية الكاملة بالمس إلا بالتفريج بين رجلي الأنثى، وبالتالي يستطيع الرجل إيلاج عضوه الذكري في فرج زوجه. فكل نساء العالمين يفك إحصانهن بهذه الطريقة، لكن بالرغم من ذلك تبقى محافظة على فرجها مادامت العلاقة شرعية:

- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٣٠﴾ [المعارج: 29-30]

أما مريم، فهي الوحيدة من بين جميع نساء العالمين التي لم يفك إحصان فرجها. لذا، حملت المسيح دون أن يتم التفريق بين رجليها، لفك حصانة فرجها. انتهى.

السؤال: كيف تم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن مريم ابنت عمران قد كانت محصنة لفرجها بذلك اللباس الذي ألبسته إياها أمها يوم أن وضعتها، وهو السبب الذي من أجله (نحن نرى) تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا. وبكلمات أخرى، لقد أصبحت مريم مؤهلة لأن ينفخ في فرجها نفخا، فتحمل دون أن يفك حصانة فرجها.

وهذا (بالضبط ما نتخيله) ما كان ممكن الحدوث في حالة آدم وزوجه عندما كانا يسكنان الجنة، ويلبسان لباس التقوى. فلو ظل آدم وزوجه يلبسان ذلك اللباس، ولو لم ينزع الشيطان عنهما ذلك اللباس، لتم التكاثر بتلك الطريقة (النفخ في الفرج دون فض إحصانه). انتهى.

لكن، عندما آثر آدم أن ينزل عند نصيحة الشيطان، خسر هو وزوجه ذلك اللباس (لباس التقوى) لأن الشيطان نزعه عنهما:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

وبخسارة ذلك اللباس، خسر آدم وزوجه تلك الطاقة التي كانت موجودة في لباسهما، والتي كانت ستمكنهما حينئذ من إجراء عملية النفخ بنجاح. ونحن نتجرأ على افتراء الظن بأن تلكؤ زوج آدم عن النزول عند نصيحة الشيطان كان مدفوعا برغبتها في عدم خسارة ذلك اللباس الذي كان يظهرها كملك كريم، وهو ما كانت امرأة العزيز (ونسوة المدينة) يراودن يوسف عن نفسه من أجله. (وسنحاول التفصيل في ذلك لاحقا بإذن الله).

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما خسر آدم ذلك اللباس، لم يتبقى لآدم طاقة على التزاوج بالنفخ، ولم يتبقى لزوجه القدرة على استقبال النفخ (كما حصل مثلا مع مريم). لكن بقيت في آدم الطاقة الكامنة في عضوه الذكري، فأصبح لزاما عليه أن يمس زوجه التي خلقت من نفسه (أي التزاوج بالتناكح الآن)، فكانت تلك هي خطيئته الأزلية (بمفردات أهل الديانات السماوية). وانقلب التزاوج (الجميل) إلى تناكح (معيب) ما زلنا نحن ذرية آدم نقوم به كما قام به آدم أول مرة. وأصبح ملكا (بالنسب) بدلا من خلافة (بالوراثة). انتهى.

تخيلات أغرب من الخيال نفسه: عندما نزع الشيطان عن آدم وزوجه لباسهما، بعد النصيحة لهما من الشيطان، كان المكان المتوفر لأن يضعا لباسهما فيه (بالإضافة إلى عصا الخلافة) هو ذلك التابوت. وما أن هبط آدم وزوجه وجميع من في الجنة من ذلك المكان حتى ظل التابوت هناك يحتوي تلك المقتنيات من الآثار الإلهية العظيمة.

ما بعد الهبوط: بداية الحياة الإنسانية على الأرض في مكة

بدأ آدم وزوجه حياتهما على الأرض بعد الهبوط في الواد غير ذي الزرع، فكانت سوءاتهما قد بدت لهما، وحصل المس بينهما للمرة الأولى في ذاك الواد في منطقة منى، وهناك حصل التزاوج بالمس بين آدم وزوجه، فكان لابد من أن تنكشف سوءاتهما لبعضهم البعض بالرغم أنهما من نفس واحدة. وسال مني الرجل (آدم) في رحم زوجه لأول مرة في منطقة منى. فكان أول نكاح محارم يقع على الأرض. وكانت النتيجة إنجاب الذرية لهما (ابني آدم) بطريقة المس. (وهذا ما سنناقشه لاحقا بإذن الله).

ظل التابوت (تابوت العهد القديم) في الواد المقدس طوى في مكان جنة آدم الأولى (جنة المأوى) قريبا من جانب الطور الأيمن في البقعة المباركة من الجنة حتى زمن إبراهيم. فكان إبراهيم هو أول من وصلت يداه إلى ذلك التابوت ومقتنياته، فاتخذ الله إبراهيم خليلا، عندما عمد الله بذلك الإرث العظيم كأمانة عند إبراهيم، لكن على شكل خُلة. ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بين الخُلة والأمانة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الخُلة والأمانة متشابهتان في شيء، ومختلفتان في شيء آخر. أما وجه التشابه بينهما هو أن كلاهما – برأينا- عبارة عن ما يشبه الوديعة التي يستودعها طرف عند طرف آخر لظروف وأهداف مختلفة. فأنا قد أترك سيارتي عندك كخُلة، وقد أتركها عندك كأمانة، لكن الاختلاف بين الحالتين يكمن في إمكانية الطرف الآخر على استخدام ما ترك عنده الطرف الأول. فإن أنا تركت عندك سيارتي كخُلة، فأنت تستطيع أن تستخدمها وتستفيد منها، لأني أكون بذلك قد آذنتك على استخدامها، وبالمفردات العامية الصحيحة أكون أنا قد "خليتها عندك"، أي "خليتك تستخدمها". أما إن كنت قد تركت عندك سيارتي كأمانة، فأنت لا تستطيع أن تستخدمها إلا في حدود ما يحسّنها ولا يعيبها، لأنك ملزم أن تراعي الأمانة، وعليك أن تعيدها لي كما عهدتها عندك أول مرة دون تغيير على حالتها. قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء: 58]
- ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة: 283]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: 27]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨﴾ [المؤمنون: 8]
- ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: 72]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾ [المعارج: 32]

السؤال: ما علاقة هذا بالخلة التي تركها الله بين يدي إبراهيم؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما عثر إبراهيم على ذلك التابوت بما فيه من الآثار العظيمة (وسنتحدث عن ذلك لاحقا بإذن الله)، ترك الله عنده تلك المقتنيات كخُلة، فكان الله هو من اتخذ إبراهيم خليلا:

- ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء: 125]

وكان على إبراهيم (نحن نفتري الظن) أن يستخدم تلك الخلة (الآثار) بالأمر الإلهي مادام أنه من المتقين. ولو استخدمها بغير الأمر الإلهي (أي بالأمر الشيطاني) لما كان من المتقين، ولكان حينئذ عدوا لله:

- ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف: 67]

ظلت تلك المقتنيات في بيت إبراهيم يتم تناقلها وراثة، فظهر منها القميص في قصة يوسف، فكان ذلك لباس آدم، لكن لم يتم استخدام لباس زوج آدم، لأن ذلك لباس الأنثى (الزوج). ومادام أن يوسف كان ذكرا، فقد لبس فقط قميصا واحدا. ولم تُستخدم العصا والقميص الآخر، وظلت كل المقتنيات في بيت يوسف في مصر.

ولما هلك يوسف في أرض مصر، ظن أهل العلم من بني إسرائيل أن الله لن يبعث من بعد يوسف رسولا:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]

السؤال: ما الذي دفع هؤلاء العلماء (وكثير من العامة) من بني إسرائيل على الظن بأن الله لن يبعث رسولا من بعد يوسف؟

رأينا المفترى: نحن نتجرأ على القول بأن ظن القوم ذاك كان مدفوعا بهلاك يوسف، وهذا يعني – كما ذكرنا في مقالات سابقة لنا- بأن يوسف لم ينجب ذرية، فالهالك هو من لا ولد له:

- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: 176]

ومادام أن ذرية النبوة بعضها من بعض:

- ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 33-34]

كان ظنُّ القوم بأن هلاك يوسف هو نهاية خط تلك الذرية الطيبة. فيكون السؤال الآن هو: كيف استمرت تلك الذرية الطيبة بعد هلاك يوسف؟

رأينا المفترى: لو دققنا فيما قاله يعقوب ليوسف في تفسيره لرؤيا يوسف كما جاء في النص القرآني:

- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

لوجدنا بأن تمام النعمة لن تتوقف بهلاك يوسف، فهذا يعقوب يدرك مسبقا بأن يوسف سيهلك ولن يكون له ذرية، بدليل أن النعمة ستتم عليه شخصيا "وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ" "وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ". فيوسف – حسب كلام يعقوب- لن يكون له آل كما كان لإبراهيم ويعقوب (آل إبراهيم وآل يعقوب) من قبله، أو كما كان مثلا لموسى وهارون من بعده (آل موسى وآل هارون).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: في حين أن يوسف سيهلك ولن يكون له ولد، استمر خط النبوة (الذرية) في آل يعقوب، ولم يكن هناك آل ليوسف.

وربما يرد المجادل بالقول بأن يوسف نفسه من آل يعقوب، فلا داع أن يكون له آل لنفسه. أليس كذلك؟

رأينا المفترى: إن صح منطق المجادل لنا هذا، فلِم كان هناك آل يعقوب أصلا مادام أن جميعهم هم آل إبراهيم؟ أليس يعقوب من سلالة إبراهيم نفسه؟ أليس إبراهيم – بمفرداتنا الدارجة- هو جد يعقوب؟ فلم يكون للجد (إبراهيم) آل وللحفيد (يعقوب آل)؟ ما علينا!

السؤال: من الذي يستطيع أن يستخدم تلك الآثار العظيمة؟

رأينا المفترى: ظل استخدام تلك "الخلة" (الآثار العظيمة) وراثة في تلك العائلة المباركة، لكنه توقف (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) بعد هلاك يوسف. وما هي إلا فترة زمنية قصيرة نسبيا حتى حصل الانقلاب الفرعوني على الحكم الملكي الذي كان فيه بنو إسرائيل في أرض مصر من أعمدته الرئيسية:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ٢٠﴾ [المائدة: 20]

فانتهت تلك الآثار بعد ذلك الانقلاب الكبير إلى القصر الفرعوني. فما عادت وراثة، وأصبحت وقفا. انتهى.

ما أن أصبحت وقفا حتى أصبحت ملكا لمن يحوز عليها، فكان موسى هو أول من حاز على العصا من القصر الفرعوني (بمساعدة امرأت فرعون)، وعادت العصا إلى سيرتها الأولى عندما ألقاها موسى في النار في الواد المقدس طوى في لقائه الأول مع ربه:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ٢١﴾ [طه: 17-21]

بعد خروج بني إسرائيل من مصر، وبعد أن جاوز الله بهم البحر، ترك موسى أخاه هارون خليفة له في قومه بناء على ميعاد ربه له شخصيا:

- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

فموسى ذهب متعجلا للقاء ربه من جديد، لكن هذه المرة عند جبل النور (عرفات). فترك العصا في عهدة هارون الذي (نحن نتخيل) وضعها في التابوت (الذي كان معهم)، وحينها وقع بصر السامري عليها، فقبض قبضة من العصا، فعمل بها ما سولت له نفسه. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار:

- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ٨٨﴾ [طه: 88]

فاتخذ القوم من ذلك العجل إلها حتى سقط في أيديهم بعد رجوع موسى إليهم:

- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: 148-149]

ما أن قبض السامري قبضة من تلك العصا حتى أصبحت منسأة (أي العصا بدون الرأس المدبب لها الذي بحجم قبضة اليد)، ولم تظهر من جديد إلا في التابوت ذاته الذي ظهر من جديد لكن كآية على ملك طالوت هذه المرة:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

(وسنتحدث عن هذا سر ظهور التابوت واختفائه في مقالات لاحقة بإذن الله)

دعاء: فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم، إنه هو العليم الحكيم.

فاستخدم داوود (الذي لازالا شابا صغيرا) تلك المنسأة التي عثر عليها في التابوت، فقتل بها جالوت (الطاغية الذي عجز طالوت نفسه عن قتله)، وآتاه الله الملك:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

فكان داوود (ابن لقمان) هو الخليفة:

- ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: 26]

وانتقلت المنسأة بعد موت داوود (نحن ما زلنا نتخيل) إلى سليمان، فكان يستخدمها لعذاب من يزغ عن أمره من الجن:

- ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ: 12]

وما أن قضى الموت على سليمان حتى أكلت دابة الأرض منسأته:

- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: 14]

تلخيص ما سبق: بناء على هذا الطرح المفترى من عند أنفسنا، نستطيع الظن بأن الآثار الإلهية العظيمة (العصا واللباس) قد تم تناقلها بالوراثة في بيت إبراهيم حتى هلاك يوسف. لكن ما أن هلك يوسف وحصل الانقلاب الفرعوني على العهد الملكي، حتى أصبحت تلك الآثار وقفا يتم تناقله في العائلات على النحو التالي: عائلة عمران الأولى (موسى) – عائلة لقمان (داوود وسليمان) – عائلة عمران الآخرة (مريم)

السؤال: إذا كانت العصا قد أكلتها دابة الأرض، فأين اللباس (لباس آدم وزوجه)؟

رأينا المفترى: في التابوت. انتهى.

السؤال: ماذا حلّ بذلك اللباس؟

رأينا المفترى: استمرت تلك الآثار في تابوت العهد القديم الذي كان وقفا في حوزة هذه العائلات. وبكلمات أخرى، نحن نفتري القول بأن التابوت كان وقفا في تلك العائلة الطيبة المميزة، وهي عائلة (...ـــان) التي بدأت بعمران الأول (موسى)، وتوسطها لقمان (داوود وسليمان)، وانتهت في بيت عمران الآخر (مريم). وكانت شخصيات هذه العائلة أقرب (في مخيلاتنا) إلى شخصيات سوبرمان وسبايدر مان وباتمان، الخ. أي الرجال القادرين على عمل الأعاجيب. ما كانت الأعاجيب تصنع على أيديهم إلا بفعل تلك الآثار العظيمة (انظر مقالاتنا تحت عنوان ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته).

السؤال: ماذا حلّ بمقتنيات التابوت من الآثار المتبقية (أي اللباس) في زمن عمران الآخر؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان عمران (والد مريم) يحتفظ بتلك المقتنيات لذريته في ذلك التابوت الذي لم يكن عمران ليظهره على أعين الناس من حوله، وتزوج الرجل (أي عمران) من امرأة هي "أم هارون"، ليكون هارون هذا الأخ غير الشقيق للإبن المتوقع (موسى الجديد) من ذرية عمران هذا، لتعود بذلك سيرة آل عمران القديمة (قصة موسى) في قصة آل عمران الجديدة (قصة مريم). وعندما تزوج عمران بأم هارون، حملت امرأت عمران هذه بمريم، ولم تكن تعلم ماهية ما في بطنها، لكنها كانت تتوقع أن يكون ذكرا، فتسميه موسى ليكون الأخ غير الشقيق لهارون، ولم تكن تتوقع أن يكون ما في بطنها أنثى، لذا كان استغرابها واضحا عندما وضعتها أنثى.

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 35-36]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: لماذا استغربت امرأة عمران أن يكون ما وضعت أنثى؟

رأينا المفترى: إن هذا السؤال يعيدنا مباشرة إلى فهم التركيبة العائلية لآل عمران. ليكون السؤال الذي لابد من طرحه ابتداء هو: من هم آل عمران؟

جواب مفترى: لو تفقدنا الآيات القرآنية على مساحة النص القرآني، لوجدنا بأن آل عمران هم سلالة ينتسبون لشخص واحد اسمه عمران. وقد جاء ذكره بصريح اللفظ مع قصة مريم، قال تعالى:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]

وأن مريم هذه كان لها أخ غير شقيق هو هارون:

- ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: 28]

ولو دققنا في قصة مريم، لوجدنا التطابق اللفظي واضحا بين هذه العائلة من جهة وعائلة موسى من قبل، ونحن نتجرأ على تقديم الافتراء الخطير جدا التالي: عائلة مريم (ابنت عمران) هي امتداد لعائلة موسى (ابن عمران). ومريم هي النسخة الأنثوية (أو لنقل الزوجية) لموسى. انتهى.

نتيجة مفتراة: هناك إذا عائلتان تحملان اسم آل عمران، وهما: (1) عائلة موسى القديمة و (2) عائلة مريم الأحدث زمنيا. وتركيب كل عائلة هو (كما نتخيله طبعا) على النحو التالي:

آل عمران الأول	آل عمران الآخر
- عمران الأب	- عمران الأب
- امرأة عمران (الأم)	- امرأة عمران (الأم)
- موسى	- مريم
- هارون (أخ موسى غير الشقيق)	- هارون (أخ مريم غير الشقيق)

فكما تزوجت امرأت عمران الأولى من رجلين (عمران وذي الكفل)، وانجبت من الأول موسى ومن الثاني هارون، تزوجت امرأت عمران الأخرى من رجلين، فأنجبت من الأول هارون وانجبت من الثاني مريم.

السؤال: من هو هارون أخ مريم؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن هارون هو أخ غير شقيق لمريم، وهو ابن رجل صالح من بني إسرائيل.

الدليل: لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية،

- ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾ [ص: 45-48]

لوجدنا الفصل واضحا بين مجموعتين من الأنبياء وهما:

- المجموعة الأولى: إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
- المجموعة الثانية: إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ

فهؤلاء (نحن نرى) هم خطين السلالة في بني إسرائيل. ففي حين أن السلالة الأولى "إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ" هي التي جاء منها موسى وهم من جاءت تسميتهم بآل يعقوب التي استمرت مع زكريا ويحيي (الذين عصرا مريم وابنها عيسى):

- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم: 6]

جاءت مريم من السلالة الأخرى: إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ، وهؤلاء هم خط سلالة الموالي الذين كان زكريا يخافهم من بعده:

- ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ [مريم: 5]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: في زمن ولادة مريم كان هناك سلالتان متنافستين من بني إسرائيل وهما:

- آل يعقوب وعميدهم زكريا وسيدهم يحيى.
- الموالي وعميدهم عمران وسيدهم اليسع.

ولو حاولنا إجراء مقابلة بين موسى (ابن عمران) من جهة ومريم (ابنت عمران) من جهة أخرى، لوجدنا أن كلاهما قد وقعت عليه كفالة. فهذه أخت موسى تدل آل فرعون على من يكفل موسى:

- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٖ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢﴾ [القصص: 11-12]

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًاۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]

فعاش موسى (وهو مولود للسلالة الأولى) مكفولا في بيت نبي الله ذي الكفل (والد هارون) من السلالة الثانية.
وهذه مريم تقع عليها كفالة زكريا:

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقٗاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 36-37]

فعاشت مريم (من السلالة الثانية) مكفولة في بيت زكريا من السلالة الأولى

نتيجة مفتراة: في حين أن ذو الكفل (من السلالة الثانية) هو من كفل موسى (من السلالة الأولى)، جاء زكريا (من السلالة الأولى) ليكفل مريم (من السلالة الثانية).

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري أن هذا من المكر الإلهي الذي لولاه لكانت حياة مريم كما كانت حياة موسى في خطر شديد.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: ربما لا نجد كثير عناء في تمرير فكرة الخطر الذي كان يتهدد حياة موسى الطفل في ذلك الوقت، فقد كان فرعون يستضعف طائفة من بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم:

- ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعٗا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: 3-4]

وتلك الطائفة هي الطائفة التي ولد فيها موسى، وكان عمران (والد موسى) هو من سيد تلك الطائفة بلا منازع. فلم يكن فرعون (على غير ما يظن الكثيرون) يذبح كل أبناء بني إسرائيل، وإلا لما تبقى لهم اثرا ليخرجهم موسى بعد ذلك من أرض مصر:

- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: 105]

ومن أجل الدقة في الأفكار، فقد حاولنا افتراء القول في أكثر من مكان في مقالاتنا السابقة بأن فرعون كان يقتل أبناء بيني إسرائيل (بالاستعباد):

- ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: 22]

ولكنه كان يذبح (بالموت) أبناء طائفة محددة منهم بعد أن جعل أهلها شيعا:

- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]

ولو دققنا في مفردة " يَسْتَضْعِفُ " يجد أن واحدة من معاني الضعف سببه نقصان العدد من الأقارب، فها هم القوم يتعللون بضعف شعيب فيهم:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: 91]

فما تبقى لشعيب من الأقارب من حوله إلا رهط (مجموعة قليلة)، فكان ضعيفا.
وقد كانت خطة فرعون هو استضعاف هذه الطائفة من بني إسرائيل على وجه التحديد، فكان يذبح أبناءهم ليكون الأضعف بين من حولهم من طوائف بني إسرائيل الأخرى. ففرعون كان هو من زرع الفتنة بين طوائف بني إسرائيل بعد أن جعلهم شيعا، فقرب بعضهم كقارون وطائفته:

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: 76]

واستضعف طائفة موسى. لكن المنّة الإلهية تحصلت على هذه الطائفة التي ولد فيها موسى ابن عمران، والتي كان فرعون يستضعفها على وجه التحديد. انظر – عزيزي القارئ – إن شئت- الآية السابقة في سياقها الأوسع:

- ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: 3-5]

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة)

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: حصلت المنة الإلهية على الطائفة المستضعفة من بني إسرائيل وهي السلالة الأولى التي ولد فيها موسى.

لكن ما يهمنا افتراءه هنا هو أن كفالة موسى في بيت ذي الكفل (من السلالة الثانية) كانت من المكر الإلهي للحفاظ على سلامة موسى من يد من كانوا يتربصون به السوء، سواء من فرعون وقومه أو حتى من الطوائف الأخرى من بني إسرائيل (كقارون ومن لف لفه).

وبالمثل، جاءت المنّة الإلهية في كفالة زكريا لمريم لتكون من المكر الإلهي للحفاظ على حياة مريم وذريتها (المسيح عيسى بن مريم) في الطفولة حتى تبليغ الرسالة في الكهولة. ليكون السؤال: كيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان علماء بني إسرائيل على علم بأن رسولا سيبعث فيهم، لكن لمّا كان بنو إسرائيل منحازين تماما لنظرية العرق (الطوائف)، كان ظنهم (لا بل أمنيتهم) أن يكون هذا الرسول من سلالة محددة وهي سلالة آل يعقوب، وهم من كانوا يظنون أنهم الأسياد. وكانت الطوائف الأخرى في نظرهم ليست أكثر من موالي لهم، ومنهم آل عمران. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت – في دعاء زكريا نفسه ربه.

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]

ولو جاء الرسول من سلالة الموالي، وعلم بذلك كثير من آل ليعقوب (الأسياد)، لما ترددوا (نحن نتخيل ربما مخطئين) في إنهاء حياته منذ طفولته، فكان المكر الإلهي بأن تولد مريم من ذرية الموالي (آل عمران) وأن يكفلها زكريا (سيد آل يعقوب)، وتكون هي من تلد الرسول الموعود (كلمة الله). فيتم ذلك في بيتهم رغما عنهم، كما تربى موسى في بيت من كفله من الطائفة الثانية رغما عن كثير من أهل طائفته وأن يتربى بين آل فرعون رغما عن فرعون نفسه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: كان القلق (نحن نتخيل) مستحكما على قلوب الأحبار من آل يعقوب (الأسياد) أن يكون لعمران هذا ذرية من الذكور، لأن ذلك يعني أن الرسالة ستكون في هذا المولود لهذا الرجل (أي عمران). لذا، لا استبعد احتمالية أن كثيرا منهم كانوا يخططون لأن يجهّزوا على حياة من يولد لعمران من الذكور في المهد. لكن، لما كان ما وضعت امرأت عمران هي أنثى، ساد الارتياح قلوب أولئك الأحبار من آل يعقوب المتربصين بعمران وذريته من الذكور، لعلمهم بأن الرسل لابد أن يكونوا من الناس (أي الذكور):

- ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج: 75]

وليس أدل على ذلك – برأينا- من رفضهم كفالة مريم جميعا، بمن فيهم زكريا نفسه. فلقد دبّ الخصام بينهم فيمن يكفلها:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٤﴾ [آل عمران: 44]

فهؤلاء القوم (على عكس ما روج له الفكر الشعبي) كانوا – نحن نفتري القول- كارهين مستعلين، حذرين من ذرية الموالي، لأن في ذلك خطر يتهددهم لو جاء الرسول الموعود منهم.

وهنا جاء الأمر الإلهي بأن يكون زكريا هو من يكفل هذه الطفلة:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]

وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في صيغة فعل الكفالة الوارد في الآية الكريمة ذاتها "وَكَفَّلَهَا". ودقق على وجود التشديد على حرف الفاء في الفعل، فزكريا (نحن نرى) لم يتبرع من نفسه ليكفل مريم وإلا لجاء اللفظ على نحو (وكفلها زكريا)، أي دون تشديد حرف الفاء. لكن لما كان القرار إلهيا، ما كان من نبي الله زكريا إلا أن يأتمر بالأمر الإلهي رغما عنه، فجاء اللفظ مشددا على حرف الفاء "وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا".

السؤال: لماذا كفّلها زكريا بالذات؟

رأينا: نحن نفتري الظن بأن زكريا هو الوحيد من آل يعقوب الذي كان سينزل عند المشيئة الإلهية بأن يبعث الله الرسول الموعود في غير آل يعقوب حتى وإن كان ذلك على غير ما يتمنى ويرغب. واحد تلك الأسباب التي تجعل زكريا يرضخ لهذا الأمر الإلهي (بالإضافة طبعا لوازعه الإيماني) هو أنه الوحيد بينهم الذي لا ذرية له. فأحبار بني إسرائيل كانت لهم ذرية، وكان كل واحد منهم (نحن نظن) يتمنى (لا بل يطمع) أن يكون الرسول الموعود في ذرية أحدهم. فالصراع بينهم ليس صراعا ماديا، وإنما صراعا على الإرث الإلهي العظيم. فبالرغم أن إخوة يوسف – مثلا- كانوا جميعا من سلالة النبوة المطهرة إلا أن هذا لم يمنعهم أن يكيدوا لمن آثره الله عليهم (أي أخوهم يوسف).

لذا، نحن نتجرأ على افتراء الظن بأنه لما كان زكريا هو الوحيد من آل يعقوب (الأسياد) الذي لا ذرية له حتى الساعة، جاء الأمر الإلهي له بأن يكفل مريم. فوجد زكريا نفسه أمام خيارين اثنين، وهما:

1. أن يغلب مصلحة طائفته ولا ينزل عند الأمر الإلهي، فيكون من الخاسرين في الآخرة.
2. أن يختار النزول عند الأمر الإلهي فيكون من الصالحين.

السؤال: ماذا كان قرار زكريا؟

رأينا المفترى: لما كان زكريا من الذين يسارعون في الخيرات ومن الذين يدعون ربهم رغبا ورهبا من الخاشعين:

- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90]

نزل عند الأمر الإلهي، ورضي بأن يكفل مريم (ذرية الموالي من آل عمران)

السؤال: لماذا فعل زكريا ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الوازع الإيماني عند زكريا كان هو محرك قراره ذاك، لكن هذا لم يمنع أن يستفيد زكريا من الموقف، بأن يهب الله له الذرية التي تحافظ على استمرارية هذه السلالة الطيبة (آل يعقوب). انتهى.

السؤال: كيف سيستفيد زكريا من كفالة مريم؟

رأينا المفترى: في أثناء فترة كفالة زكريا لمريم، رأى زكريا بأم عينه العناية الإلهية التي أحاطت بهذه الطفلة منذ يومها الأول حتى نبتت نباتا طيبا، وكيف جهزت لحمل كلمة الله. فهو من كان يرى من أين يأتي رزقها، وهو من كان يرى مريم دائمة التواجد في المحراب فلا تحيض ولا تستخدم الحمام، وهو من اطلع على السر الإلهي في اختيار مريم لتحمل كلمة الله (طبعا اللباس). فكان زكريا (سيد آل يعقوب) هو من عاشت مريم في كنفه، تحت بصره على الدوام. فكانت كفالة زكريا لها (نحن نفتري الظن) وقاية إلهية لمريم من مكر أحبار اليهود الحاسدين كثير من الناس على ما آتاهم الله من فضله:

- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء: 54-55]

السؤال: ما الذي فعله زكريا؟ ألم يكن يخاف الموالي (آل عمران) من بعده؟

جواب مفترى: بلى. وليس أدل على ذلك من قوله:

- ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]

السؤال: لِم إذا لَم يمكر بمريم؟

رأينا المفترى: لمّا كان زكريا من الصالحين، كان من الذين يأتمرون بالأمر الإلهي حتى ولو كان ذلك على غير ما تطيب له نفسه، لأنه لا شك من الصالحين:

- ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٥﴾ [الأنعام: 85]

لذا، نزل عند الحكمة الإلهية في أن يكون الرسول الموعود من الموالي (آل عمران)، لكنه استثمر ذلك للاستفادة من الكرم الإلهي، بطلب الذرية التي كانت تنقصة طوال فترة شبابه حتى وهن عظمه واشتعل الرأس شيبا:

- ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 1-6]

فما تردد أن ينادي ربه ألاّ يذره فردا:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

فكانت الاستجابة الإلهية لدعائه حاصلة في الحال:

- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

وهنا يبرز التساؤل التالي على الفور: لِم لَم يدعو زكريا ربه من ذي قبل؟ لم جاء دعاؤه ربه بعد أن رأى بأم عينه مريم تحمل كلمة الله؟

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 37-39]

رأينا المفترى: إن هذا التساؤل ينقلنا على الفور إلى قضية خطيرة جدا جدا وهي قضية استجابة الله لدعاء عباده. فيكون السؤال على الفور هو: كيف يتقبل الله دعاء عبد له مباشرة؟

رأينا المفترى: حاولنا في مقالتنا تحت عنوان "صلاة الاستسقاء" تسطير الخطوط العريضة لفقه الدعاء، ومن أراد الاطلاع على ذلك فيمكنه الرجوع إلى تلك المقالة التي سنتجرا (بناء على ما جاء فيها) على تقديم افتراءات أكثر خطورة في الصفحات التالية.

فقه الدعاء: متابعة الافتراءات

إن ما يهمنا إعادته هنا من الافتراءات المنثورة في تلك المقالة هو الافتراء التالي: لا تكمن مشكلة عدم استجابة الدعاء في المرسل إليه (الله) لأنه قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

ولا تكمن في الداع لأن الله قد استجاب لدعاء إبليس حتى بعد أن عصاه كإبليس مثلا:

- ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف: 14-15]

أو كالذين دعو الله، فاستجاب لهم، ثم نقضوا ما عاهدوا الله عليه:

- ﴿۞ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة: 75-76]

وإنما يمكن حلّ المشكلة (نحن نرى) في الرسالة ذاتها. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالدعاء على مساحة النص القرآني، لما وجدنا أن الله قد رد دعاء أحد من عباده (المؤمن منهم وغير المؤمن).

(للتفصيل انظر مقالات صلاة الاستسقاء)

لكن ما يهمنا طرحه هنا هما محورين اثنين للنقاش:

1. طريقة الدعاء من العبد
2. آلية استجاب الله لدعاء عباده

في محاولة منا لفهم هذين المحورين بشكل نظري بداية ثم بشكل تطبيقي على أرض الواقع بعد ذلك، سنركز على دعاء زكريا ربه بأن يهب له الذرية الطيبة كمثال توضيحي لهذين المحورين.

أما بعد،

دعنا ننطلق في بحثنا هذا من السؤال الافتراضي التالي: ماذا لو جاءت الاستجابة الإلهية فورية لكل ما ندعو به؟

منطقنا المفترى: ها هم الحضور في المسجد من يوم الجمعة يدعون الله (على لسان خطيبهم المفوّه) أن يخلصنا من حكامنا الظالمين في عالمنا الإسلامي (وخاصة العربي منه) المتردي، وها هم الدعاة على المنابر أنفسهم يدعون في ختام خطبهم العصماء لحكام بلادهم بالتثبيت والاستقرار (طبعا مش عشان المكافأة المادية التي سيتلقونها في نهاية الشهر)، فكيف تريدون الاستجابة الإلهية أن تكون؟ هل تكون لزوال هؤلاء الحكام (كما جاء في متن الخطبة) أم لتثبيتهم (كما جاء في خاتمتها)؟

وهذا صاحبنا (من أهل التراث) يدعو الله أن يخلصهم ممن هم من مثلي، وها أنا ادعو الله أن يخلصنا ممن هم مثلهم، فلمن سيستجيب الله؟ وماذا لو استجاب لنا الاثنين معا؟ يا حبيبي لو طلع هالحكي صحيح!!!

وربما يرغب البعض القول بأن الدعاء يجب ألاّ يكون على قطيعة (أي إلحاق الضرر بالآخرين)، فنرد عليه بالقول: وماذا فعل الرسل في نهاية دعوتهم أقوامهم؟ ألم يدعو عليهم بالعذاب؟ ألم ينزل العذاب على تلك الأقوام مباشرة بعد دعاء قومهم عليهم؟

نتيجة مفتراة: الدعاء غير مشروط، فيمكن أن يكون لجلب منفعة أو لإيقاع ضرر. انتهى.

- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: 60]

فحتى المنافقين يخادعون الله بالدعاء، فيستجيب الله لهم، لكنهم لا يعلمون بأن الله هو خادعهم عندما يستجيب لهم:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ..... ۝١٤٢﴾ [النساء: 142]

فاستجابة الله لدعاء المنافقين هو مكر إلهي لخداع هؤلاء، وإخراج اضغان قلوبهم:

- ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾ [محمد: 29]

نتيجة مفتراة: لابد إذًا من وجود آلية معينة لا ينتفي فيها العدل الإلهي في الاستجابة للدعاء، فماذا تكون تلك الآلية؟

جواب مفترى: إنه الدعاء الصحيح (بغض النظر عن فحواه). انتهى.

السؤال: وكيف يكون الدعاء الصحيح؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هناك طريقتين اثنتين لاستجابة دعاء (أي دعاء)، وهما:

1. اتباع سنن الله الكونية
2. معرفة الذكر

أما الطريقة الأولى (اتباع سنن الله الكونية)، فهذه هي الطريقة التي ربما يعرفها جميع الناس. فطلب المال مثلا يستدعي العمل بالطرق التي تجني لك ذلك المال، وطلب الشفاء من المرض تستدعي منك الذهاب للطبيب المختص وتلقي العلاج الصحيح، وهكذا. وهذه جميعها تتطلب سلوك السبيل الصحيح إلى تحقيق المراد. فلو أخذنا - على سبيل المثال – الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝٣٨ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: 38-39]

لوجدنا أن هناك المعاجزين في آيات الله، وهؤلاء هم – برأينا- من يتأجون بالقول "دع ربك ينزل علينا الآن مالا من السماء لأصدق بوجوده"، فنرد عليه بالقول: كيف سينزل الله هذا المال وأنت لم تتبع السنة الإلهية في جني المال؟ وقد يقول معاجز آخر "فلان مريض، فأدعو ربك بأن يشفيه في الحال لأصدق أنه موجود"، فنرد بالقول" وهل اتبعت سنن الله الكونية في شفاء المرض؟

السؤال: ما هي السنة الإلهية في جلب الرزق مثلا؟

رأينا المفترى: لو دققت عزيزي القارئ في السياق ذاته:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ۝٣٨ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: 38-39]

لوجدت أن الله يقدم لنا الطريقة في جلب الرزق الذي تطلبه بالسنة الكونية التي كتبها الله، فهذه السنة الكونية تتمثل بالإنفاق.

السؤال: كيف ذلك؟

منطقنا المفترى: لو كنت أنت – عزيزي القارئ- مزارعا، فهل يمكن أن تذهب لتحصد الزرع وأنت لم تزرع أصلا؟ هل يمكن للمزارع أن يذهب في أيام الحصاد إلى الحقل إذا لم يكن قد بذر في أيام الشتاء؟ هل لو رأيت مزارعا يفعل ذلك (يذهب ليحصد وهو لم يزرع أصلا)، ألن تنعته بالجنون؟

السؤال: ما علاقة هذا بأن الله يخلف ما أنفق من شيء "وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ "؟

رأينا المفترى: عندما تنفق شيئا من مالك خالصا لوجه الله، فأنت كالمزارع الذي يأخذ القليل من محصوله في هذا العام ليكون بذارا تزرعه، فتجنيه كثيرا في العام القادم. فالذي ينفق قليلا الآن، سيجني الكثير عندما يأتي وقت الحصاد. وهذا يعني أنه من الاستحالة بمكان أن تزرع اليوم وتحصد في اليوم التالي مباشرة. فلابد للبذار أن يمكث وقتا محددا في الأرض حتى تجني ثماره عندما ينضج. وطلب نضوج الثمار قبل موعدها يقع في باب الجنون. لذا، ربما يعاجز هذا المنفق بالقول، لقد تصدقت بالأمس، لكن الله لم يخلفه اليوم. فنرد عليه بالقول، إن مثلك في ذلك كمثل الذي يزرع القمح في الشتاء ويحصده في الربيع قبل أن ينضج. ما دمت أنك قد أنفقت القليل من مالك اليوم، فعليك أن تنتظر الوقت اللازم للحصول على الغلة وفيرة في وقت حصادها الحقيقي. فهذه من السنن الكونية التي لا يطالب تغيّرها إلا الذين يسعون في آيات الله معاجزين:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٖ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: 38-39]

وربما يقول آخر بأني مرضت، ودعوة الله الشفاء، لكني لم أشفى مما دعوت الله به، ويكأن لسان حاله يقول: يجب أن تكون استجابة الله لدعائي في الحال. فنقول له كلا، وألف كلا. فما دمت تطلب الشفاء بسنن الله الكونية، فعليك أن تذهب للطبيب وتتلقى العلاج المناسب، ولن يكون شفاؤك حاصلا إلا بعد أن تنتهي من تلقي العلاج الناجع. فتلك من سنن الله الكونية، ولا يمكن أن يطلب تحققها في الحال إلا الذين يسعون في آيات الله معاجزين:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٖ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾ [سبأ: 38-39]

وهنا قد يرد الكثيرون بالقول: ماذا استفدنا نحن من كلامك هذا؟ أليس هذا ما يقوله حتى أهل الإلحاد؟ أليس هذا ما يدعوننا إليه حتى غير المؤمنين بالله؟

فنرد بالقول: نعم. هو كذلك. لأن هؤلاء يدعونك إلى منطق سنن الله الكونية حتى وإن لم يعترفوا بأنها من الله.

السؤال: وأين إذا يقع دعاء زكريا؟ ألم يكن قد بلغ من الكبر عتيا؟ ألم يهن العظم منه ويشتعل الرأس شيبا؟ هل سلك زكريا سنن الله الكونية؟ ألم يقضي سنين من عمره يتبع تلك السنن ولم تتحصل له الذرية؟ فكيف تحصلت له بمجرد الدعاء في تلك اللحظة؟

رأينا المفترى: نقول له نعم. لكن دعاء زكريا هذا (ودعاء كل عباد الله الذين جاء ذكرهم في كتاب الله) لم يكن من ضمن الدعاء بسلوك سنن الله الكونية وإنما بالطريقة الثانية بالدعاء وهي الذكر. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نبدأ قصة دعاء زكريا ربه من أولها كما جاءت في سورة مريم:

- ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: 1-9]

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذا السياق من أوله، لتجد في الآية الثانية منه قوله تعالى:

- ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2]

فلو دققنا مليًّا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن زكريا قد استخدم الذكر لكي يستجيب الله دعاءه "ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ"، فكيف ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن ما تطلبه النفس البشرية من تحقق الدعاء على الفور هدفه شيء واحد لا أكثر، ألا وهو عدم الشقاء. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: تخيل عزيزي القارئ – إن شئت- كيف يمكن أن تصبح الحياة لو أنك فعلا استطعت تحقيق مرادك كله بالدعاء؟ ألا تصبح حياتك كلها جنة لا شقاء فيها؟ أليس هذا ما جاء على لسان زكريا نفسه في السياق القرآني السابق ذاته:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤﴾ [مريم: 4]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن معرفة الذكر هو السبيل الوحيد لتحقيق المراد على الفور حتى وإن لم تكن باتباع السنن الكونية التي ربما يعرفها الجميع، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124]

فالإعراض عن ذكر الله هو الذي أوقعنا في الشقاء، ومعرفة الذكر (نحن نؤمن) هو الضمانة الوحيدة في كشف هذا الشقاء. ولو دققنا في هذه الآية في سياقها الأوسع، لوجدناها قد وردت في معرض الحديث عن قصة آدم الأولى في الجنة:

- ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ
أَبَىٰ ١١٦ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ
١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ
١٢٠ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ
حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه: 115-126]

نعم، لقد كان آدم يسكن في جنة لا شقاء فيها، وكان ذلك بسبب ما عهد الله عنده (من الذكر)، لكن لمّا أعرض آدم عن ذلك الذكر، كانت النتيجة الشقاء. انتهى.

السؤال: ما هو الذكر الذي أعرض آدم عنه حتى تحولت حياته إلى شقاء بعد أن كانت رغدا؟

رأينا المفترى: إنه علم الأسماء التي علمها الله لآدم:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]

وعندما نزل آدم عند نصيحة الشيطان، خسر آدم ذلك العلم بسبب وسوسة الشيطان له ولزوجه:

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه: 115]

منطقنا المفترى: بخسارة آدم لعلم الأسماء التي علمها إياه ربه، كان آدم بذلك قد أعرض عن ذكر ربه، فتحصل له الشقاء. ولو لم ينزل آدم عند نصيحة الشيطان، ولو لم يتقبل آدم وسوسة الشيطان، لما خسر تلك الأسماء ولما كان من المعرضين عن ذكر ربه، ولما أصبحت حياته كلها شقاء، ولظلت كل الأمور تتحصل له بالدعاء (الكلمات).

السؤال: وأين الدليل على تخريصاتك هذه؟ يرد محاورنا على الفور.

رأينا المفترى: دعنا نجلب الدليل الذي نظن أنه يثبت افتراءاتنا هذه من قصة زكريا التي هي محل النقاش هنا. ليكون أول سؤال نطرحه هنا هو السؤال التالي: لماذا جاءت الاستجابة الإلهية لدعاء زكريا هناك (على وجه التحديد):

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۞ ٣٨﴾ [آل عمران: 38]

إن هذه الآية الكريمة (كما نحاول فهمها) تدعونا إلى إثارة تساؤلات كثيرة حولها، نذكر منها:

- لماذا كان دعاء زكريا في ذلك الوقت (هُنَالِكَ)؟
- لماذا كان دعاء زكريا في ذلك المكان (هُنَالِكَ)؟
- لِم لم يدع زكريا ربه من قبل؟
- وهل فعلا لم يدع زكريا ربه من قبل؟
- لماذا تحصلت له الإجابة هنالك فقط؟
- الخ.

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن زكريا كان يدع ربه بأشياء كثيرة، وكانت تتحصل له في حينها، ولم يكن بدعاء ربه شقيا، لكن الدعاء بالذرية لم يتحصل له إلا هنالك فقط.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن سبب دعاء زكريا بالذرية (والاستجابة الإلهية الفورية) هو أن زكريا لم يكن يعرف الذكر في ذلك. فزكريا هنا لا يطلب الذرية باتباع السنن الكونية، لأنه كان حينئذ قد بلغ من الكبر عتيا واشتعل رأسه شيبا، وأصبحت فرصة الإنجاب بالطريقة الطبيعية معدومة. فما عاد هناك جدوى بطلبها بتلك الطريقة. لكن تبقى أمامه أن يطلبها بالطريقة الثانية وهي الذكر (خرق السنن الكونية العادية).

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: إن هذا الطرح (ربما المغلوط) يقودنا (حسب المنطق الذي نحاول الترويج له) إلى تقديم **الافتراء الخطير جدا جدا التالي:** إذا كنت تريد استجابة الدعاء في الحال، فعليك أن تعرف الذكر فيه. انتهى.

السؤال: وما هو الذكر في الدعاء؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: إنه الطلب باستخدام "كلام الوحي" وليس الكلام البشري الذي نعرفه. انتهى.

السؤال: وأين الدليل على ذلك في دعاء زكريا ربه؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق في المشهد الذي يصوره النص لنا فيما جرى من كلام بين مريم من جهة ورسول ربها (روحنا) من جهة أخرى في الحجاب:

- ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: 17-21]

فكان كلام مريم هو:

- ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: 18]
- ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ [مريم: 20]

وكان جواب الروح هو:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: 19]
- ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: 21]

السؤال المحوري: ما ماهية الكلام الذي قاله الوحي لمريم حينئذ؟ هل كان كلاما بشريا أم وحيا؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: بل وحيا، فالروح لا يتحدث لسان قوم بعينهم وإلا لكان له قوم من البشر:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

لكن لما كان الروح لا قوم له من البشر، تحدث "بلسان" غير ألسنة البشر جميعا.

السؤال: ما فائدة هذا الطرح في قصة زكريا؟

رأينا المفترى: دقق عزيزي القارئ فيما قاله الوحي (روحنا) لمريم، لتجده على النحو التالي:

- أنه رسول ربها "قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ"
- الهبة "لِأَهَبَ لَكِ"
- الغلام الزكي "غُلَٰمٗا زَكِيّٗا"
- المثل "قَالَ كَذَٰلِكِ"
- سهولة الأمر بالنسبة لله "قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ"
- جعله آية للناس "وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ"
- جعله رحمة من الله "وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا"

- انقضاء الأمر "وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا"

والآن دهنا ندقق في دعاء زكريا ربه على مساحة النص القرآني:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 4-6]
- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: 38]
- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

إذًا، ما كان يريده زكريا هو الذرية، وأن يكون غلاما، وأن يكون هبة، الخ.

السؤال: كيف نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: كان زكريا (في سابق عهده) يدعو ربه بأشياء كثيرة، وما كان بدعاء ربه شقيا، لأنه (نحن نفتري الظن) كان يعرف ذكرها، أي الوحي الحقيقي فيها ليدعو ربه، فكانت تتحقق له في الحال. لكن لم يكن زكريا على علم بالذكر (كلام الوحي) الذي يجلب له الذرية الطيبة (أي كلمات الوحي التي بها يطلب الذرية). لكن تبدلت الحال مباشرة عندما حصل الحمل لمريم في الحجاب.

السؤال: كيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان زكريا يدخل المحراب في كل يوم ليجد رزق مريم يأتيها من عند ربها. فما كان ذلك يثير استغراب شخص من مثل نبي الله زكريا، فهو يعلم أن الله هو من ينبت هذه الأنثى نباتا حسنا:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ..... ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

لكن حصلت المفاجئة له في فجر يوم من تلك الأيام عندما دخل على مريم المحراب (كالعادة) ليجد (هذه المرة) أن بطنها قد انتفخ بالحمل، فيقع ذاك المشهد على بصره كالصاعقة، فهو قد تركها البارحة لا تظهر عليها علامة من علامات الحمل، وها هو يأتيها اليوم ليجد أنها على وشك أن تضع ما في بطنها. فتأخذه المفاجأة برهة من الزمن، لكن ما يكون من شخص كزكريا إلا أن يستجوب مريم (التي يعرفها حق المعرفة) عن هذا الحمل:

- ﴿..... قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ ..... ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

فكريا (نحن نفتري القول) يشير هنا إلى ما في بطن مريم "هَٰذَا ۖ". فترد مريم عليه قائلة:

- ﴿..... قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

وهنا يعلم زكريا علم اليقين سبب العناية الإلهية بهذه الأنثى المميزة، ويعلم علم اليقين لم أنبتها نباتا حسنا، ويعلم علم اليقين السر الإلهي بأن يكفلها زكريا نفسه، الخ. فما الذي سيفعله زكريا أما هذا التدبير الإلهي العظيم؟

رأينا المفترى: لا شك أن شخصا مثل زكريا سيتقبل الحكمة الإلهية في كل ذلك، لكنه لن يفوت الفرصة على نفسه بالاستفادة منها، فهو – لا شك عندنا- سيستفسر من مريم عن تفاصيل ما حدث معها في الحجاب. ولا شك أن مريم قد روت له ما حصل بالضبط، فنقلت له كلام الوحي كما قاله الوحي تماما (أي بصيغة كلام الوحي) الذي فحواه بالضبط:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19]
- ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢١﴾ [مريم: 21]

وهنا كانت رحمت ربك عبده زكريا: لقد قدم الله لزكريا الذكر (كلام الوحي) الذي به سيُستجاب الدعاء في الحال. فالآن زكريا (نحن ما زلنا نتخيل) يعلم يكيف يطلب الهبة الإلهية (فهو يعلم الآن فكرة طلب "الهبة" بكلام الوحي)، وهو يطلب هبة الذرية (فهو الآن يعلم فكرة الذرية بكلام الوحي)، وهو يطلب تلك الذرية غلاما (فهو يعلم الآن فكرة أن تكون الذرية "غلاما" بكلام الوحي). وبكلمات أكثر بساطة نحن نفتري القول: لقد التقط زكريا شيفرة (هبة الذرية غلاما) مباشرة من كلام الوحي الذي قاله لمريم. فما الذي سيفعله زكريا الآن؟

رأينا المفترى: لم يكن زكريا ليفوت على نفسه تلك الفرصة التي قد لا تكرر، فهو الآن يملك شيفرة الاتصال بالوحي ليوجه رسالة محددة بذاتها، وهي "أن يهب الله له ذرية يكون غلاما زكيا". فما كان من زكريا إلا أن يتوجه في محرابه إلى ربه مقيما الصلاة، مقدما طلبه هذا بتلك الشيفرة الإلهية. فكان نداءه ربه نداء خفيا:

- ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾ [مريم: 2-6]

فكانت الاستجابة الإلهية لدعائه هذا مباشرا في الحال:

- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ٧﴾ [مريم: 7]

وجاءت الاستجابة بواسطة الملائكة (الذين لا زالوا متواجدين هناك) وهو ما زال قائما يصلي في المحراب:

- ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]

ليكون السؤال الآن هو: ما هو ذكر رحمت ربك زكريا؟ أو ما هي تلك الشيفرة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن تلك الشيفرة موجودة في السياق القرآني ذاته. فلنجلب السياق كله:

- ﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي

عَاقِرًا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ٧﴾ [مريم: 1-7]

دقق عزيزي القارئ في بداية هذا السياق، لنسألك السؤال المثير التالي: لماذا بدأ هذا السياق بهذه الشيفرة العظيمة "كٓهيعٓصٓ"؟

جواب مفترى: لا هيك صار الكلام خطير جدا، ولا أظن أنه يمكن متابعة النقاش هنا حتى ياذن الله بذلك. فالله وحده أسأله أن أكون من أهل الذكر، وأعوذ به أن أكون من المعرضين عن ذكر ربه. وأدعوه وحده أن يعلمني الذكر، فلا أكون ممن ينساهم الله. إنه هو الرحمن الرحيم.

هذا ما سنتعرض فيه في الجزء القادم من هذا الكتاب بحول الله وتوفيق منه.

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه لا ينبغي لغيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأعوذ به أن يكون أمري كأمر فرعون، فالله وحده أدعو أن أكون ممن أتوه بقلب سليم، فهداهم الصراط المستقيم، إنه هو العليم الخبير.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
12 أيلول 2019



الجزء السابع

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



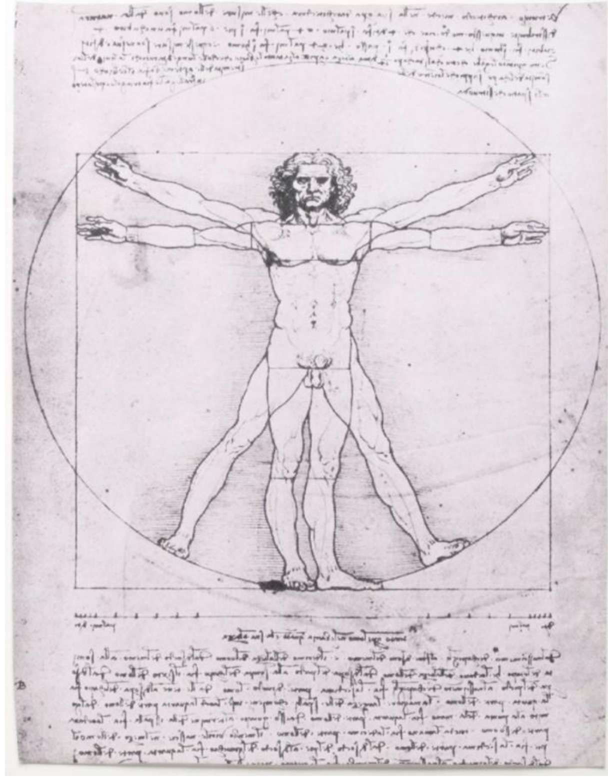
الجزء السابع: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

كانت الافتراءات الرئيسية التي تجرأنا على تقديمها في الجزء السابق من هذا الكتاب هي على النحو التالي:

- تزوج عمران بامرأة، فحملت منه بمولودة.
- توفي عمران قبل أن تضع امرأته ما في بطنها.
- عثرت امرأت عمران بعد موت بعلها على التابوت فجأة.
- وجدت امرأة عمران بقية الآثار العظيمة في ذلك التابوت.
- كانت تلك البقية من الآثار هي اللباس (لباس التقوى الذي نزعه الشيطان عن آدم وزوجه في الجنة الأولى).
- ما أن وجدت امرأة عمران ذلك اللباس فجاءة حت نذرت لله ما في بطنها محررا.
- كانت امرأت عمران تتوقع أن يكون ما في بطنها ذكرا.
- كانت المفاجأة الثانية لامرأت عمران أنها وضعتها أنثى.
- ما أن وضعتها حتى سمّتها مريم.
- وما أن ألبستها ذلك اللباس حتى تقبلها ربها، فكان ذلك اللباس هو – برأينا- سبب القبول الإلهي لمريم
- كان ذلك اللباس هو لباس زوج آدم.
- جاءت كفالة مريم لزكريا مفروضة عليه، فكان عليه أن يتزوج بأم مريم، ليكفل مريم، فتصبح محرمة عليه، فيتمكن من الدخول عليها في المحراب دون حرج.
- نشأت مريم في المحراب حافظة لفرجها بسبب ذلك اللباس، فكان من الاستحالة بمكان أن يفك إحصانها بشر.
- أصبحت مريم بذلك اللباس مؤهلة لأن ينفخ في فرجها المحصن، فيبقى فرجها محصنا حتى وإن حصل لها الحمل بطريقة النفخ.
- جاء مريم الروح في الحجاب ليهب لها غلاما زكيا، فنفخ في فرجها، فحملت المسيح كلمة الله في بطنها.
- دخل زكريا المحراب على مريم كالعادة ليجد بطنها قد انتفخ بالحمل، فأصبته الدهشة في البداية، لكن مريم قصت عليه ما حصل معها مع من جاءها في الحجاب.
- التقط زكريا الذكر (هب لي ذرية غلاما) من حواره مع مريم حول تلك الحادثة، فتوجه على الفور إلى ربه بالدعاء في ذلك الوقت وذلك المكان.
- جاءته الاستجابة الإلهية مباشرة عن طريق الملائكة.
- اتخذت مريم من أهلها مكانا قصيا لتضع ما في بطنها.
- كان ذلك في المكان الأقصا (مكان المسجد الأقصى المطل على البقعة المباركة من الشجرة).
- ما أن وضعت مريم ما في بطنها حتى كان لباس التقوى يغطيه، فنزع ذلك اللباس عن مريم ليغطي الغلام، فكان زكيا.
- أصبحت مريم كنساء العالمين يصيبها المخاض، فأصبحت مؤهلة لأن تأكل الآن من أكل أهل الأرض، فطلب منها أن تهز إليها بجذع النخلة، فتأكل مما تساقط عليها، كما طلب منها أن تشرب بالإضافة إلى الأكل. فمريم كانت تأكل من الرزق الذي كان يأتيها في المحراب لكنها لم تكن تحتاج أن تشرب.

أما وقد انتهت مهمتها من حمل كلمة الله في بطنها الذي ظل طاهرا حتى تلك اللحظة، فلا ضير أن تأكل الآن من طعام أهل الأرض وأن تشرب من الماء المتوافر حولها.

- ما أن نزل المسيح من بطن أمه حتى كان لباس أمه ليغطيه، وما كان من مريم (نحن لا زلنا نتخيل) إلا أن تلبس المسيح اللباس الآخر الذي كان بحوزتها، فأصبح المسيح يلبس اللباسين معا (لباس آدم ولباس زوج آدم)، فكان المسيح هو النسخة للإثنين معا. فهو ذات (المسيح ذكر) ونفسه (المسيح أنثى)، فكان وحدة واحدة من الذكورة والأنوثة معا، كما في الشكل التوضيحي التالي لجدارية دافنشي تحت مسمى رجل الفضيلة (The Vitruvian Man) أو (The Man of Virtue) بالكلمات الإنجليزية، حيث التناسق المطلق بين الذكورة (المربع) والأنوثة (الدائرة) يشكلان معا الكيان المثالي لمن كان بشرا سويا.



وسنتابع في هذا الجزء من المقالة الحديث (بإذن الله) عن بقية القضايا التي أثرناها في الأجزاء السابقة من هذه المقالة، وهي الأجزاء المتعلقة بقضية خلق المسيح وعلاقتها بقصة الخلق الأول للبشر (آدم) ومن ثم تطورات تلك القصة في رحلة البشرية على الأرض مع ابني آدم.

قصة المسيح

بعد تتبع خيوط القصة كما تبدّت لنا في الأجزاء السابقة من هذه المقالة، تجرأنا على افتراء الظن بأن الأنثى التي تلبس ذلك اللباس - الذي كان في سيرته الأولى هو (نحن نظن) لباس زوج آدم - مؤهلة لأن يتم النفخ فيها لتحمل كلمة الله. ولمّا كانت مريم ابنت عمران هي من ألبست ذلك اللباس بعد أن وضعتها أمها، أصبحت مؤهلة لأن تكون طاهرة مادامت تلبسه، فيكون بطنها مؤهلا لأن يحمل كلمة الله (المسيح). وقد قادنا مثل

هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا إلى العودة إلى قصة الخلق الأولى، لنفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لو لم ينزع الشيطان عن آدم وزوجه ذلك اللباس لتم التزاوج بينهما بهذه الطريقة. ولتمثل آدم حينئذ دور الخلافة في الأرض بدلا من الملك فيها.

وقد أثرنا في الأجزاء السابقة من هذه المقالة التساؤلات التالية عن قصة المسيح وأمه:

- لماذا حصلت القصة في ذلك الوقت من الزمن في تاريخ البشرية؟
- لماذا حصلت مع امرأت عمران على وجه التحديد؟
- هل كان من الممكن أن تحصل مع امرأة أخرى غير امرأت عمران؟
- لماذا نذرت امرأت عمران ما في بطنها؟
- ما الذي دفع امرأت عمران أن تنذر ما في بطنها؟
- لماذا تقبل الله منها؟
- لماذا كان ما انجبته امرأت عمران أنثى؟
- هل كانت مريم أنثى كنساء العالمين؟
- ما المختلف عند مريم الذي جعل الله يتقبلها؟
- ما الذي جعل مريم مؤهلة لأن ينفخ الروح في فرجها؟
- لماذا كان لمريم ذرية؟ فهل للنساء أصلا ذرية؟
- الخ.

وسنتابع في هذا الجزء الحديث عن بعض الأسئلة التي لم يتم التطرق لها سابقا، كما سنحاول طرح تساؤلات جديدة عن كيفية خلق المسيح وطريقة حياته ووفاته عندما طهره الله ورفعه إليه بعد أن حاول البعض ممن حوله قتله (وصلبه) كما تبين ذلك الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ۝١٥٨ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ۝١٥٩﴾ [النساء: 157-159]

التساؤلات:

- لماذا قالوا أنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم؟
- لماذا أقروا بأنه رسول الله؟
- وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ....
- لماذا جاء الرد الإلهي المباشر بأنهم ما قتلوه؟
- لماذا جاء الرد الإلهي مضيفا لنفي قتله أنهم ما صلبوه بالرغم أنهم أصلا لم يقولوا بأنهم قد صلبوه؟
- وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ....
- كيف شبّه لهم؟
- وما الذي شبّه لهم أصلا؟

- .... وَلَٰكِن شُبِّهَ ....
- لماذا اختلفوا في ذلك؟
- كيف أصبحوا في شك من ذلك؟
- وكيف كان ذلك اتباعا للظن من طرفهم؟
- .... وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ.....
- لماذا جاء التبيان الإلهي مكررا أنهم ما قتلوه يقينا؟
- .... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا....
- كيف تم رفع المسيح؟
- ولماذا رفعه الله إليه؟
- بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا....
- وكيف سيؤمن به جزء من أهل الكتاب قبل موته؟
- كيف سيكون عليهم شهيدا يوم القيامة؟
- وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا....
- الخ.

سنبدأ النقاش هنا بالتساؤل المثير التالي: لماذا قالوا بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ...."؟ فهل كان القوم مقرّين إذاً بأن المسيح عيسى بن مريم هو فعلا رسول الله؟ أم أن عبارة رسول الله هي خارج قولهم وأن هذا تبيان إلهي لماهية المسيح عيسى بن مريم؟ فكيف يمكن أن تقرأ الآية الكريمة في هذا الصدد؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن – مبدئيا- بأن الآية الكريمة يمكن أن تقرأ بالوقف على وجهين، على النحو التالي:

الوقف بعد كلمة المسيح عيسى بن مريم "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ". إن صح الوقف هنا، سيكون ذلك بمثابة إقرارا منهم بأنهم قد قتلوا المسيح عيسى بن مريم، لكنهم (يمكن أن نفهم) غير مقرين بأنه رسول الله، وأن ورود عبارة "رَسُولَ ٱللَّهِ" في هذا السياق هو فقط تبيان إلهي لماهية المسيح مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: 171]

فقد كان القوم يغلون في دينهم، ويظنون أن المسيح أعلى مرتبة من الرسل بدليل أنهم اعتبروه جزء من الإله بقولهم ثلاثة. فكيف يمكن لمن كان يظن بأن المسيح جزء من الثلاثة سيتجرأ على قتله؟ من يدري؟!

ولو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا بعضهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، فظنوا أن المسيح هو الله ذاته:

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: 17]
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: 72]

السؤال: كيف ستجرأ "من يظن أن المسيح هو الله" على قتله؟ من يدري؟!

جواب مفترى: كلا وألف كلا، نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يقدم على قتل المسيح من كان يظن أنه الله أو أنه ابن الله.

الوقف بعد كلمة المسيح عيسى بن مريم رسول الله "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ"، وإن صح الوقف عنا، فهذا يعني – برأينا- اعترافا منهم بأن المسيح ليس أكثر من رسول الله.

فيكون السؤال هو: هل يتجرأ على قتل ذلك الرسول من كان يظن بأنه فعلا رسول الله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم. لا يوجد ما يمنع أن يقتل القوم من كانوا يظنون أنه رسول الله، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: 87]

ولو تدبرنا هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا ذكر المسيح عيسى بن مريم الذي أيده الله بروح القدس، لكن كان سلوك من حوله على وجهين، أي انقسموا إلى فريقين:

- فريق يكذب الرسول "فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ".
- فريق يقتل الرسول "وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ".

وقد يظن القارئ للوهلة الأولى بأن مفردة فريقا تعود على الرسل، أي أنّ هؤلاء القوم قد كذبوا فريقا من الرسل وقتلوا فريقا آخر من الرسل.

السؤال: هل مفردة فريقا هنا تعود على الرسل؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن لا نؤيد مثل هذا الفهم اطلاقا، لأنه من الاستحالة بمكان أن يكون الرسل (بالكلام الإلهي) فرقا. فالله قد أقرّ بعدم التفريق بين الرسل، أي جعلهم فرقا:

- ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 136]

- ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]
- ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران: 84]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن مفردة "فريقا" (الواردة في النص) لا تعود على الرسل لأنه لا يمكن تفريق الرسل، فالرسل ليسوا فرقا.

السؤال: من الذين يمكن أن يكونوا فرقا؟ وكيف يمكن أن نفهم عبارة (فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ).
رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الذين يمكن أن يكونوا فرقا هم الناس من حول الرسل، فهم الذين يمكن أن يتفرقوا بسبب دعوة الرسل:

- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 105]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشورى: 14]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن مفردة "فرق" (ومشتقاتها) لا تستخدم في النص القرآني لوصف حالة الرسل وإنما لوصف حالة الناس الذين جاءتهم الرسل بالبينات. وهذا يعني - بمفرداتنا الدارجة- أن مفردة "فريقا" التي ترد في الآية الكريمة ذاتها:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]

لا تعرب على أنها مفعول به للفعل كذب أو للفعل قتل. فالقوم (نحن نظن) لم يقتلوا فريقا من الرسل ولم يكذبوا فريقا من الرسل. وذلك لأن كل رسول جاء بالبينات قد انقسم الناس من حوله إلى فرقا، بعضهم يريد قتله، والبعض الآخر يكذبه. لذا، نرى أن مفردة فريقا تصف حال القوم من حول الرسل (كل رسول)، لذا يجب أن تعرب المفردة على أنها حال للقوم من حول الرسول أو تميزا لهم (عن بعضهم البعض):

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]

السؤال: هل يمكن للقوم أن يقتلوا من يعترفوا برسالته لهم (كرسول)؟
جواب مفترى: نعم. يمكن للقوم أن يقتلوا الرسول بدليل قوله تعالى:

- ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: 181]
- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: 155]
- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21]
- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: 112]

ولو تتبعنا جميع السياقات القرآنية، لوجدنا بأن القتل كان يقع على الأنبياء والنبيين، لكن المدقق في النص القرآني سيجد أن قتل الرسل لم يكن إلا من بني اسرائيل لسبب واحد وهو أن الرسول قد جاءهم بما لا تهوى أنفسهم:

- ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة: 70]

إن هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا يقودنا إلى النتيجة المفتراة الخطيرة جدا التالية: إن الذين قتلوا عيسى بن مريم هم فريق من بني إسرائيل كان مقتنعا بأن المسيح عيسى بن مريم هو فعلا رسول الله، لكن سبب قتلهم له هو أنه قد جاءهم بما لا تهوى أنفسهم:

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: 157-159]

فلآية الكريمة يجب (نحن نفتري الظن) أن تُقرأ بالوقف بعد عبارة رسول الله "وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ"، لنفهم أن أولئك القوم (أو لنقل ذلك الفريق منهم) الذين أقدموا على محاولة قتل المسيح عيسى بن مريم هم من كانوا مقرّين بأنه رسول الله (وليس من الثلاثة أو أنه هو الله). فمن كان يؤمن أن المسيح من الثلاثة هم الذين كفروا به كرسول:

- ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [المائدة: 17]

والفريق الذين قالوا هو الله كانوا هم أيضا كافرين:

- ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: 72]

يبقى هناك فريق ثالث منهم، وهم من آمن بأن المسيح هو رسول من الله، وهؤلاء هم (نحن نظن) من أقدموا على محاولة قتل المسيح (كرسول)، وكان ذلك لسبب واحد، وهو أنه قد جاءهم بما لا تهوى أنفسهم. انتهى.

السؤال: ما الذي لا تهواه أنفسهم وكان سببا في اقدامهم على محاولة قتل المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى: لو حاولنا تفقد عبارة "ما تهوى الأنفس" على مساحة النص القرآني، لوجدناها ترد في السياقات التالية:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]
- ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 19-23]

ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة في هذا السياق جيدا، لربما صحّ لنا أن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هؤلاء القوم قد كانت تهوى أنفسهم شيئا ما من ذلك الرسول، فما هو ذلك الشيء الذي كانوا يودون لو أن ذلك الرسول (عيسى بن مريم) قد جاءهم به؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الشيء الذي كانت أنفسهم تهواه هو أن يأتيهم الرسول (أي رسول) بما كانت عليه الأقوام التي سبقتهم:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: 30-31]

فالذي كانت تهواه أنفسهم هو أن يجعلوا لله الولد، فهناك فريق من اليهود والنصارى كانوا يتمنون أن يثبت لهم الرسول ظنهم بأن الإله له ولد، وهذه عقيدة الذين كفروا من قبلهم "يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ". فيصبح السيناريو حينئذ – كما نتخيله طبعا- على النحو التالي: يأتي المسيح عيسى بن مريم بالرسالة التي تنفي العقيدة الباطلة للذين كفروا من قبل "بأن لله ولد". فها هو يصدق ما بين يديه من التوراة، ويطلب منهم أن يؤمنوا بأن الله ربه وربهم:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: 50-51]

وفي هذه اللحظة تبين نواياهاهم بالكفر، ويحس ذلك عيسى منهم. انظر عزيزي القارئ – إن شئت- تتمت السياق القرآني السابق ذاته:

- ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: 50-52]

فها هو يطلب منهم أن يتقوا الله ويطيعوه "فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ".

السؤال: بماذا يأمرهم المسيح أن يطيعوه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية التي تأتي مباشرة بعد ذلك هي بالضبط ما طلب المسيح منهم أن يطيعوه فيه، وهو قوله: "إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ"

فلو لم يطلب المسيح عيسى بن مريم منهم عبادة الله وحده، لما أحس (نحن نظن) منهم الكفر برسالته. فما أن طلب منهم ذلك "إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ" حتى كانت ردة فعلهم الكفر الذي أحسه عيسى منهم على الفور:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: 52]

وبكلمات أخرى، نحن نفتري القول بأنه لو جاءهم عيسى بما تهوى أنفسهم (وهو اتخاذ الإله للولد)، لما كانت ردة فعلهم على نحو ما كانت. ولو قال لهم المسيح بأنه ابن الله، لتقبلوا رسالته على الفور، وذلك لأن هذا ما كانت تهواه أنفسهم.

السؤال: لماذا يريدون العقيدة على ذلك النحو؟

رأينا المفترى: لأنهم بذلك يستطيعون أن يجعلوا من أنفسهم (كرهبان ورهبانا) أربابا من دون الله:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: 30-31]

وبذلك تبقى سلطتهم على رقاب العباد نافذة، أي لشرعنوا سلطتهم الدينية عن طريق المسيح عيسى بن مريم. فهم يريدون أن يشرّع لهم المسيح سلطتهم "الدينية" على رقاب العباد، لكن أولئك الأحبار والرهبان قد فقدوا سطوتهم الدينية لأن المسيح لم يشرعن لهم عبادة أحد من دون الله، فهو بذلك قد نزع عنهم شرعيتهم المزعومة، فكان ذلك ضد مصالح الكهنوت الذي كان صاحب السلطة النافذة حينئذ.

وفي هذا الوقت بدى منهم ما كانوا يكتمون: العداوة والبغضاء وما تخفي صدورهم أكبر:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨﴾ [آل عمران: 118]

فكان ما أخفت صدورهم هو أكبر، لأنهم لا شك كانوا يخططون لقتل المسيح عيسى بن مريم.

السؤال: كيف نفذوا ذلك على أرض الواقع؟ وكيف ظنوا بأنهم قد قتلوا المسيح عيسى بن مريم كما جاء على لسانهم؟

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧﴾ [النساء: 157]

تلخيص ما سبق: كان فريق من بني إسرائيل (وهم بعض من الأحبار والرهبان) يودّون لو أن المسيح أقر لهم بما تهوى أنفسهم (أنه ابن الله)، ليتقبّلوه على الفور، لأنهم ببساطة يستطيعون أن يأخذوا حينئذ شرعية بأن يكونوا في أعين الناس (كأحبار ورهبان) أربابا من دون الله. لكن لمّا كانت رسالة المسيح واضحة جليّة بأنه عبد لله، وأن الله واحد لا شريك له، وأن ليس هناك أربابا من دون الله، كان ذلك يتنافى مع مصالح أولئك الأحبار والرهبان استمرار فرض سطوتهم الدينية على رقاب العباد، فكان لابد من التخلص من هذا الذي هو رسول الله.

السؤال: ماذا كان قرارهم تجاه المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى: كان إجماع هذا الفريق على نحو أن يقتلوه، فقالوا ذلك بصريح اللفظ:

- ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾ [النساء: 157]

السؤال: كيف نفذوا ما عزموا عليه (أي قتل المسيح عيسى بن مريم)؟

رأينا المفترى: بالصلب. انتهى.

السؤال: وكيف سيصلبوه؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق القرآني ذاته، لوجدنا أنهم قد أقروا بقتله، لكن الله هو من نفى أنهم قد صلبوه. ليكون السؤال: لماذا نفى الله صلبهم للمسيح في حين أن قولهم لا يحمل في ثناياه صريح اللفظ بالصلب؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن الله قد نفى الصلب عن المسيح على أيديهم لأن الخطة التي دبروها لقتل المسيح تحمل في ثناياها المعنى الضمني بالصلب، وبكلمات أخرى نحن نقول بأن القوم قد اتخذوا قرارهم بقتل المسيح، وتكون آلية القتل (كمل خططوا لها) بالصلب. انتهى.

الدليل: لا شك عندنا أن قتل الشخص يعني التخلص منه (أو منعه)، لكن القتل ينفذ بطرق عديدة، فيمكن أن يكون القتل بحجز الشخص عما يريد الوصول إليه، ويمكن أن يصل إلى درجة إنهاء الحياة. إذن، نحن نفتري الظن بأنه يمكن أن تقتل الشخص بحجزه عما هو مقدم عليه (كأن تحجز الطفل عن حبة الشكولاتة التي يريد الوصول إليه أو أن تحجز الموظف عن الوصول إلى المنصب الذي سعى للوصول إليه فترة طويلة من الزمن)، ويمكن أن تنهي حياته جراء ما هو فاعله.

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة عن معنى مفردة القتل).

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن القوم من بني إسرائيل كانوا ينقسمون فيما بينهم إلى فرقا، فمنهم من يريد قتل الرسول (بمنعه عن أداء مهمته)، وفريقا منهم يكذبون الرسول لكنهم لا يقدمون على قتله.

السؤال: كيف دبر فريق من بني إسرائيل قتل المسيح عيسى بن مريم رسول الله؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن القوم قد قتلوا المسيح عندما ظنوا أنهم قد أحبطوا مهمة المسيح في نشر دعوته بين القوم أجمعين، أي منعوه (أو لنقل حجزوه) عن الوصول إلى الناس لنشر تعاليمه.

السؤال: وكيف نفذوا ذلك؟

رأينا المفترى: بداية نودّ أن نلفت انتباه جميع القراء الكرام إلى أننا سنسطر في الصفحات التالية افتراءات نظن أنها غير مسبوقة على الإطلاق، وأنها ترق إلى أن تكون أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع. لذا، ستبقى كلها في طور الافتراء الذي يحتاج إلى التمحيص والتدقيق. لهذا، نحن نطلب من الجميع (شاكرين ومقدرين) قراءتها بعين الناقد المتفحص وليس بعين المقلد المتبع. ومن يظن أنها لا تستحق عناء الجهد والوقت، فهو لا شك قد سلك الطريق الأسهل، وندعوه أن يترك القراءة عند هذه السطور إلى غير رجعة.

دعاء: سائلين الله له أن يجد ما يناسبه في مكان غير هذا. وفي الوقت ذاته ندعو الله لأنفسنا بأن يهدنا صراطه المستقيم، ونعوذ به أن نكون ممكن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو السميع البصير.

أما بعد

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا جدا: كان المسيح يظهر بين القوم بصورة هي أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وذلك لأن أقدام المسيح (نحن نفتري الظن) لم تكن تطأ الأرض قطعا. فهو يظهر ويكأنه طائر ما بين السماء والأرض. انتهى.

الدليل: من أجل جلب الدليل على هذا الافتراء الخيالي، علينا أن نعود للبحث عن ماهية المسيح منذ اللحظة التي وُلد فيها عند جذع النخلة. قال تعالى:

- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 23-26]

وسنركز في بحثنا هنا في هذا السياق القرآني على ملاحظتين اثنتين فقط، وهما:

- فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي.
- وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ.

لنطرح حولها التساؤلات التالية:

- هل حزنت مريم عندما وضعت المسيح؟
- كيف قرت عينها بعد أن كانت غير قريرة العين؟

رأينا المفترى 1: نحن نظن بأن مريم قد حزنت عندما وضعت المسيح، لذا جاء الأمر الإلهي لها بأن لا تحزن.

رأينا المفترى 2: نحن نظن بأن عين مريم لم تكن قارة (أو قريرة) عندما وضعت المسيح، لذا جاءها الأمر الإلهي بأن تقر عينها.

السؤال 1: لماذا حزنت مريم بعد أن وضعت المسيح؟

السؤال 2: كيف قرت عينها بعد أن كانت على خلاف ذلك من قبل؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذه التساؤلات، علينا أن نبدأ النقاش بالبديهيات التالية:

أولا، الحديث هنا عن أم.

ثانيا، الحديث هنا هو عن شعور الأم تجاه ولدها.

ثالثا، جاء الحديث هنا عما حصل للأم تجاه ابنها حديث الولادة.

السؤال: كيف يمكن أن نخرج بمعنى الحزن واستقرار العين في مثل هذا المشهد الذي يصور حالة الأم تجاه ابنها حديث الولادة؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا هذه المشاعر (الحزن واستقرار العين) المتولدة من الأم تجاه وليدها، لقادنا المشهد على الفور إلى ما بدر من أم موسى تجاه ولدها موسى يوم أن ألقته في التابوت.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن بحاجة أن نجلب السياقات القرآنية الخاصة بأم موسى، والتي تصور مشاعرها تجاه ولدها موسى في طفولته، خاصة عندما قذفته في التابوت ثم قذفته في اليم، فنجد الآيات الكريمة التالية على الفور:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]
- ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]
- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص: 10-13]

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه السياقات القرآنية جيدا، لتجد أنّ ما بدر من أم موسى هو الحزن، وأن عينها لم تكن قريرة حينذ "كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ"، ليكون السؤال على الفور هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن حزن أم موسى على ولدها كان بسبب فقدانها له عندما ألقته في التابوت، فقذفته في اليوم، ووقع بيد آل فرعون. فالأم (أي أم) ستحزن - لا شك - حزنا شديدا على فراق طفلها خاصة إذا كانت تجهل مآله في لحظة فقدانه. وبهذه الحالة ستبقى عينها غير قريرة حتى يعود إليها طفلها. فيستحيل أن تقر عين الأم (أي أم) مادامت تفقد طفلها، ولن تقرأ عينها ما زال بعيدا عنها.

افتراء خطير جدا جدت: نحن نظن (ربما مخطئين) أن غياب موسى (الطفل) من حضن أمه كان هو سبب حزنها، وغيابه عنها لفترة من الزمن هو ما جعل عينها غير قريرة طيلة فترة غيابه عنها. وما كانت عينها لتقر، وما كان الحزن ليذهب من قلبها إلا بعودة الطفل إلى حضن أمه.

تلخيص ما سبق: كان موسى الطفل في حضن أمه، لكن كان عليها أن تتخلى عنه عندما جاءها الوحي الإلهي بأن تقذفه في التابوت، فتقذفه في اليم. فكان ذلك هو – برأينا – ما سبّب الحزن لها. وستبقى عين أم موسى – لا محالة - غير قريرة ما دام الطفل (موسى) يغيب عن حضنها. والله هو من أذهب الحزن من قلب أم موسى وجعل عينها قريرة بأن رده إليها:

- ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص: 13]

نتيجة مفتراة: مادام أن الحزن من قلب أم موسى قد ذهب ومادام أن عينها قد قرّت بعودة الطفل إليها، كان غيابه عنها هو إذاً سبب حزنها وعدم قرار عينها. انتهى.

وليس أدل على أن حزن الوالد (الوالدة) يتولد بسبب فقدان الولد مما حصل ليعقوب من حزن بسبب فقدانه يوسف، قال تعالى:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: 84]

نتيجة مفتراة: سبب الحزن وعدم قرار عين الوالدة (الوالد) يكون بسبب فقدان الولد. انتهى.

والآن لنعود – بمثل هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا – عن سبب حزن (وذهاب حزن) أم موسى وقرار عينها وحزن يعقوب وابيضاض عينيه (الرؤية) لفقدانه يوسف، لندقق فيما بدر من مريم لحظة ولادتها للمسيح عيسى، ليكون السؤال الآن هو: ألا نجد بأن مريم قد حزنت وأن الله هو من طلب منها ألا تحزن؟

- فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي

ثم، ألا نجد بأن عينها لم تكن قريرة، وأن الله هو من طلب منها أن تقر عينها؟

- وَقَرِّي عَيْنًا.

السؤال مرة أخرى: لماذا حزنت مريم عندما وضعت ابنها المسيح (عيسى) عند جذع النخلة؟ ولماذا لم تكن عينها قريرة عندما ولدته؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه إن شئتم): لأن مريم قد فقدت المسيح بعضا من الوقت عندما ولدته، فهي قد حزنت لفقدانه ولم تقر عينها لغيابه عنها فترة من الزمن (كما فقدت أم موسى طفلها بعضا من الوقت فأصابها الحزن جراء ذلك وما قرت عينها إلا بعودته إليها). انتهى.

السؤال: كيف حصل ذلك على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كانت مريم متواجدة على تلك الربوة عند جذع النخلة عندما وضعت المسيح. وما أن نزل المسيح (كلمة الله وروح منه) من بطن مريم حتى طار (نحن نتخيل) كالعصفور إلى أدنى الربوة من طور سيناء في البقعة المباركة من الشجرة، فظنت مريم بأن طفلها قد "سقط" إلى الواد، فكان حزنها عليه مباشرا. فهي (كأم) قد فقدت منذ اللحظة الأولى وليدها. وما كانت تعلم ما حصل له بعد أن اختفى عن نظرها في ذلك الواد. فأصابها الحزن جراء ذلك، وأصبحت غير قريرة العين. فما كانت تدري ما حصل له بعد ذلك، فأصبحت قلقة تترقب ما حلّ به بعد ذلك. فحزنت لفقدانه ولم تقر عينها حينئذ. وما كان الحزن ليذهب من قلبها، وما كانت عينها لتقر، إلاّ بمعرفة ما آلت إليه حال طفلها، بالضبط كما حصل لأم موسى بعد أن فقدت طفلها، وذهابه عنها في التابوت.

السؤال: متى ذهب الحزن من قلب أم موسى وكيف قرت عينها؟

رأينا المفترى: لم يكن الحزن ليفارق قلب أم موسى على فراق طفلها، وما كانت عينها لتقر إلا بعودة الطفل إلى حضنها. وما حصل ذلك إلا بعد أن رده الله إليها لتقر عينها ولا تحزن:

- ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: 13]

السؤال: كيف رجع موسى إلى أمه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن الله هو من رد موسى (الطفل) إلى أمه، كما نفتري الظن بأن ذلك كان على نحو أن موسى قد رجع إلى أمه بالأداة ذاتها التي ذهب بها، ألا وهي التابوت. فموسى قد عاد إلى أمه في ذلك التابوت الذي قذفته فيه حينما أبعدته عنها في بداية القصة.

السؤال: وكيف رد الله عيسى إلى أمه بعد أن فقدته بعد ولادتها أياه مباشرة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: نحن نتخيل بأن عيسى قد رده الله إلى أمه بالطريقة ذاتها، أي في التابوت. انتهى.

الدليل: لو تفقدنا الآيات الكريمة التي تصور لنا ما حصل للمسيح عيسى بن مريم في مشهد ولادته، لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: 24]

لنثير حول هذه الآية الكريمة جملة من التساؤلات، نذكر منها:

- لماذا ناداها؟
- من الذي ناداها؟
- لماذا كان من ناداها متواجدا تحتها؟
- كيف نفهم أنه كان متواجدا تحتها؟
- لماذا طلب منها ألا تحزن؟
- كيف جعل ربها تحتها سريا؟
- من هو ذلك السري؟
- الخ.

وسنحاول أن نجيب (حسب فهمنا للنص) عن هذه الأسئلة تباعا. ولنبدأ بالسؤال الأول: لماذا جاء الخطاب بصيغة النداء؟

رأينا المفترى: ما دام أن الخطاب قد جرى بطريقة المناداة، فلا شك أن هناك طرفان، وهما المنادي والمنادى عليه. وقد لا نشك قيد أنملة بأن المنادى عليه هو مريم نفسها، لكن قد يكون هناك بعض الالتباس في أذهاننا عن ماهية المنادى. فمن هو؟

رأينا المفترى: مادام أن العملية قد تمت بالنداء، فإن هناك – لا شك عندنا- مسافة بين المنادي والمنادى عليه. فلا داع أن أنادي عليك إن كنت تجلس قريبا جدا مني. فمن أبسط معاني النداء هو توصيل رسالة من المتكلم إلى السامع الذي يبتعد عنه مكانيا. فالمنادي للصلاة يريد أن يوصل صوته لمن هو بعيد مكانيا عن مكان إقامة الصلاة. وعندما نادى نوح ابنه كان المنادي منهم متواجدا في مكان آخر غير المكان الذي يتواجد به المنادى عليه. فنوح في السفينة وابنه خارجها. وهذا زكريا ينادي ربه نداء خفيا. فرب زكريا (وإن كان قريب) لكنه لا يتواجد مكانيا في المكان ذاته الذي يتواجد به زكريا عندما ناداه. وهكذا.

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة حول معنى النداء).

السؤال: أين كان يتواجد من نادى مريم في تلك اللحظة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأنه كان يتواجد تحتها، لأن النداء انطلق من تحتها: "فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ".
وهذا يقودنا إلى تقديم الافتراءات المهمة التالية:

افتراء 1: كان المنادي يتواجد تحت مريم.

افتراء 2: انطلق النداء من هناك، أي من تحت مريم.

السؤال: كيف نفهم عبارة "مِن تَحْتِهَا" من تحتها في هذه الآية الكريمة؟
رأينا المفترى: لو دققنا في عبارة "من تحت" على مساحة النص القرآني، لوجدناها تصور لنا لزوم الفصل المكاني بين طرفين. فهذه الأنهار تجري من تحت قاطني الجنة:

- ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس: 9]

وهذا الفصل المكاني لا يحمل في ثناياه (نحن نظن) لزوم الاتجاه العامودي المباشر، لأنه لو تصورنا المشهد على هذا النحو، لكان الانتقال المكاني لقاطني الجنة مستحيلا، فكيف ستبقى الأنهار مباشرة تحتهم لو أرادوا التنقل فيها؟ فهل يمكن أن نتخيل الأنهار تنتقل بذاتها مع قاطني الجنة حيثما انتقلوا؟
وهذا فرعون يصرخ بأعلى صورته بأن الأنهار تجري من تحته:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١﴾ [الزخرف: 51]

فلو كانت الأنهار تحت فرعون مباشرة (بالاتجاه العامودي المستقيم)، فكيف بالقوم سيبصرونها؟ فهل كانت الأنهار تتنقل مع فرعون حيثما انتقل؟ وهل كانت الأنهار ستبقى تحت فرعون مباشرة حيثما انتقل؟ من يدري؟!!!
رأينا المفترى: نحن نظن بأنه ليس شرطا أن يكون المكان الذي يوصف "تحت طرف ما" يتواجد تحته بالاتجاه العامودي المباشر. ولو كان الشي يقع تحت شيء آخر مباشرة لسبب ذلك انعدام الرؤية، فكيف سترى ما يقبع تحتك مباشرة (باتجاه عامودي مستقيم)؟ فأهل الجنة يرون الأنهار التي تجري من تحتهم، لذا فإن الأنهار لا تقع تحتهم بالاتجاه العامودي المباشر؛ وفرعون يرى الأنهار التي تجري من تحته، وكذلك قومه من حوله يرون تلك الأنهار، فهي إذن ليست واقعة تحت فرعون بالاتجاه العامودي المباشر.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن مفردة تحت لا تعني الاتجاه العامودي المباشر، لأنها تتيح رؤية الشخص ومن حوله لما هو تحته. لذا، فهي تعني التواجد في مكان منخفض في العلو عن المكان الذي يتواجد به الشخص نفسه. فأنهار الجنة أخفض ارتفاعا من مكان قاطنيها لكنهم يرونها. وفرعون أعلى من الأنهار التي تجري تحته بغض النظر عن زاوية تواجده بالنسبة لها.

ولو دققنا مثلا في اللغة الإنجليزية، لوجب علينا ترجمة مفردة "تحت" بمفردة (below) وليس بمفردة (under)، لأن مفردة (under) تعني المباشرة أما مفردة (below) تعني التواجد الأدنى لكن ليس بالضرورة أن

يكون مباشرة. لذا، علينا أن نميّز بين عبارتين في النص القرآني، وهما عبارة "من تحت" مقابل عبارة "من دون". فهذه مريم تتواجد في الحجاب الذي يتواجد من دون قومها:

- ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ [مريم: 17]

وهذا الله نفسه من دون الذين يعبده أولئك الكافرين:

- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: 41]

السؤال: كيف إذن يمكن أن نفهم عبارة "من دون"؟ وكيف يكون الله نفسه "من دونهم"؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن عبارة من دون تحمل في ثناياها معنى الاتجاه المكاني، وإنما تعني الانفصال فقط دون تحديد الاتجاه، فمريم تقطن في الحجاب من دون قومها، فهي في ذلك المكان منفصلة عنهم، لكنهم ليسوا أعلى شأنا منها.

- ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ [مريم: 17]

وها هما المرأتان اللتان وجدهما موسى متواجدتان من دون الأمة الذين كانوا يسقون حينئذ:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣﴾ [القصص: 23]

فليس بالضرورة أن يكونا متواجدتين في مكان أعلى أو أخفض نسبيا من المكان الذي يتواجد به من كانوا يسقون حينئذ. لكن المرأتان كانتا منفصلتين عنهما بغض النظر عن الاتجاه المكاني وطبيعته الجغرافية. وها نحن نجد الإله يصف نفسه بأنه من دون غيره. وذلك لأنه (نحن نفتري القول) منفصل تماما عن غيره:

- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٢٣﴾ [البقرة: 23]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: في حين أن عبارة "من دون" لا تحمل في ثناياها (نحن نظن) معنى الاتجاه المكاني، فإن عبارة "من تحت" – بالمقابل- هي التي تحدد الاتجاه المكاني، وذلك أن "من كان تحت" (الطرف الأول) هو متواجد في مكان أخفض من المكان الذي يتواجد به من يتصف به (الطرف الآخر). فالذي نادى مريم (المنادي) كان متواجدا في مكان أكثر انخفاضا من المكان الذي تتواجد به مريم (المنادى عليه). فمريم الآن متواجدة – لا شك- عند جذع النخلة (الذي يحمل الثمر)، تجلس على تلك الربوة. وكان المنادي يبتعد عنها (مناداها) من مكان أكثر انخفاضا من المكان الذي كانت تجلس فيه مريم. فجاءها النداء من تحتها.

السؤال: أين هو ذلك المكان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه ذلك الواد المقدس في البقعة المباركة من الشجرة. انتهى.

تلخيص ما سبق: كانت مريم تجلس على الربوة من جذع النخلة. وكان جذع النخلة (أي الغصن الذي يحمل الثمار) فكان ذلك الجذع يضللها، وتستطيع الإمساك به لتهزه، فيتساقط عليها رطبا جنيا:

- ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم: 25]

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم ومقالات ما يؤكل وما لا يؤكل)

وكان يقع تحت ذلك المكان الذي تتواجد فيه الواد المقدس في البقعة المباركة من الشجرة. وكان الذي نادى مريم حينئذ متواجدا في ذلك الواد. وهو (نحن نفتري الظن) الذي نادى مريم من تحتها. انتهى.

السؤال: من هو الذي نادى مريم من تحتها؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الذي نادى مريم هو روح القدس. انتهى.

الدليل: عندما حملت مريم المسيح، حصل ذلك في الحجاب عندما جاءها رسول ربها (وهو الروح الذي أرسله الله إليها):

- ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: 17]

وهناك قام الروح بالنفخ في مريم (في فرجها)، فحملت بالمسيح:

- ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: 12]

وهناك حصل الحمل، فما كان من مريم إلا أن تغادر الحجاب إلى المكان القصي:

- ﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢﴾ [مريم: 22]

وكان ذلك هو مكان المسجد الأقصى، حيث الطور والشجرة والربوة. وهناك وضعت المسيح، ليكون

السؤال الآن هو: أين ذهب الروح الذي تمثل لمريم بشرا سويا بعد النفخ في فرجها؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نفتري الظن بأن الحادثة (حمل المسيح وولادته) قد حصلت كلها في ليلة القدر، حيث يتنزل الروح الملائكة فيها:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر: 1-5]

فكان ميلاد المسيح في ليلة القدر، حيث يتواجد الروح والملائكة تتنزل بإذن ربهم في البقعة المباركة من الشجرة. فكان المكان (الواد المقدس) يعج بالحضور وعلى رأسهم روح القدس. فميلاد المسيح حضره الروح والملائكة، وكانوا متواجدين في الواد المقدس في البقعة المباركة من الشجرة.

تخيلات مفتراة: ما أن وضعت مريم المسيح عيسى بن مريم، حتى نزل من بطنها، إلى تلك البقعة طائرا (كما العصفور). وهناك كان الحضور ينتظر هذه اللحظة المباركة في تلك الليلة التي هي كلها سلام. فولد السلام (المسيح عيسى بن مريم) في ليلة السلام (ليلة القدر)، فكان السلام عليه منذ تلك اللحظة.

- ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: 33]

وما أن نزل المسيح في ليلة السلام في أرض السلام (البقعة المباركة) حتى كان الجميع يسلم عليه، ويتبرك به لأنه هو أصلا مبارك:

- ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: 31]

فعيسى ابن مريم هو كلمة الله، ومادام كذلك، فإن كلمات الله لا تنزل إلا في ليلة مباركة:

- ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: 1-3]

السؤال: ما الذي حصل عندما نزل المسيح من بطن أمه إلى تلك البقعة المباركة من الشجرة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: كان التابوت ينتظره ليحل فيه. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: تتخذ مريم من أهلها مكانا قصيا، فيحط بها الانتقال إلى الربوة المتواجدة مكان المسجد الأقصى، وهي الربوة المشرفة على البقعة المباركة من الشجرة. هناك يأتيها المخاض، فتحصل الولادة، وينزل كلمة الله (المسيح) من بطنها، لكن ما أن ينزل من بطنها الطاهر حتى يطير (كما العصفور) إلى الاسفل باتجاه الوادي المقدس في البقعة المباركة من الشجرة، فيصيب مريم الحزن لظنها بأنها قد فقدته، فما تقر عينها لما حصل لإبنها الذي وضعته للتو. فتبقى على تلك الحالة قسطا من الوقت حتى يأتيها النداء من تحتها، بكلمات الروح (روح القدس) بأن لا تحزن لأن الله قد جعل تحتها سريا.

- ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: 24]

وهنا قرّت عين مريم وذهب الحزن عنها، لأنها علمت أن ذلك السري قد تولى أمر ابنها، وأنه سيعيده لها بعد أن يفرغ من تجهيزه (كصبي حديث الولادة).

السؤال: ما هي التجهيزات التي سيقوم بها روح القدس (والملائكة) لهذا الصبي حديث الولادة؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: إنه اللباس والتابوت. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيق منه في الجزء القادم من هذا الكتاب إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها.

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه في ذلك لا ينبغي لأحد دوننا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم.

المدكرون: رشيد سليم الجراح & محمد معتصم مقداد & علي محمود سالم الشرمان

بقلم: د. رشيد الجراح

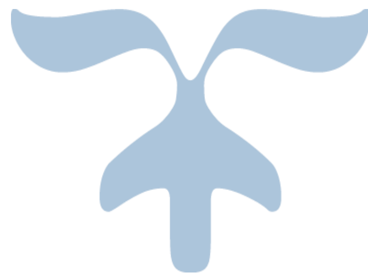
11 كانون أول 2019



الجزء الثامن

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء الثامن: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

أثرنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب التساؤلات التالية عن قصة المسيح وأمه:

- لماذا حصلت القصة في ذلك الوقت من الزمن في تاريخ البشرية؟
- لماذا حصلت مع امرأت عمران على وجه التحديد؟
- هل كان من الممكن أن تحصل مع امرأة أخرى غير امرأت عمران؟
- لماذا نذرت امرأت عمران ما في بطنها؟
- ما الذي دفع امرأت عمران أن تنذر ما في بطنها؟
- لماذا تقبل الله منها؟
- لماذا كان ما أنجبته امرأت عمران أنثى؟
- هل كانت مريم أنثى كنساء العالمين؟
- ما المختلف عند مريم الذي جعل الله يتقبلها؟
- ما الذي جعل مريم مؤهلة لأن ينفخ الروح في فرجها؟
- لماذا كان لمريم ذرية؟ فهل للنساء أصلا ذرية؟
- الخ.

وتابعنا الحديث في الجزء السابق عن قصة المسيح كما بينتها الآية الكريمة التالية على وجه التحديد:

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: 157-159]

فأثرنا حولها بعض الأسئلة، وهي:

- لماذا قالوا أنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم؟
- لماذا أقروا بأنه رسول الله؟

- وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ....

- لماذا جاء الرد الإلهي المباشر بأنهم ما قتلوه؟
- لماذا جاء الرد الإلهي مضيفا لنفي قتله أنهم ما صلبوه بالرغم أنهم أصلا لم يقولوا بأنهم قد صلبوه؟

- وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ....

- كيف شبّه لهم؟
- وما الذي شبّه لهم أصلا؟

- .... وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ...

- لماذا اختلفوا في ذلك؟
- كيف أصبحوا في شك من ذلك؟

- وكيف كان ذلك اتباعا للظن من طرفهم؟
- وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ....
- لماذا جاء التبيان الإلهي مكررا أنهم ما قتلوه يقينا؟
- ....وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا....
- كيف تم رفع المسيح؟
- ولماذا رفعه الله إليه؟
- بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا
- وكيف سيؤمن به جزء من أهل الكتاب قبل موته؟
- كيف سيكون عليهم شهيدا يوم القيامة؟
- وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا.
- الخ.

وكانت الافتراءات الرئيسية التي تجرأنا على تقديمها في ذلك الجزء السابق من هذه المقالة تتعلق بما حصل للمسيح منذ اللحظة الأولى لولادته، وكان أول تلك الافتراءات هو أن المسيح قد غاب عن عين أمه فترة من الزمن منذ أن ولدته، فأصبحت غير قريرة العين، وهو ما سبب لها الحزن حينئذ. وكان سبب غياب المسيح عن أمه فترة من الزمن (نحن نتخيل) هو ليتم تجهيزه باللباس والتابوت من قبل من كان سريا تحتها. فعاد المسيح إلى أمه بلباس التقوى محمولا في التابوت. فأتت به قومها تحمله (التابوت الذي يتواجد به المسيح). وما أن وصلتهم (وهي تحمله) حتى بادروها بالسؤال عنه، قائلين:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]

فكان ردهم على النحو التالي:

- ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: 29]

وهذا يعني (حسب فهمنا) بأن المسيح قد كان صبيا منذ اليوم الأول لولادته، الأمر الذي يستدعينا أن نقدم الافتراء الخطير جدا التالي: لم يمر المسيح بمرحلة أن يكون طفلا، كما هي حال من كان من الناس:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحج: 5]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: 67]

فالذي يخرج من بطن أمه يكون من الناس، فيخرج لا يعلم شيئا:

- ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78]

فيكون في هذه المرحلة طفلا، سيمر بالمراحل اللاحقة وهي بلوغ الأشد ثم الشيخوخة. وما دام أن المسيح لم يكن طفلا، فنحن سنتجرأ على القول بأن المسيح لن يمر بالمراحل التالية، وهي بلوغ الأشد ثم الشيخوخة. لذا جاء النص ليصور لنا حياة المسيح في مرحلتين اثنيتين وهما مرحلة المهد والكهولة:

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

نتيجة مفتراة 1: الناس يمرون بثلاث مراحل عمرية وهي: الطفولة ثم بلوغ الأشد ثم الشيخوخة.

نتيجة مفتراة 2: عيسى لم يكن من الناس، لأنه ليس مخلوق من ذكر وأنثى. لذا، مر فقط بمرحلتين عمريتين وهما مرحلة المهد والكهولة.

السؤال: كيف يمكن أن نصف المرحلة العمرية التي مر بها المسيح في المهد؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن عيسى كان في المهد صبيا:

- ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: 29]

السؤال: ومن هو الصبي؟ وكيف يختلف عن الطفل؟

رأينا المفترى: الطفل هو من لازال لا يظهر على عورات النساء:

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

وهم الذين لم يبلغوا الحلم بعد:

- ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النور: 59]

ولو افترضنا بأن عيسى كان طفلا، لكان لزاما علينا أن نفتري القول (مخطئين) بأن عيسى سيبلغ - لا محالة - الحلم. وهذا ما لا يليق – نحن نظن – بشخص المسيح عيسى بن مريم. فالمرور بمرحلة الطفولة يترتب عليه المرور بمرحلة بلوغ الحلم وبالتالي الشيخوخة. فالشيخوخة لا تتأتى إلا لحظة أن يصبح الشخص غير قادر على الانجاب، كما تبين ذلك الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢﴾ [هود: 72]

فامرأة إبراهيم تتعجب من إمكانية حصول الحمل عندها، لأنها هي عجوز أصلا وبعلها شيخا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: المراحل العمرية البيولوجية التي يمر بها الإنسان مرتبطة ارتباطا مباشرا ببلوغ الحلم، فمن كان طفلا، سيتطور جسميا ليبلغ مرحلة الحلم (القدرة على العملية الجنسية)، ويستمر في ذلك طوال مرحلة بلوغه أشده، ثم يكون شيخا بعد أن يستنفذ مخزونه من ذلك الحلم (الطاقة الجنسية).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: من لم يكن طفلا، لن يبلغ مرحلة الحمل (وبلوغ أشده)، كما أنه لن يكون شيخا (لأن القدرة الجنسية لم تتولد عنه). وسيمر بمرحلتين اثنتين فقط وهما: صبيا ثم كهلا. وهاتان المرحلتان لا تتكون فيهما طاقة جنسية أصلا. وهذه الحالة (الصبا فالكهولة) لا تنطبق إلا على اثنين وهما يحيى وعيسى. انتهى.

الدليل: لو تفقدنا ما جاء في النص القرآني على مساحته عن هذين النبيين الكريمين، لوجدنا تطابقا عجيبا بينهما فيما يخص مفردة صبيا. فهما الوحيدان اللذان اتصفا بهذه الصفة:

- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: 12]
- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ [مريم: 29]

كما نجد تطابقا عجيبا أيضا في مفردة البر:

- ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم: 14]
- ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم: 32]

ونجد تطابقا عجيبا بينهما في مفردة السلام:

- ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: 15]
- ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ [مريم: 33]

لتكون التساؤلات التي لابد أن تطرح على الفور على النحو التالي:

- لماذا كان كلاهما (يحيى عيسى) صبيا؟
- كيف كان كلاهما بارا؟
- لماذا جاء سلام على كليهما؟
- الخ.

باب الصبي

لمّا كان يحيى صبيا، ولمّا كان عيسى صبيا، فإن كليهما (نحن نظن ربما مخطئين) لم يمرا بمرحلة الطفولة، كما أنهما لن يمرا بمرحلة الحلم ولن يمرا بمرحلة الشيخوخة. وبالتالي لن يكون لديهم القدرة على الإنجاب. فعيسى لن يكون له زوجة وولد، فهو كلمة الله وروح منه. وكذلك كان يحيى، لذا جاء في النص القرآني:

- ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]

السؤال: فلماذا كان يحيى حصورا؟ وما معنى أن يكون يحيى حصورا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن يحيى كان حصورا، لأنه الذرية لن تتأتى له. فلو كان من المحتمل أن يكون ليحيى ذرية، لما كان حصورا، أي لما انحصرت ذريته عنده فقط.

الدليل: لو تدبرنا مفردة الحصر على مساحة النص القرآني، لوجدنها قد وردت في السياق التالي:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

فالذي يحصر عن الحج والعمرة هو (نحن نظن) الذي لا يستطيع الوصول إلى مكان أداء الحج والعمرة.

كما نجدها في السياق التالي:

- ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: 273]

فالذي أحصر في سبيل الله هو الذي لا يستطيع ضربا في الأرض، فيتعذر عليه التقدم إلى الأمام، ليبقى قابعا في المكان ذاته.

كما نجدها في السياق التالي:

- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء:90]

والمحصر صدره هو الذي يقبع في حالة الوسط بين طرفين، فلا يستطيع أن يقاتل هؤلاء ولا أن يقاتل أولئك.

كما نجدها في السياق التالي:

- ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: 5]

وأبسط صور حصر المشركين هو حجزهم في مكان لمنعهم من التقدم إلى الأمام أو التراجع إلى الخلف.

نتيجة مفتراة: كان يحيى حصورا، لأنه ليس من الذين سيكون لهم امتداد بعده.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الله لم يجعل له سميا. انتهى.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟ ما العلاقة بين أن يكون يحيى حصورا مع حقيقة أن الله لم يجعل له من قبل سميا؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: لم يخلق يحيى بالاستطاعة الإلهية وإنما خلق بالقدرة الإلهية. انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟ أليست هذه أصعب من تلك؟ هل لك أن توضح ما تريد قوله؟ يرد صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: نحن نميز بين القدرة الإلهية والاستطاعة الإلهية. فما كان ضمن الاستطاعة الإلهية، فهو ما كان متوافرا في المشيئة الإلهية (أي مجمل الخيارات التي خطها الله بالقلم منذ الأزل). لكن ما كان بالقدرة الإلهية، فليس بالضرورة أن يكون من ضمن المشيئة الإلهية (أي ليس من مجمل الخيارات التي اخطتها الله في الأزل بالقلم).

الدليل: عندما بشرت الملائكة امرأة ابراهيم بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، كان ذلك من ضمن الاستطاعة الإلهية، لذا لم يرد في النص القرآني بأن الله لم يجعل لهما من قبل سميا. لكن عندما تحصلت الذرية لزكريا بيحيى، وصفه الله بأنه لم يجعل له من قبل سميا.

ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى قصة الخلق الأول، فالله قد خلقنا، ثم صورنا جميعا قبل أن يطلب من الملائكة السجود لآدم:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: 11]

ثم ما أن حصلت المعصية من آدم، وأصبح التكاثر بالعملية الجنسية (بدلا من النفخ) حتى أخذ الله من بني آدم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم بأنه هو وحده ربهم:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ۝١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

السؤال: من هي الذرية التي خُلقت قبل السجود لآدم؟ ومن هي الذرية التي اخذت من ظهور بني آدم؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: هم جميع من كان لهم أسماء؟

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

فالله هو من طلب من الملائكة أن ينبئوه بأسماء "هَٰٓؤُلَآءِ"، أي من كان منهم حاضرا حينئذ.

ليكون الافتراء الكبير والخطير جدا جدا هو: أن كل من كان متواجدا هناك من الخلق كان له اسم. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن من لم يكن حاضرا هناك، لم يكن له اسما. وهذا ينطبق على اثنين فقط وهما يحيى وعيسى.

تلخيص ما سبق: عندما خلق الله الخلق جميعا، كانوا حاضرين مشهد السجود، وكان لهم أسماء، وطلب من الملائكة أن ينبئوه بأسماء جميع الحضور، فما استطاعوا، لكن آدم هو من استطاع أن ينبئهم بأسماء هؤلاء جميعا:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

ولم يكن من بين الحضور اثنين يحيى وعيسى، فما كان لهم اسم على قائمة الحضور. لذا، عندما تم خلقهم، كان من تولى تسميتهم هو الله نفسه، فكان المسيح:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: 45]

وكان يحيى:

- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم: 7]

فلقد جاء اسم المسيح عيسى بن مريم جاء (نحن نرى) لحظة خلقه، وكذلك جاء اسم يحيى من السماء لحظة خلقه، وذلك لأن اسميهما لم يكونا (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) مدرجين على قائمة الحضور يوم أن طلب الله من الملائكة أن ينبئوهم بأسماء هؤلاء.

لذا، نحن نتجرأ مرة أخرى على القول بأنهما خُلقا بالقدرة الإلهية، أي بـ كن فيكون:

- ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 47]
- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: 59]

وكذلك كان يحيى:

- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾ [مريم: 7-9]

فالله هو من رد على تعجب زكريا "قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ" بأنه قد خلقه "كذلك"، أي كما خلق زكريا من قبل ولم يكن شيئا.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا: عندما خُلق يحيى، لم يكن شيئا مذكورا من قبل، أي لم يكن من ضمن قائمة الأسماء المتوافرة في قائمة الخلق السابق حينئذ. فخلقه قد تم في تلك اللحظة من الزمن.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن خلق الناس العاديين (كلهم أجمعين) كان في الأصل من تراب:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحج: 5]
- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: 20]
- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١١﴾ [فاطر: 11]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾ [غافر: 67]

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الحياة تدب في الشيء إذا دخله الماء:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء: 30]

فكان خلق الإنسان من طين (التراب والماء):

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: 2]
- ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧﴾ [السجدة: 7]

ثم جعل ذلك الخلق (الطين) ماء مهينا (فكانت النطفة).

ولو تدبرنا الآيات الكريمة، لوجدنا أن خلقنا جميعا جاء من ماء مهين:

- ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٢٠﴾ [المرسلات: 20]

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: 67]

نتيجة مفتراة: من جاء خلقه من تراب وماء (طين) ثم من نطفة (ماء مهين) هو من كان متواجدا في الخلق الأول. وكان حاضرا مشهد السجود لآدم، وكان له اسم في قائمة تفقد الحضور التي أنبأ بها آدم الملائكة.

السؤال: ماذا عن يحيى وعيسى؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا آلية خلق المسيح عيسى، لوجدناها قد جاءت من التراب فقط، فلا وجود لعنصر الماء في تكوين المسيح:

- ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: 59]

فعيسى لم يكن يحتاج إلى الماء. لذا، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المسيح لم يشرب الماء قط في حياته، ولكنه كان يأكل الطعام:

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]

وكانا (أي المسيح وأمه) يأكلان من طعام يأتيهما من السماء، لذا لم يكونا يحتاجان إلى الماء. لكن مريم احتاجت إلى أن تشرب الماء بعد أن أكلت من طعام الأرض بعد ولادة المسيح عندما هزت إليها بجذع النخلة فتساقط عليها رطبا جنيا:

- ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 25-26]

نتيجة مفتراة: كانت مريم تأكل الطعام الذي يأتيها من عند ربها في المحراب، فما كانت بحاجة أن تشرب.

نتيجة مفتراة: كان المسيح يأكل الطعام مع أمه، فما كان يحتاج أن يشرب الماء.

- ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن عيسى لم يدخل في تكوينه الماء ودخل في تكوينه التراب فقط، لذا لن يكون مؤهلا للإنجاب بالطريقة الجنسية، وبالتالي لن يمر بمرحلة الطفولة، فبلوغ الحلم، فالشيخوخة (كالناس العاديين).

نتيجة مفتراة: عندما وضعت مريم المسيح عند جذع النخلة، انتهت مهمتها في حمل كلمة الله، فطلب منها أن تهز إليها بجذع النخلة، لتساقط عليها رطبا جنيا، فتأكل وتشرب.

- ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۝٢٦﴾ [مريم: 25-26]

السؤال: ماذا عن يحيى؟

رأينا المفترى: لو دققنا في قصة يحيى، لوجدنا أنه قد خلق من الماء المهين، لذا لم يدخل في تكوينه التراب الذي خلقت منه جميع ذرية آدم. أي هو لم يخلق من التراب أصلا، ثم من الطين، ثم من الماء المهين. وإنما خلق من الماء المهين مباشرة. لذا، فهو لن يكون طفلا ليبلغ الحلم، ثم الشيخوخة. لذا كان صبيا مباشرة.

نتيجة مفتراة: لم يكن المسيح من ذرية آدم.

نتيجة مفتراة: لم يكن يحيى من ذرية آدم.

نتيجة مفتراة: لم يخلق المسيح بسرة (حبل سري)، وكذلك يحيى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كانت ذرية آدم تشمل كل من خلقوا قبل مرحلة السجود لآدم، وهم من جعلهم الله ذرية في ظهور بني آدم. فما كان المسيح وما كان يحيى من ذلك الخلق الأول. فعيسى ويحيى لم يخلقا من قبل، وهذا ما جاء في النص القرآني ليبين (حسب فهمنا المفترى من عند نفسنا) بأن خلق يحيى لم يكن من ذي قبل كما كان والده زكريا "قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا"، قال تعالى:

- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾ [مريم: 7-9]

فيحيى لم يكن مخلوقا من قبل كما كان والده زكريا، وجاء الرد الإلهي بأن خلق يحيى الآن هو هين على الله كما كان خلق زكريا من قبل عندما لم يكن شيئا مذكورا.

نتيجة مفتراة: لم يكن يحيى قبل تلك اللحظة شيئا مذكورا، فتم خلقه حينئذ من اللا شيء (إن صح القول).

السؤال: ما تبعات هذا الافتراء؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا (1): نحن نظن بأن المؤهل للإنجاب هو من جاء خلقه من تراب وماء (طين) ثم من ماء مهين. فالإنجاب يحتاج إلى هذين العنصرين (التراب والماء). ويتوجب ذلك (نحن نظن) بأن يمر بمرحلة الطفولة، ثم بلوغ الحلم (طوال فترة أشده)، ثم الشيخوخة (نفاذ الطاقة).

رأينا المفترى من عند أنفسنا (2): مادام أن يحيى لم يكن من ذرية آدم، كان لزاما أن تنحصر ذريته، لأن ذلك يتطلب شيئين اثنين، وهما:

- أن يخلق له من نفسه زوجا كما حصل لآدم.
- أن تكون طريقة تكاثره (أي ذريته) ليست بالوراثة وإنما بالنفخ.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب في ذلك يعود إلى أن يحيى كان تقيا. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: لو تفقدنا النص القرآني عن مفردة من كان تقيا، لوجدناها قد انحصرت بالآيات الكريمة التالية:

- ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣﴾ [مريم: 12-13]
- ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: 18]

ليكون السؤال الآن هو: لماذا كان يحيى تقيا؟

رأينا المفترى: لأنه كان يلبس لباس التقوى الذي هو خير:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 26-27]

نتيجة مفتراة: فالشيطان قد نزع عن آدم وذريته لباس التقوى، لذا طلب الله منا أن نجهد أنفسنا بأن نكون من المتقين.

- ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران: 76]

أما لمّا كان يحيى تقيا منذ خلقه، فهو (نحن نظن) لا يحتاج أن يجتهد ليكون من المتقين مادام أنه يلبس لباس التقوى. وهذا يرشدنا (إن صح منطقنا طبعا) إلى افتراء الظن بأن الشيطان لا يستطيع الوصول إلى يحيى مهما اجتهد. فالشيطان هو من وعد بأن يحتنك ذرية آدم

- ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾ [الإسراء: 62]

لذا، لا يستطيع الشيطان أن يحتنك يحيى، مادام أنه ليس من ذرية آدم، ومادام أنه تقيا، فكان يحيى قد أمر بأن يأخذ الكتاب، فأوتي الحكم صبيا:

- ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: 12-15]

وكان بذلك زكيا، ليكون السؤال الآن هو: ما معنى أن يكون يحيى بذاته زكيا؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة "زكيا" ومشتقاتها، لوجدنا بأنها تخص الطهارة التامة التي لا يشوبها أذى الشيطان:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ [الكهف: 19]

ولو تفقدنا النص القرآني على مساحته، لما وجدنا بأن شخصا آخر قد كان كله زكيا (بالإضافة ليحيى) إلا المسيح عيسى بن مريم.

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19]

فلا يمكن أن يشكك أحد بزكاة المسيح عيسى بن مريم، كما لا يمكن لأحد أن يشكك بزكاة يحيى. فهما المخلوقان الوحيدان من البشر من اتصفا بهذه الصفة. لذا، يستحيل أن يتجرأ الشيطان (بكل ما أوتي من سلطان علينا) أن يقرب من هذين المخلوقين الكريمين.

وربما يؤكد منطقنا المفترى من عند أنفسنا هذا ما عُرِف عن يحيى بأنه كان هو من يتولى عملية التطهير (أو لنقل التعميد بالعقيدة المسيحية). فلماذا – نحن نسأل – كان يحيى هو من يعمد (يطهر) الناس من حوله؟ ولماذا عرف في الثقافة المسيحية بيوحنا المعمدان؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب في ذلك يعود إلى حقيقة أن هذا الشخص كان بعينه زكيا (أي طاهرا)، ولا يحتاج (نحن نظن) إلى الماء ليقوم بعملية التطهير (أو لنقل التعميد تجاوزا)، لأنه هو أصلا مخلوق من الماء. فما أن يضع يحيى يده (نحن نتخيل) على شيء حتى يصبح ذلك الشيء طاهرا، لا يشوبه شيء من أذى الشيطان.

باب البر

السؤال 1: لماذا كان المسيح بارا بوالدته؟

- ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢﴾ [مريم: 32]

السؤال 2: لماذا كان يحيا بارا بوالديه؟

- ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم: 14]

لو تدبرنا علاقة الأبن بوالديهما (أو بأحدهما)، لوجدنا أنها مبنية على مبدأ الإحسان، فالله هو من وصى الناس جميعا أن يحسنوا لوالديهم أو لأحدهما:

- ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151]
- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ [الإسراء: 23]
- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: 15]

وإذا كانا الوالدان غير مؤمنين، فالمطلوب مصاحبتهما في الدنيا معروفا:

- ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: 15]

وذلك لأن الإحسان يكون بحق من أحسن إليك:

- ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60]

ومادام أن جزاء الإحسان هو الإحسان، فعليك أن تحسن إلى والديك كما أحسنوا إليك كما ربياك صغيرا.

- ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: 23-24]

السؤال: لماذا لم يكن مطلوبا من يحيى أن يحسن لوالديه؟ ولماذا لم يكن مطلوبا من عيسى أن يحسن لوالدته؟ ولكن كان مطلوب منهما البر بأحديهما أو بكليهما؟

جواب مفترى: لأنهما لم يربيانهما صغيرا. ولم يحسنا إليهما صغيرا. انتهى.

السؤال: لماذا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما لم يكن يحيى طفلا، ولما لم يكن المسيح عيسى ابن مريم طفلا، لم يكونا بحاجة إلى إحسان من أحد، فما دام أنهما لم يمرا بمرحلة الطفولة (احتياجات التغوط والتبول والأكل والملبس)، لم يحصل لهما إحسان من أحد. فهذان المخلوقان البشريان هما من ولدا بدون سرة (حبل سري)، فما كان بحاجة إلى إحسان من أحد حتى من والديهما (كيحيى) أو أحدهما (كالمسيح).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أنهما قد خلقا من دون حبل سري (سرة)، لم يخلق الله لهما من أنفسهما أزواجا كما هي حال بقية البشر:

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 20-21]

وسنقدم لاحقا بإذن الله تبعات خطيرة جدا لهذا الافتراء بإذن الله.

دعاء: فالله وحده نسأل أن يأذن لنا الإحاطة بشيء من علمه في ذلك، إنه هو العليم الحكيم.

باب الملبس: تقيا

- ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣﴾ [مريم: 12-13]
- ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: 18]

لما كان يحيى وعيسى لا يحتاجان إلى من يحسن إليهما (مادام أنهما لم يكونا بحاجة إلى ما يحتاجه الطفل من الرعاية والعناية من الوالدة أو الوالد)، كان جل ما فعلاه هو البر.

السؤال: ما هو البر إذا؟ وكيف يكون البر بالوالدة (في حالة المسيح) وبالوالدين (في حالة يحيى) هو المطلوب؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن البر يكون في حق الغريب الذي لست ملزم أنت بالإحسان إليه، فالبر يكون بحق ذوي القربى (وليس أولي القربى) واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: 177]

فيكون جانب من البر هو إيتاء المال لذوي القربى.

نتيجة مفتراة: ربما يحق لنا أن نفتري القول من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن العلاقة بين عيسى وأمه هي علاقة ذوي القربى، كما أن العلاقة بين يحيى ووالديه هي علاقة ذوي القربى (وليست أولى القربى). والفرق بين أولى القربى (مقابل ذوي القربى) هي درجة الصلة بين الطرفين. وجل القول هو أن أولي القربى أكثر صلة بالشخص من ذوي القربى. وسنتعرض للفرق بينهما في مقالات لاحقة بإذن الله. فالله وحده نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا.

وتبين لنا الآيات الكريمة التالية أن البر لا يُقدّمه أساسا إلا من اتقى:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة: 189]

ولن يُنال البر إلا بالإنفاق مما نحب:

- ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٩٢﴾ [آل عمران: 92]

والبر علاقة تعاونية (وليست الزامية) بين المؤمنين:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: 2]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩﴾ [المجادلة: 9]

والأمر بالبر يكون للنفس قبل الآخرين:

- ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة: 44]

والله نفسه هو البر:

- ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور: 28]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن البر يكون لمن ليس له عليك واجب إلزامي بالإحسان إليه. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن عيسى كان بارا بوالدته لأنه لم يكن ملزما بالإحسان إليها (مادام أنها لم تحسن إليه)، كما أن يحيى كان بارا بوالديه لأنه ليس ملزم بالإحسان إليهما (مادام أنهما لم يحسنا إليه).

باب السلام

لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بيحيى وعيسى، لوجدنا أنهما من جاءهما السلام المباشر:

- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: 12-15]
- ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ [مريم: 33]

لكن المفارقة العجيبة – برأينا- تتمثل بأن ما جاء يحيى كان "سلام" (بدون أداة التعريف) بينما الذي جاء عيسى كان السلام (معرفا)، ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة السلام، لوجدنا بأن السلام يأتي من الله (الذي هو السلام)، كما جاء على لسان الملائكة -ضيوف إبراهيم:

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هود: 69]
- ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]
- ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات: 24-25]

فكان ذلك "سلاما"، وليس السلام. ليكون السؤال هو: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك كان سلاما لأنه جاء بطريقة غير مباشرة، أي من الله لكن عن طريق رسله، فالله هو من بعث سلاما على إبراهيم بواسطة رسله، ولو كان السلام من الله مباشرة لكان ذلك ليس سلاما وإنما السلام كله. انتهى.

السؤال: كيف يمكن أن نعكس هذا المعنى المفترى من عند أنفسنا على ما حل من "سلام" على يحيى أو السلام على عيسى؟

يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: 15]

عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ [مريم: 33]

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن ميلاد المسيح وميلاد يحيى قد حصلا في اليوم ذاته. فروح الله هو من نفخ في فرج مريم في تلك الليلة، وحصلت ولادة المسيح في فجر ليلة القدر (قبل مطلع الفجر)، وكذلك جاءت البشارة لزكريا بيحيى في تلك الليلة، وجاء مولد يحيى في ذلك اليوم قبل مطلع الفجر.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: نود أن نجلب انتباه القارئ الكريم – كالعادة - إلى أننا سنحاول تقديم افتراءات بهذا الصدد ربما غير مسبوقة، هي – برأينا- أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع الذي يستطيع كل ذي لب أن يأخذ به بيسر وسهولة.

لذا، نطلب من الجميع التثبت مما سنفتري إن كان الدليل يدعمه، ونبذ كل ما لا يجد دليلا كافيا على التثبت منه والأخذ به. سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع البصير.

أما بعد

سنعود إلى قصة زكريا من بدايتها لنثير حولها جملة من التساؤلات الخاصة بميلاد يحيى والاستجابة الإلهية لدعوة والده زكريا وهو قائم يصلي في المحراب، فجاء تصوير بعض أحداث تلك القصة في سورة مريم:

- ﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 1-11]

كما جاء تفصيل الأجزاء الأخرى منها في سورة آل عمران:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 38-41]

لنثير حولها جملة من التساؤلات التي سنحاول – بعد ذلك- تسطير افتراءاتنا للإجابة عنها.

السؤال الأول: متى دعا زكريا ربه بأن يهب له الذرية الطيبة؟

جواب مفترى: عندما دخل زكريا المحراب على مريم ووجد بأن بطنها قد انتفخ بالحمل (بكلمة الله المسيح عيسى بن مريم)؟

السؤال الثاني: ومتى كان ذلك؟

رأينا المفترى: في ليلة القدر.

السؤال الثالث: في أي وقت كان ذلك؟

رأينا المفترى: حول منتصف تلك الليلة.

السؤال: الرابع: لماذا دخل زكريا المحراب على مريم في ذلك الوقت من تلك الليلة؟

رأينا المفترى: لعلمه بأنها ليلة القدر، فكان متواجدا في المحراب ليقيم الليل.

السؤال الخامس: ماذا فعل زكريا عندما وجد بطن مريم قد انتفخ بالحمل بكلمة الله؟

رأينا المفترى: نادى ربه نداء خفيا بأن يهب له من لدنه الذرية الطيبة؟

السؤال السادس: لماذا طلب يحيى الذرية من لدن الله وليس من عنده؟

رأينا المفترى: لأنه يعلم يقينا أن ليس له ولد من ذرية آدم الطبيعية؟

السؤال السابع: لماذا استغرب زكريا الاستجابة الإلهية بالرغم أنه هو من دعا ربه بها؟

رأينا المفترى: لأنه يعلم أن الهبة الإلهية له ستكون مختلفة تماما مادام أن ليس له ولد من ذرية آدم الطبيعية. فزكريا يريد أن يعلم آلية حصول تلك الذرية له.

السؤال الثامن: كيف علم زكريا ذلك؟

رأينا المفترى: عندما أُخبر بأن ذلك "هو" على الله هين، وأنه سيتم بنفس الطريقة التي خلق بها هو نفسه من قبل عندما لم يكن شيئا مذكورا.

السؤال التاسع: كيف رد زكريا على ذلك عندما علم أنه متحقق له تلك الذرية الطيبة لا محالة؟

رأينا المفترى: سأل زكريا عن كيفية حصول ذلك في غياب زوجه عن بيته مادام أنها عاقرا (أي حردانة).

السؤال العاشر: كيف تمت الاستجابة الإلهية على استغراب زكريا؟

رأينا المفترى: إصلاح زوجه.

تلخيص ما سبق: في تلك الليلة العظيمة (ليلة القدر)، كان علم زكريا بها متحصلا، فدخل المحراب في منتصف تلك الليلة أو قبلها بقليل:

- ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ [المزمل: 2-3]

وما أن دخل المحراب في تلك اللحظة حتى وجد العجب من أمر مريم، فقد رأى بطنها وقد انتفخ بالحمل، وهو الذي تركها للتو طبيعية لا حمل في بطنها، فما كان منه (نحن نتخيل) إلا أن يسألها عما حصل، فأخبرتها بقصة الروح والنفخ. فما كان من زكريا (نحن نفتري القول) إلا أن توجه إلى ربه في المحراب وهو قائم يصلي، يناديه نداء خفيا، بعد أن انكشف له سر هبة الذرية (انظر الأجزاء السابقة من المقالة):

- ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مريم: 3-6]

فجاءه الرد مباشرة بأن الله يبشره بيحيى:

- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ [مريم: 7]

وجاءه الرد عن طريق الملائكة الذين كانوا يتواجدون حينئذ هناك، فنادوه وهو قائم يصلي في المحراب:

- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: 39]

فكان استغراب زكريا بأمرين:

- كيف يكون له ولد وقد بلغ من الكبر عتيا؟
- كيف يكون له ولد وامرأته عاقر؟

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٤٠﴾ [آل عمران: 40]

فكان الجواب الإلهي على الشق الأول من استغرابه على النحو التالي:

- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ [مريم: 9]

فهذا الخلق على الله هين حتى ولم يكن له من قبل سميا (مادام أنه لم يكن من ذرية آدم التي شهدت سجود الملائكة لآدم، وأصبحت ذريته من بعد).

أما الشق الآخر من الاستغراب الخاص بأن امرأته التي كانت حتى الساعة عاقرا، فقد جاء الرد الإلهي على النحو التالي:

- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: كيف تمت عملية اصلاح زوج زكريا له؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، علينا أن نعيد حبك القصة بطريقة جديده، بعد طرح التساؤلات التالية:

- لماذا كان زكريا متواجدا داخل المحراب؟
- متى كان زكريا متواجدا داخل المحراب؟
- لماذا كان قومه متواجدين خارج المحراب؟
- لماذا خرج هو عليهم؟ ولم لم يدخلوا هم عليه؟
- كيف أوحى إليهم؟
- لماذا أوحى إليهم بالتسبيح بكرة وعشيا؟
- الخ.

قال تعالى:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: 11]

لو دققنا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا على الفور بأن زكريا كان متواجدا حينئذ داخل المحراب، وأن قومه كانوا متواجدين خارجه، ليكون السؤال الآن هو: كيف تواجد قوم زكريا خارج المحراب في تلك اللحظة؟ أو بكلمات أخرى، نحن نسأل: ما الذي جمعهم في تلك الساعة على وجه التحديد؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن ما حصل حينئذ كان قبل طلوع الشمس، فالقوم كانوا – كعادتهم- يأتون لإقامة الصلاة في المحراب في وقت الفجر، وكان زكريا سيدهم وهو نبيهم الذي يأم بهم في الصلاة، فهو الذي يفتح المحراب في وقت صلاة الفجر، وهو الذي ويغلقه بعد صلاة العشاء، لوجود مريم فيه. وفي تلك الليلة المباركة، دخل زكريا المحراب لإقامة الليل لعلمه (أو على الأقل لظنه) بأنها الليلة المباركة، فكان ذلك (نحن ما زلنا نتخيل) في منتصف الليل ليرى بأم عينه ما حلّ للتو بمريم (حمل كلمة الله)، فكان دعائه ربه بالذرية الطيبة هناك مباشرا:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: 38]

وهنالك جاءه الرد في المحراب عن طريق الملائكة الذين مازالوا متواجدين فيه:

فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (39)

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

فكيف سيدبر زكريا الأمر حتى لا ينكشف لقومه قبل أوانه؟ نحن نسأل.

رأينا المفترى: كان على زكريا أن يرسل مريم إلى المكان القصي "لتلد" كلمة الله المسيح في تلك الليلة هناك، قبل أن يعلم القوم بذلك، فتثار حولها الشبهات، وتنفلت الأمور دون تقدير محكم. فما الذي فعله زكريا؟ نحن ما زلنا نسأل.

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن زكريا لم يفتح المحراب في تلك الليلة ليدخله القوم من أجل اقامة صلاة الفجر، ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو فتح زكريا المحراب للقوم ليدخلوه وقت صلاة الفجر لانكشف لهم أمر مريم قبل أوانه.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لربما وجدنا الإجابة على هذا السؤال (كما نتخيله طبعا).

قال تعالى:

- ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: 43]

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه الآية الكريمة، لتجد أن مريم كانت تقنت لربها، وكانت تسجد، وكانت تركع مع الراكعين، أليس كذلك؟

السؤال: كيف نفهم أن مريم كانت تركع مع الراكعين؟

رأينا المفترى: تحدثنا في واحدة من مقالاتنا السابقة عن كيفية ركوع مريم مع الراكعين في المحراب:

- ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: 35]

وافترينا الظن حينها أن مريم كانت تركع مع الراكعين، أي أنها كانت تحضر صلاة الجماعة مع القوم في المحراب.

السؤال: ما علاقة ذلك بالقصة؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأنه لو فتح زكريا المحراب لقومه في وقت صلاة الفجر من تلك الليلة، لدخلوا عليه في تلك الساعة، ولربما جلب انتباههم غياب مريم أن تكون مع الراكعين حينئذ، ولربما بدأوا يتساءلون عن سبب غيابها، ولشكل ذلك صدمة لهم قبل أن تأتيهم في اليوم التالي تحمل المسيح، ليكلمهم في المهد بنفسه. لذا عمد زكريا (نحن نتخيل) إلى إغلاق المحراب في وقت صلاة الفجر، فما كان من القوم المتوافدين باكرا إلى الصلاة إلا أن يتجمعوا تدريجيا عند بابه، منتظرين قدوم زكريا – كالعادة - ليفتحه لهم. ظانين أنه ما زال في بيته. لذا، لما لم يأت زكريا إليهم من الخارج، انشغلوا حينها بالسبب الذي جعل زكريا يتأخر (وربما يغيب) عن تلك الصلاة، ربما ظانين أن أمرا جللا (طارئا) قد حصل له في البيت، فمنعه من القدوم إلى المحراب لأداء صلاة الفجر معهم، ولم يكن (نحن ما زلنا نتخيل) ليخطر ببال أحدهم أن زكريا كان متواجدا داخل المحراب في تلك الساعة. فكان ذلك (نحن نفتري الظن) السبب في تجمع القوم كلهم أجمعون عند باب المحراب، يتجادلون فيما بينهم عمّا كان (ربما) قد حلّ بزكريا في تلك الليلة في بيته، فمنعه عن القدوم. لكن ما أن انقضى وقت صلاة الفجر، حتى خرج عليهم زكريا من داخل المحراب، ليوحي إليهم (أي رمزا) أن يسبحوا بكرة وعشيا:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 11]

وهنا (نحن نتابع الخيال ذاته) انشغل القوم بما فعل زكريا الذي يرفض أن يكلمهم إلا رمزا. فكان ذلك (نحن نرى) تدبيرا من زكريا ليشغلهم عن السؤال عن مريم.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: مادام أن مريم كانت على الدوام تركع مع الراكعين، فهي إذا تحضر الصلاة المفروضة معهم في المحراب، وما أن تنقضي تلك الصلاة المفروضة حتى تعود مريم إلى الحجاب بعد ذلك. لكن ما دام أن صلاة الفجر قد انقضت لأن زكريا لم يفتح المحراب لقومه ليدخلوه في ذلك الوقت، فلن ينشغلوا ولن يلتفتوا (نحن نتوقع) إلى حقيقة غياب مريم، وبكلمات أخرى، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن عدم رؤيتهم لمريم بعد دخول وقت الصلاة المفروضة لن يشكل هاجسا عند أحد منهم. فمريم تصلي – كالعادة- معهم الصلاة المفروضة ثم تعود إلى حجابها بعد ذلك. فما كان القوم ليظنوا غير أن مريم متواجدة الآن في الحجاب.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن القوم قد دخلوا المحراب بعد وقت انقضاء الصلاة المفروضة بعد خروج زكريا عليهم منه. لذا، لم يكونوا ليتوقعوا غير أن مريم قد أقامت الصلاة المفروضة مع زكريا في المحراب، ثم رجعت – كالمعتاد - إلى حجابها. فما تساءلوا عن شيء يخصها في تلك اللحظة.

الدليل: لو دققنا فيما أوحى إليهم زكريا به في تلك اللحظة، لوجدنا أنه قد أوحى لهم بالتسبيح:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: 11]

ولو دققنا في وقت التسبيح، لوجدناه في الآيات الكريمة التالية واضحا لا لبس به، ألا وهو قبل طلوع الشمس وقبل الغروب:

- ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾ [ق: 39]
- ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾ [طه: 130]

فالتسبيح قبل طلوع الفجر هو – برأينا – ما يشبه صلاة الضحى عندنا. فما أن تشرق الشمس، وقبل أن تطلع حتى يكون الوقت المناسب للتسبيح (الصلاة الفردية). لذا، نحن نتخيل أن خروج زكريا على قومه قد حصل قبل طلوع الشمس، فأوحى إليهم بأن وقت الصلاة المفروضة قد انقضى، وأن ليس أمامهم الآن خيارا إلا أن يسبحوا بكرة وعشيا.

السؤال: إذا كان هذا ما حصل بالنسبة للقوم، يبقى السؤال قائما: ماذا حصل بالنسبة لامرأة زكريا؟ كيف تمت عملية إصلاحها؟

باب إصلاح المرأة

لو تفقدنا النص القرآني بخصوص إصلاح المرأة (أي امرأة) في حالة نشوب خلاف بين الرجل وامرأته، لوجدنا الحاجة لجلب الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٥﴾ [النساء: 35]

فآلية الإصلاح بين الرجل وامرأته في حالة الخوف من حصول الشقاق بينهما هو أن يتم ابتعاث حكما من أهل الرجل وحكما من أهل المرأة، ليتم رأب الصدع بين الطرفين. وهنا سنثير على الفور السؤال التالي: هل هذا ما فعله زكريا لرأب الصدع بينه وبين امرأته في تلك اللحظة؟

رأينا المفترى: إذا سلّمنا أن الأمر كله قد تم في تلك الليلة، يصبح من المتعذر أن نفتري الظن بأن زكريا قد عمد إلى تلك الآلية (الاستراتيجية) لرأب الشقاق بينه وبين امرأته التي لازالت حتى الساعة عاقرا (أي حردانة). فكيف سيبعث زكريا حكمين في تلك الساعة من الليل؟ ولم لا ينتظر حتى اليوم التالي؟ فهل سيجد زكريا الحكمين في تلك الساعة من الليل؟ من يدري؟!!!

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون الأمر قد تم أيضا بالوحي الإلهي، لأنه لو حصل على ذلك النحو، لجاء النص القرآني ليبين لنا بأن الله هو من أوحى إليها كما في حالة أم موسى مثلا:

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لا نظن بأن إصلاح امرأة زكريا قد تمت بالوحي الإلهي. ولكننا نؤكد (ربما مخطئين) بأن إصلاح تلك المرأة قد تمت بالتدبير الإلهي. وبكلمات أخرى، نحن نظن بأن إصلاح امرأة زكريا كان قد حصل بتدبير إلهي محكم (أي بطريقة غير مباشرة) على نحو أن جميع أحداث تلك القصة قد حصلت بطريقة معينة، كانت نتيجتها الحتمية إصلاح زوج زكريا، وعودتها بنفسها إلى بيت زوجها في تلك الساعة من تلك الليلة ذاتها.

السؤال: كيف تم ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن البشارة لزكريا بيحيى قد جاءت عن طريق الملائكة:

- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: 39]

لكن لو دققنا في نداء زكريا ربه بأن يهب له الذرية الطيبة، لوجدناه نداء خفيا:

- ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: 3-4]

السؤال: كيف نفهم ذلك؟ أي لِم كان نداء زكريا نداء خفيا؟ وهل نادت الملائكة زكريا نداء خفيا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن نداء زكريا كان نداء خفيا، لكن رد الملائكة بالاستجابة الإلهية لنداء زكريا لم يكن نداء خفيا. انتهى.

السؤال الأول: لماذا كان نداء زكريا نداء خفيا؟

رأينا المفترى: لو تصورنا الموقف على نحو ما افتريناه، لربما صحّ أن نقول بأن المتواجدين في المحراب من البشر في تلك الليلة هما زكريا ومريم فقط. لذا، كان نداء زكريا نداء خفيا (نحن نظن) لكيلا تسمع به مريم. فما أن رأى زكريا ما حصل لمريم في تلك الليلة، وما أن علم يقينا بأن هذه الليلة هي ليلة القدر، وما أن أدرك بأن الروح ما زال متواجدا في المكان، وما أن أيقن بأن الملائكة قد تنزلوا معه في تلك الليلة بإذن ربهم، لأنها ليلة القدر المباركة التي هي ليلة السلام:

- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: 1-5]

حتى سارع زكريا إلى الاستفادة القصوى منها بأن يدعو ربه أن يهب له الذرية الطيبة بعيدا عن سمع مريم. فزكريا يريد الاستمرارية لآل يعقوب حتى بعد انتقال الاصطفاء الإلهي لآل عمران (الموالي):

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾ [مريم: 5-6]

فحب زكريا لآل يعقوب فطريا، لكن كفالته لمريم التي هي من آل عمران (الموالي) تكليف رباني. فزكريا لم يعمد إلى معارضة المشيئة الإلهية باصطفاء آل عمران، فالتزم بكفالة مريم حتى على حساب حياته الشخصية التي كلفته ترك امرأته له ولبيته. وقد صرف سنين كثيرة من عمره في كفالة مريم على حساب بيته الخاص وحياته الشخصية، وكان كل ذلك طاعة لربه وامتثالا لأوامره، لكنه لن يترك الفرصة الآن تضيع من بين يديه، ليستفيد من الكرم الإلهي بأن يطلب لنفسه مكافأة له على ما فعل، فكان نداءه ربه خفيا بالذرية الطيبة، ولكنه طلبه خفية (نحن نرى) حتى لا تسمع به مريم، فيسبب لها الحرج. فزكريا لا يريد أن يشعر مريم (نحن نتخيل) بأنه قد عانى معاناة شخصية من أجل كفالتها، فهو قد كفلها ليس رغبة منه في ذلك، وإنما امتثالا لأمر ربه الذي كفّله إياها رغما عما في نفسه من حب لأمراته ولأهل بيته (ولقومه). وهذا – لا شك عندنا- من أصول الأخلاق التي يتمتع بها شخص مثل هذا النبي الكريم، فهو يعلم يقينا بأن قولا معروفا ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى:

- ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝﴾ [البقرة: 263]

فلن يعمد زكريا إذا إلى أن يلحق شيئا من الأذى بمريم بالرغم من كل التضحيات الشخصية التي قدمها من أجل كفالتها.

نتيجة مفتراة: نحن نرى أن زكريا قد نادى ربه نداء خفيا مراعاة لمشاعر مريم المتواجدة معه في المحراب حينئذ.

لكن لو تفقدنا رد الملائكة بالاستجابة الإلهية لنداء زكريا الخفي ذلك، لوجدنا بأنه لم يكن خفيا:

- ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾ [آل عمران: 39]

ولا شك عندنا بأن مريم قد سمعت رد الملائكة هذا ووعته تماما، فأدركت على الفور الغاية والمقصد منه. فمريم تستطيع أن تفهم كلام الملائكة وخطابهم، وهم الذين كانوا يتواصلون معها على الدوام:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [آل عمران: 42]

فرسالة الملائكة الآن (لزكريا) واضحة جلية عند مريم، فها هي تعلم الآن أن زكريا قد طلب الذرية من ربه في تلك الساعة بنداء خفي، وأن الاستجابة الربانية قد جاءت مباشرة على لسان الملائكة، وأن البشارة لزكريا قد جاءت لا محالة بيحيى ليكون مصدقا لكلمة الله الذي تحمله الآن في بطنها، وأنه سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين:

- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

ولا أخال أن زكريا قد فاته أن مريم الآن قد علمت ما بدر منه من النداء وما حصل من الاستجابة الإلهية لذلك النداء، وأنها الآن تدرك ما يريده منها أن تفعله في تلك الساعة له، فكيف سيتصرف زكريا في تلك اللحظة بعد أن أدرك أن الرسالة الآن واضحة جلية عند مريم؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل (ربما مخطئين) بأن زكريا لن يتردد في أن يرسل رسالة أخرى واضحة لمريم مفادها أنه مازال يحب امرأته التي عقرته منذ زمن طويل. فكيف سيوصل تلك الرسالة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو دققنا في رد زكريا على الاستجابة الإلهية، لوجدنا فيها ما يلفت الانتباه على الفور، وهو ذكره لربه بأن امرأته عاقرا:

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]
- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم: 5]
- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم: 8]

ليكون السؤال على الفور هو: ألا يعلم الله بأن امرأته عاقرا؟ ألا يؤمن زكريا بأن الله يعلم أن امرأته عاقر؟ فلم يذكر زكريا ذلك صراحة لربه في تلك اللحظة على مسمع مريم التي ما زالت متواجدة معه في المحراب؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن بأن البشارة لزكريا بالذرية الطيبة قد تحصلت، ولا مجال للشك في ذلك. لذا، ستتحقق الذرية لزكريا بأي طريقة كانت. فكيف يريدها زكريا أن تتحقق له؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو كان زكريا مثلا يريد الذرية من غير امرأته العاقر، لعمد إلى الزواج من غيرها، أو لربما تحقق له ذلك من خلال أم مريم (إن كانت ما زالت على قيد الحياة). لكن زكريا يريد (نحن نرى) أن يوصل رسالة واضحة لمريم تبين ما في قلبه من حب لتلك المرأة الأولى التي عقرته منذ زمن طويل. فهو – بكلمات بسيطة- وكأنه يقول لمريم بطريقة غير مباشرة أنه لا يريد الذرية إلا من تلك المرأة فقط. وأكاد أجزم الظن أن هذا الأمر لن يفوت مريم، فهي الآن ترى مقدار التضحية التي قدمها زكريا من أجل كفالتها. فهو قد ضحى بحبه القديم الدائم مقابل أن يقوم بمهمته التي كلّفه بها ربه، ألا وهي كفالة مريم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لا شك عندنا الآن أن ما وصل لمريم في تلك الساعة فيما يخص زكريا نفسه هما رسالتان اثنتان لا ثالث لهما:

1. أن زكريا قد دعا ربه بالذرية الطيبة التي أصبحت لا محالة متحققة له بيحيى ليصدق بكلمة الله التي لازالت في بطنها، وليكون سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين.

2. أن زكريا يريد هذا الذرية من امرأته التي عقرته منذ سنين طويلة لأنه لازال يحبها ويريدها زوجة وحيدة له.

السؤال الكبير: ما الذي ستفعله مريم الآن؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا (أغرب من الخيال): لا شك عندنا أن مريم لا تستطيع أن تلد كلمة الله في المحراب. لذا، عمدت إلى أن تنتبذ من أهلها مكان قصيا ليجيئها المخاض هناك:

- ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾ [مريم: 22-23]

فعليها أن تخرج من المحراب في تلك الليلة متوجهة إلى ذلك المكان القصي، في البقعة المباركة من الشجرة. وما كان لمريم (نحن نرى) أن تذهب إلى ذلك المكان قبل أن تسد الدين لزكريا (لتقابل المعروف بالمعروف مثله). فما كان منها (نحن نتخيل) إلا أن تذهب في تلك الليلة قاصدة بيت أهل امرأة زكريا، لتخبرها بما حصل معها، وما حصل مع زوج تلك المرأة (زكريا)، وما بدر منه من مشاعر نحوها بحضور الملائكة في المحراب. وبالفعل تتجه مريم إلى بيت تلك المرأة، فتدق الباب في تلك الليلة، فتخرج عليها تلك المرأة، لترى بأم عينها أن مريم الآن تحمل كلمة الله، ولتخبرها بعد ذلك بأن الذرية قد تحققت لزكريا بيحيى سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، ولتوصل إليها رسالة مفادها أن زكريا قد ذكرها هناك، طالبا أن تكون تلك الذرية منها على وجه التحديد. فكيف ستكون ردة فعل تلك المرأة؟ نحن نسأل نساء العالمين أجمعين (بليز الزلم ما لهمش دخل – تحشروش حالكوا بشي ما بتفهموا فيه).

رأينا المفترى: لو حاولنا طرح التساؤل التالي على نساء العالمين: ما الذي يجعل المرأة تترك بيت زوجها وتعقره؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المرأة (أي امرأة) سليمة العقل والبدن لا يمكن أن تعقر بعلها وتترك بيتها إلا في حالة واحدة: إن هي شعرت أنه لا فائدة من وجودها في ذلك البيت، أي إن شعرت بالإهمال من قبل بعلها وأن هناك ما يشغله عنها ويتصرف على ذلك النحو.

السؤال: كيف يمكن اسقاط ذلك في حالة زكريا وامرأته؟

رأينا المفترى: لما كان زكريا قد كُلّف بمهمة من ربه بأن يكفل مريم، كان عليه أن يتزوج من أم مريم، وقد فعل زكريا ذلك (نحن نرى) رغما عن إرادته التي لم تكن كذلك. فالله هو من كفل زكريا مريم:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

فالآن زكريا – بشكل مفاجئ دون مقدمات لامرأته الأولى – يتزوج من أم مريم ويجلبها إلى بيته، ويجلب معها ابنتها مريم ويضعها في المحراب. وينشغل بهما عن امرأته الأولى وعن بيته. فماذا ستكون ردة فعل تلك المرأة على الفور؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما وجدت امرأة زكريا الأولى أن بعلها قد أحضر زوجة أخرى إلى بيته، وعليه أن يقوم بواجباته الزوجية نحوها في البيت، كما أن عليه أن يقضي نهاره في المحراب يرعى مريم، فأصبح مشغول عنها في يومها ونهارها بنساء أخريات، فهل ستطيق أن تبقى في البيت معهما على تلك الشاكلة؟ نحن نتساءل.

رأينا المفترى: لما كانت تلك المرأة هي امرأة زكريا الأولى، ولما كان زكريا هو سيد آل يعقوب، فإننا نتوقع أن تكون تلك المرأة ذات مواصفات مميزة من حيث الجمال والنسب والمكانة الاجتماعية. فيستحيل أن تتقبل امرأة كهذه وضعا طارئا جديدا كهذا دون سابق إنذار. فما كان منها إلا أن تترك البيت للضيوف الجدد، لتفسح المجال لبعلها أن يتصرف كما يحلو له. ونحن نتخيل أنها قد اتخذت قرارها على النحو التالي قائلة لبعلها زكريا ("يا حبيبي اتهنى بمرتك الجديدة ودير بالك ع بنتها وأنا طالعة ومش راجعة – فخذ راحتك ع الآخر"). فماذا ستكون ردة فعل زكريا على ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان زكريا قد وجد نفسه في تلك الحالة المربكة، كان عليه أن يتخذ قراره الذي يقلل من الخسائر بأقصى درجة ممكنة، فهو لا يستطيع ألا يكفل مريم، لأن هذا تكليف رباني، ولا يستطيع أن يترك أم مريم لأن هذا واجب ديني. ولكنه في الوقت ذاته لا يريد أن يلحق أذى أكبر بامرأته التي يحبها، فما كان منه إلا أن يُغّلب واجبه الديني على حقيقة مشاعره المحبة لامرأته حبا جما. فتركها تخرج من بيته، لتعيش حياتها، وتتخذ قرارها بنفسها، حتى لو وصل الأمر إلى أن تطلب الطلاق، فالانفصال التام إلى غير رجعة له، لتتزوج من غيره وتعيش حياتها كما يحلو لها، فلا يظلمها أكثر من ذلك نتيجة الظروف الطارئة التي وجد نفسه محاطا بها رغما عنه. فماذا فعلت تلك المرأة؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كانت تلك المرأة محبة حقا لزكريا، اتخذت القرار بأن تفسح له المجال ليقوم بمهمته كما صوّرها لها، لكنها لم تعدم الأمل بالعودة، فما اختارت الطلاق لتتزوج من غيره. فبقيت فترة طويلة من الزمن عاقرة له، لكن حبها له لم ينقص قيد أنملة. فهي تشعر (كامرأة) بحب زوجها لها، وهي لا تستطيع أن تتغلب على مشاعرها بحبها له، لكن ظروف الحياة هي التي أجبرتها على فراقه، يا حسرتي عليهم!!! (والله بدي أبكي يعني أعيط بالأردنية الدارجة).

فزكريا الآن أصبح بعلها، وأصبحت هي امرأة له، وذلك لوجود الخلافات بينهما، ولن يعودا زوجين إلا أن تنتهي تلك الخلافات، ويعودان زوجين متطابقين لا خلاف بينهما.

ولو دققنا في مفردة البعل والمرأة، لوجدنا أن الفلاح – مثلا- يتحدث عن الزراعة البعلية، وهذه الزراعة هي كذلك، لأنها غير مروية، أي تنبت الثمر بأقل قدر ممكن من الماء وبأقل قدر من الاهتمام، فما دام أن الماء الذي يسقي النبتة شحيحا ومادام أن الاهتمام بها قليلا، فالثمار تكون "بعلية". وكذلك هو الرجل البعل، فهو – برأينا- الذي يمد امرأته بأقل قدر ممكن من المشاعر والعواطف التي تقيم أمد تلك العلاقة وتقويها، لتنبت وتزهر. ومادام أن الرجل بعلا، لا يكثر من تغذية تلك العلاقة بما يجعلها تزهر وتثمر بأحسن حال، فإن الأنثى ستكون له امرأة (وليس زوجة).

ولو دققنا بمفردة "امرأة"، لوجدنا بأن لها علاقة بالمراء، والتواري، والمرآية، وجميعها لها علاقة بالشكل الخارجي ولا تصل إلى الجوهر. فالذين يراءون هم الذين يظهرون ما لا يبطنون:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ [النساء: 142]

ومادام أن العلاقة تصبح مراءاة، فإنها أقرب إلى سلوك النفاق منها إلى الإيمان، فالأنثى التي تجد زوجها بعلا (شحيحا بعواطفه ومشاعره واهتمامه)، تصبح الكثير من سلوكياتها نحوه أقرب إلى الرياء والمراءة (وربما النفاق). فقد تظهر له ما لا تبطن حقا.

ولو حاولنا الربط بين مفردة المرأة (woman) ومفردة المرآة (mirror)، لوجدنا على الفور بأن المرآة لا تعكس إلا ظاهر الشيء، فهي لا تنبئك بما في الجوهر، ولكنها تعكس لك فقط ما في الخارج، فهي أقرب إلى النفاق منها إلى الحقيقة. ولو دققنا أكثر، لوجدنا بأن المرآة لا تعكس لك الشكل الخارجي فقط، ولكنها تظهره لك معكوسا (على غير الحقيقة)، فلو مددت يدك اليمني باتجاه المرآة، لخدعتك الصورة بأنها يدك اليسرى، والعكس صحيح، فأنت ترى الصورة معكوسة، فتظن اليمين شمالا والشمال يمين. وهذا ما يكون من أمر الأنثى التي تكون امرأة لبعلها، فهي تعاكسه تقريبا في تصرفاته، فلو أحب شيئا، لربما أصبحت هي كارهة له، ولو أبغض هو شيئا، لأصبحت هي محبة له، وهكذا، حتى وإن لم تصرح بذلك في كل مرة. فيتولد عندها مشاعر معكوسة تجاه ما يحب أو ما يكره بعلها. فتصبح العلاقة بمجملها شكلية لا جوهر فيها، فهي حياة (وإن استمرت) تحكمها المصلحة، وتسيّرها ظروف الحال، أكثر منها علاقة حقيقية تغذيها المشاعر الصادقة والنبيلة، لتجعلها تنمو وتزدهر، فتدوم.

وهنا نوجه نصيحة لكل البعول والمرات (النسوان) ألا يلق أحدهم باللائمة على الآخر، فالأنثى التي تريد اهتماما من زوجها عليها ألا تكون مرآة (mirror) تعكس ظاهرا وتبطن نفاقا، وتوافقه ظاهرا وتخالفه باطنا. والرجل الذي يريد حبا وإخلاصا من امرأته، عليه ألا يكون بعلا شحيحا في اهتمامه وحبه لها، بل عليه أن يروي تلك العلاقة بالحب والاهتمام. (افهمتوا والا أعيد – إن شاء الله عمركوا ما فهمتوا – انتو حرين – خليكوا منافقين مخادعين – بس مش حتضحكوا علي حتى لو ضحكتوا ع بعض).

المهم: ماذا ستفعل امرأة زكريا؟

رأينا المفترى: لمّا كانت امرأة زكريا من عائلة كريمة، وذات طبع سليم، وخلق رفيع، لم تكن لتبقى "امرأة" (أو مرآة) في بيت بعلها زكريا، فهي لن تخدع الرجل لأنها فعلا محبة له، فهي من الذي امتدحهم الله في كتابه الكريم:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: 89-90]

ومادام أنها من تلك العائلة الكريمة ومن تلك الشجرة الطيبة، فلن ترضى بأن تكون امرأة (مرآة)، ولن تستمر في علاقتها مع زكريا كبعل لها، فهي لا تريد أن تخدع الرجل، ولا تستطيع ذلك، لسببين اثنين لا ثالث لها. أولهما، أنها امرأة ذات أصل طيب وعلى عقيدة سليمة. وثانيهما، أن زكريا لا يستحق منها ذلك لأنه رجل كريم، وما فعل ما فعل بها إلا لأمر خارج عن قدرته واستطاعته، فهي لن تكلفه ما لا يطيق. فما الذي فعلته؟

رأينا المفترى: لقد آثرت المرأة أن تخرج من بيت بعلها حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وتنصلح حالهما، فما طلبت الطلاق منه، وما آثرت الزواج بغيره. فبقيت في بيت أهلها عاقرة له حتى جاءتها مريم في تلك الليلة وقصت عليها خبر ما حصل في المحراب في تلك الليلة. فما الذي ستفعله المرأة على الفور؟

رأينا المفترى: لما كانت المرأة تحب زوجها حبا جما، ولما علمت بأن حبه لها لم ينقصه تقلب السنون وتغير الأحوال، ولما علمت أن الله قد بشره بذرية طيبة، ليكون سيدا وحصورا ونبيا ومن الصالحين، ولما علمت أن زكريا لا يرغب بتلك الذرية الطيبة إلا منها، ما كان منها (نحن نتخيل) إلا أن تحمل صرتها (كيس الملابس)،

وتعود مسرعة بنفسها إلى بيت زوجها، فأصبحت زوجة له بعد أن كانت امرأته، وأصبح هو زوجا لها بعد أن كان بعلا لها. (شو رأي النسوان بالهحكي – رجاء الزلم ما يدّخلوا مرة ثانية).

ولو دققنا أكثر في هذا السيناريو المفترى من عند أنفسنا، لربما وجدنا على الفور بأن مريم هي من كانت الحكم من أهل زكريا (فهي كفيلته) وهي نفسها الحكم من أهلها (من تلك العائلة بنسب والدها عمران):

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥﴾ [النساء: 35]

وعادت المرأة في تلك الليلة إلى بيت زوجها بنفسها، وتجملت، وتجهزت له، وقالت له "هيت لك"، فكانت ليلة مخملية عن جد. وخلص، هسه بصير أخبص.

وللحديث بقية.

دعاء: نسأل الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه في ذلك لا ينبغي لأحد دوننا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانا نصيرا، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & محمد معتصم مقداد & علي محمود سالم الشرمان

بقلم: د. رشيد الجراح

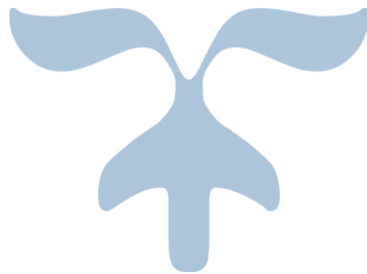
1 كانون ثاني 2020



الجزء التاسع

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء التاسع: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

سنتابع افتراءاتنا في هذا الجزء من الكتاب عن قصة ميلاد المسيح عيسى بن مريم وما رافقها من أحداث رئيسية حول ميلاد يحيى بن زكريا، وسنطرح تساؤلات جديدة عن قصة هذين النبيين الكريمين، محاولين تقديم افتراءات جديدة – هي لا شك من عند أنفسنا- عن تلك القصة كما نتخيلها (نحن) قد حصلت على أرض الواقع، والهدف من ذلك هو حَبك تفاصيل القصة مع بعضها البعض بطريقة ترقى إلى مستوى القصة القرآنية كما بيّنها الله في كتابه الكريم. ولكن قبل الدخول في تفاصيل جديدة عن القصة ذاتها، دعنا نذكر القارئ الكريم بالخطوط العريضة للقصة كما افتريناها في الأجزاء السابقة من هذه المقالة وفيما سبقها من مقالات أخرى حول كيفية خلق المسيح عيسى بن مريم.

أما بعد،

كانت أبرز ما افتريناه من عند أنفسنا سابقًا عن قصة خلق المسيح ما يلي:

- ولد المسيح في ليلة السلام، فكان السلام عليه مباشرًا
- غاب عن أمه فترة من الزمن بعد مولده مباشرة، فكان ذلك هو – نحن نرى- السبب بأن لا تقر عينها وتحزن حتى عاد إليها محمولًا في التابوت، لابسًا لباس التقوى.
- ظننا بأن المسيح قد ولد صبيًا، فما كان طفلا منذ ولادته، وبالتالي لم يكن يحتاج إلى إحسان من أحد (حتى من والدته)، فكان – بالمقابل- بارًا بها ولم يكن محسنًا بها.
- افترينا الظن بأن قدمي المسيح عيسى بن مريم ما وطئت الأرض قط، فكان على الدوام محمولًا في التابوت.

أما ما يتعلق بميلاد يحيى، فقد افترينا ما يلي:

- ولد يحيى كذلك في ليلة القدر، فجاءه السلام بطريقة غير مباشرة، فكان "سلامٌ عليهِ"،
- طلب زكريا الذرية الطيبة من خلال امرأته التي كانت حتى الساعة عاقرًا له، فجاء إصلاحها في تلك الليلة عن طريق مريم التي مارست دور الحكم من أهله والحكم من أهلها معًا. فهي من خرجت من المحراب في تلك الليلة متجهة إلى المكان القصي، لكن في خلال تلك الرحلة عرجت على بيت امرأة زكريا وأخبرتها بالبشرى التي جاءت زوجها بيحيى سيدًا وحصورًا، فعادت المرأة إلى بيت زوجها، وكانت هي والدة يحيى من ذرية زكريا.
- افترينا الظن كذلك بأن يحيى لم يكن له من قبل سميا، لأنه لم يكن من ذرية آدم التي خلقت قبل السجود لآدم، فكان الله هو من خلقه في تلك اللحظة وأطلق عليه الاسم يحيى، فما كان يحيي (كما لم يكن المسيح) من ذرية آدم. فهما الوحيدان اللذان ولدا صبيا، وهما الوحيدان اللذان كانا تقيا، وهما الوحيدان اللذان كانا يقدمان البر وليس الإحسان للوالدة (كما في حالة المسيح) وللوالدين (في حالة يحيى).

(للتفصيل انظر الجزء السابق من هذا الكتاب)

وسنتابع الحديث في هذا الجزء الجديد من المقالة ذاتها حول قصة خلق ميلاد هذين النبيين الكريمين منطلقين من هذه الافتراءات السابقة، وسنبدأ بالتساؤل المثير التالي: لماذا طُلِب من مريم أن تقول لمن ترى من البشر أنها نذرت للرحمن صوما فلن تكلم اليوم إنسيا؟

- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 26]

فهل نفّذت مريم ما طُلب منها فعلًا؟ لِم لَم تتلفظ مريم بالعبارة ذاتها كلاميًا؟ أي لمَ لم تقل لهم " إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا "؟

رأينا المفترى: نحن نفهم بأن مريم قد نفذت ما طُلب منها على الوجه الصحيح، فهي مطلوب منها ألا تتكلم، ولو فعلا رددت مريم العبارة ذاتها التي طُلب منها قولها " إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا " لفظًا، لكانت قد خالفت بذلك الأمر الذي طلب منها تنفيذه وهو ألا تكلم من البشر أحدًا. فجل الرسالة التي تلقتها مريم هناك هي أن تمتنع عن الكلام نهائيًا. لذا، فمريم لن تتلفظ بعبارة كلامية أمامهم، وعليها أن تبقى صامتة، لكن عليها أن توصل لهم الرسالة بكل وضوح، وهي أنها قد طلب منها ألا تتكلم، فما كان منها إلا أن تشير إلى ما تحمله إشارة وليس حديثًا:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: 27-29]

السؤال: ما الذي فهمه القوم من اشارة مريم تلك؟

رأينا المفترى: نحن نفهم بأن مريم قد أوصلت للقوم رسالتين اثنتين، وهما:

- أنها ممنوعة من الكلام نهائيًا
- أن هذه رسالة قد جاءتها بتكليف من مصدر آخر

الدليل: باب النذر

من أجل جلب الدليل على هذه الافتراءات التي هي من عند أنفسنا، علينا أن نعاود البحث في مفردة "نذرت" التي ترد في هذه الآية الكريمة:

- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 26]

ليكون السؤال المحوري هنا هو: ما معنى مفردة "نَذَرْتُ" كما وردت في هذه الآية الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفردة "نذرت" لها علاقة بالإنذار، كما ترد في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: 6]
- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213]

- ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: 270]
- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا بأن مهمة الرسل هي أن يكونوا مبشرين ومنذرين، وأن البشارة تكون للحصول على الخير، وأن النذر (الإنذار) يكون هدفه تجنب وقوع العذاب عليهم (المشاكل المتوقعة). فمهمة الرسول - كبشير - تتمثل في نقل الخبر بالخير لمن حوله (بشيرًا)، ليتحصلوا منه ما استطاعوا، ومهمته – كنذير- هي نقل الخبر بالعذاب (كنذير)، فيتجنبوه من استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ولو دققنا أكثر في مفردة النذير، لوجدنا بأن ذلك تكليف من مصدر أول (كالوحي) لنقله إلى طرف آخر (الناس). فالرسول (كنذير) يحمل تكليفًا من ربه إلى الناس من حوله. فالرسول هو إذاً من يقوم بمهمة الإنذار، فهو نفسه النذير، لكن ما يهمنا قوله هنا هو أن الرسول ليس مصدر الإنذار، وليس صاحب القرار فيه. فبالرغم أنه هو النذير، لكنه ليس أكثر من حامل للرسالة من ربه إلى الناس من حوله.

السؤال: ما علاقة هذا بقول مريم "فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا"؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن مريم مأمورة بأن توصل للقوم رسالتين اثنتين، وهما:

- أنها ليست هي من اتخذت القرار بعدم الكلام، ولكنها تحمل هذه الرسالة من مصدر سابق (الوحي)
- أنها تنذرهم من هذه الذرية، لأنه سيكون نذيرًا كما سيكون بشيرًا.

السؤال: من الذي يوجّه إليهم الإنذار؟

جواب مفترى: القوم كل القوم.

السؤال: من الذي يستفيد من الإنذار؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن الذي سيستفيد من الإنذار هم الذين يتبعون الذكر ويخشون ربهم بالغيب.

- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: 11]

والذي يستفيد من الإنذار هو – لا شك- من كان حيّا، لذا يستحيل أن يستفيد من ذلك الإنذار من كان من الكافرين الذين – لا محالة- سيحق عليهم القول بالعذاب:

- ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: 70]

وذلك لأن الكافرين أموات غير أحياء ولكن لا يشعرون:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: 20-21]

وهنا نتوقف لنلفت انتباه القارئ الكريم إلى الفرق بين الأموات والموتى، ففي حين أن الأموات (نحن نظن) ما زالوا على قيد الحياة بدليل أن من كان يدعو أحدًا من دون الله فهو من الأموات، فإن الموتى هم الذين فقدوا الحياة، بدليل أن الله هو من سيبعثهم:

- ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٣٦﴾ [الأنعام: 36]
- ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة: 73]
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝١٢﴾ [يس: 12]
- ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: 40]

لذا، كان يأتي الإنذار جليّا لمن كان يدعو من دون الله، ولكل من سيقول بأن لله ولد:

- ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: 4-5]

منطقنا المفترى: نحن نظن بأنه ما دام أن مريم قد "نذرت"، فهي إذًا مكلّفة من مصدر سابق (الوحي)، لتنذر القوم بأن ما جاءت تحمله سيكون لا محالة نذيرًا (كما سيكون بشيرًا)، وتحذرهم في الوقت ذاته ألا يدعو من دون الله أحدًا، وألا يدعو لله الولد.

ولو عدنا إلى ما قالته أم مريم عندما حملت بمريم:

- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ [آل عمران: 35]

فهي إذًا تعلم أن مهمة ما في بطنها ليس أكثر من إشارة بقدوم العذاب على القوم إن هم أصروا على ما هم عليه من التعنت في قبول دعوته كبشير. لذا نحن نتجرأ على الظن بأن ميلاد مريم كان أشارة واضحة على اقتراب وقوع العذاب الإلهي، لأن ما في بطنها سيكون نذيرًا.

السؤال: ما هو النذر؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن النذر هو عبارة عن مهمة يكلِّف بها طرف ما طرفًا آخر للقيام بها نيابة عنه. انتهى.

الدليل: دعنا ندقق بالآيات الكريمة التي ترد فيها مفردة النذر:

- ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝٢٧٠﴾ [البقرة: 270]
- ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: 7]
- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج: 29]

فلو دققنا مليًّا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا أن هناك فرقًا بين النَّذْرِ من جهة والنُّذر من جهة أخرى:

- ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝٢٧٠﴾ [البقرة: 270]

فالنَّذر إذا لا يقع في باب الصدقات. فما هو؟

ولو دققنا في الآيات ذاتها، لوجدنا بأن النَّذر إلزاميا، وأن الذين يوفون به هم الذين يخافون يوما كان شره مستطيرًا:

- ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: 7]

وأن النذور من الأفعال التي على الحاج الإيفاء بها بالإضافة إلى قيامه بأعمال أخرى كقضاء التفث والتطواف بالبيت العتيق:

- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج: 29]

السؤال مرة أخرى: ما هو النَّذر إذًا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن النَّذر يختلف عن غيره من الأفعال على أساس أنه تكليف من طرف ما لطرف آخر ليقوم هذا الطرف الثاني بتنفيذه نيابة عن ذاك الطرف الأول. فالحاج يجب أن يوفي بالنَّذر، أي القيام بما أوكله به غيره نيابة عنه، بعد أن تعهد هذا الطرف الثاني بإداء المهمة نيابة عن الطرف الأول. فلو طلبت منك أنا شخصيًا أن تنفق ألف دينار نيابة عني في مكان ما (ربما لأني لا أستطيع الوصول إلى ذلك المكان لسبب ما)، وقبلت أنت بهذه المهمة. فما عليك إلا أن توفي التزامك لي بأن تنفق هذا المبلغ نيابة عني، لذا لا يقع النَّذر في باب الصدقة، لأن الصدقة لا تكون إلا التزامًا شخصيًا يقوم به الشخص بنفسه، أما النذر فهو التزام شخصي يقوم به الشخص نيابة عن غيره. وبكلمات أخرى، هو ليس أكثر من تعهد من الشخص للقيام بالمهمة نيابة عن غيره الذي أوكله بالمهمة ووافق هذا الشخص على القيام بتلك المهمة كما طلبها منه الشخص الأول. فما دمت أنك قد تعهدت لي بأن تقوم بالعمل نيابة عني بتكليف مني، فعليك أن تفي بذلك. فهو بكلمات بسيطة عبارة عن دين لي في رقبتك أن تقوم بالمهمة الموكلة إليك مني.

فتصبح أطراف المعادلة هي ثلاثة:

- الشخص الأول الناذر (صاحب الحاجة الغائب)
- المهمة الموكلة للشخص الأول
- والشخص الثاني المنذر (الحاضر المنفذ للمهمة).

لذا، مادامت امرأة عمران قد نذرت ما في بطنها، فهي إذًا مكلّفة من طرف أول للقيام بالمهمة في غيابه. فامرأة عمران (نحن نرى) مكلّفة من بعلها الغائب (عمران) أن تجعل ما في بطنها محررًا:

- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ [آل عمران: 35]

وعندما نذرت مريم ألا تكلم اليوم إنسيًا، فهي إذًا مكلفة (نحن نرى) من طرف أول (الوحي) أن توصل للقوم رسالة كلامية مفادها بأنها لن تكلم اليوم إنسيًا.

ولو دققنا بما فعله زكريا، لوجدنا أنه يشبه في ظاهره ما فعلته مريم، ألا وهو الامتناع عن الكلام. انظر التقابل بين الحالتين:

حالة مريم: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم: 26]

حالة زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: 41]

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم: 10]

لكن على الرغم من تشابه الحالتين ظاهريًا، إلا أن هناك اختلافًا جوهريًا بينهما، ألا وهو أن حالة مريم تقع في باب النذر، بينما حالة زكريا لا تقع في باب النذر، ليكون السؤال هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن زكريا لم يكن مكلفًا بأن يوصل تلك الرسالة لقومه، بل هي آية له بذاته. بينما كانت مريم – بالمقابل- مكلفة بإيصال هذه الرسالة للناس. فمريم إذًا مكلفة بتوصيل الرسالة لغيرها، لكن زكريا مكلف بأن يحمل الرسالة لذاته. لذا كان ما فعلته مريم هو اشارة:

- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: 29]

فجاء رد القوم يبين أنهم قد فهموا الرسالة المنقولة إليهم عن طريق مريم، فقالوا "كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا". لكن كان ما فعله زكريا – بالمقابل- هو وحيًا:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 11]

فما كان هناك رد من القوم اطلاقًا على ما أوحى إليهم زكريا به.

السؤال الجديد: لماذا كان ما وضعته امرأة عمران انثى وليس ذكرًا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا السؤال يعيدنا إلى محاولة تخيّل ظروف المكان والزمان والحال حينئذ. فقد كان القوم هناك – نحن نتخيل – منقسمين إلى فئات متنافسة، نذكر منهم آل يعقوب (وممثلهم زكريا) وآل عمران (وممثلهم عمران نفسه). وقد كانت السيادة الفعلية (نحن نتخيل) لآل يعقوب، في حين كان آل عمران هم من الموالي. ولما جاء الاصطفاء الإلهي لآل عمران في ذلك الوقت، كان العداء سيكون (نحن نتخيل) محتدما من أوله مع آل عمران، ولربما كانت مكيدة آل يعقوب (خاصة العلماء منهم) ستكون كبيرة بآل عمران لو أن امرأة عمران قد وضعت ما في بطنها فكان ذكرًا. ليكون السؤال الآن: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: كان في آل يعقوب حينئذ العلماء (أصحاب الأقلام):

- ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: 42-44]

وكان هؤلاء العلماء (نحن نظن) سيشكون بأن الاصطفاء الإلهي قد يكون من نصيب آل عمران لو أن امرأة عمران وضعت ما في بطنها فكان ذكرًا، ولكان اسمه حينئذ موسى كما كان موسى ابن عمران في سابق الزمان (أيام العهد الفرعوني). لذا، نحن نتخيل بأنه لو وضعت امرأة عمران ما في بطنها ذكرًا، لكان اسمه موسى. ولكن لمّا وضعتها انثى، اسمتها مريم على اسم أخت موسى وهارون القديمين. فلقد كان لعمران هذا (والد مريم) ولد ذكرًا من امرأة اخرى، وكان اسمه هارون:

- ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝٢٨﴾ [مريم: 28]

وكان عمران هذا يتوقع أن تنجب امرأته هذه ولدًا ذكرًا ليسميه موسى. لكن لمّا وضعت امرأة عمران ما في بطنها انثى، لم تجد خيارًا آخر إلا أن تسميها مريم. السؤال: ما سر كل هذا التكتيك (إن صح القول)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا من باب المكر الإلهي ليصد مكر القوم من حول الرسول الجديد (عيسى)؟

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو أن امرأة عمران وضعت ما في بطنها فكان ذكرًا، لأسمته موسى، ولعلم علماء آل يعقوب حينئذ بأن هذا المولود هو الرسول المنتظر، ولعمدوا حينها (نحن ما زلنا نتخيل) على التخلص منه في الحال. لكن لمّا وضعت امرأة عمران ما في بطنها، فكانت انثى، ارتاح القوم، لظنهم بأن الرسل لا يكونوا إلا رجالًا من الناس، قال تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾ [الحج: 75]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل: 43]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: 7]

فلقد ظن القوم (محقين طبعًا) بأن هذه الأنثى لن تكون رسولًا، لأنها (كواحدة من نساء العالمين) ليست رجلًا من الناس. لكنهم لم يدركوا في الوقت ذاته أن هذا من المكر الإلهي لصد خطرهم المتوقع. وما كان من كل آل يعقوب من يستحق أن يقوم على رعاية هذه الطفلة (بكفالتها) إلا شخص واحد هو زكريا (سيد آل يعقوب)، فهو وحده من كان (نحن نظن) مدركًا للمكر الإلهي، لكنه لم يكن يستطيع إلا أن ينزل عند القرار الإلهي، لكونه من الصالحين الذين يسارعون في الخيرات ويدعون ربهم رغبًا ورهبًا:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: 89-90]

لذا، أوكل الله مهمة رعاية مريم لهذا الصالح من آل يعقوب، فكفّله إياها:

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 36-37]

فتولى زكريا منذئذ مراقبة مريم بنفسه في المحراب، فكان بمثابة الوقاية لها من مكر علماء قومه من حولها. فالتزم زكريا بتلك المهمة على حساب حياته الشخصية، لدرجة أنه آثر أن تعقره امرأته (التي يحبها حبًا جمًا) في

سبيل كفالة مريم. فقضى سنين من عمره صابرًا على ذلك حتى حانت الساعة التي يستفيد منها بطلب الذرية من ربه بيحيى.

(للتفصيل انظر الجزء السابق من هذا الكتاب).

وعندما حملت مريم كلمة الله، لم يطّلع على ذلك إلا زكريا. ولما عادت مريم به تحمله، كان زكريا غائبًا عن المشهد كله، فكان الخطاب قد جرى بين مريم من جهة وقومها من جهة أخرى:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]

ولما كان ما تحمله مريم صبيًا (تظهر عليه علامات العمر الذي تعدى مرحلة الطفولة)، ما كان ليخطر ببال أحد من القوم (نحن نتخيل) بأن هذا هو ابن مريم. ولكنهم ظنوا أن مريم ربما وجدته في مكان ما، فأخذته لتحافظ عليه وترعاه شفقة منها عليه.

نتيجة مفتراة مهمة جدًا جدًا: نحن نتجرأ على الظن بأنه لم يكن أحد من القوم ليظن (أو حتى ليخطر بباله) بأن مريم هي أم هذا الصبي الذي جاءت به تحمله. وما كان أحد ليتخيل بأنها قد حملته في بطنها من ذي قبل، وما كان أحد منهم ليعتقد بأن هذا الصبي مختلف في طبيعة خلقه عن غيره من الصبيان. لكن كان كلّ ما يميز هذا الصبي (عندهم) أنه يتحدث في المهد بلسان غير لسانهم، فما استطاعوا أن يحاوروه حينئذ، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق كله من هذا المنظور:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: 27-34]

نعم، لقد كان القوم يمترون فيه "ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ".

ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن أن نفهم أن القوم كانوا فيه يمترون؟

رأينا المفترى: لو دققنا في مفردة يمترون في السياق القرآني التالي:

- ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: 48-50]

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية التي تصور لنا ما حصل مع قوم لوط بخصوص العذاب الذي سيقع عليهم:

- ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: 63-64]

لوجدنا أن من كانوا يمترون في شيء، فهم الذين كانوا يعلمون احتمالية حصوله، لكن كان ما ينقصهم هو العلم الأكيد بكيفية ووقت حصوله. فلقد كان القوم من حول لوط يظنون بأن العذاب عليهم ممكن الحصول،

لكنه لم يكن عندهم العلم القاطع بكيفية حصوله ولا بالوقت الدقيق لحصوله، فما كان الله ليأخذهم إلا من حيث لا يحتسبون.

ولو ربطنا هذا بقصة عيسى بن مريم، لوجدنا أن الذين اختلفوا فيه قد كانوا في شك منه:

- ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾ [النساء: 157]

تلخيص ما سبق: كان القوم حينئذ (خاصة العلماء منهم) يمترون في عيسى بن مريم، فكانوا يتوقعون قدومه، لكنهم لم يكن عندهم العلم القاطع بآلية حصول ذلك ولا بوقت حصوله على وجه التحديد.

منطقنا المفترى: نحن نظن بأنه لو كان ما وضعته امرأة عمران ذكرًا، لقطع شكهم باليقين، ولعمدوا إلى التخلص منه في مهده. لكن لمّا كان ما وضعته امرأة عمران انثى، ظن القوم أن الفرصة قد فاتت آل عمران، لأن الرسالة لا تكون إلا بذرية من الذكور. فحط القوم في بطونهم (كما يقول المثل الشعبي) "بطيخة صيفي"، وظنوا أن الفرصة لا زالت قائمة في أن يكون الرسول منهم (أي في آل يعقوب).

ولو تدبرنا النص القرآني جيدًا، لوجدنا على الفور الغياب التام لمريم وابنها عن المشهد حتى مجيء عيسى لهم بالرسالة ليكلمهم في الكهولة كما كلمهم في المهد:

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

ليكون السؤال الحتمي الآن هو: أين غابت مريم بابنها المسيح عن المشهد كل هذا الوقت من الزمن (أي من سن الصبا إلى سن الكهولة)؟

رأينا المفترى: لقد غابت مريم عن القوم، فاتخذت من قومها مكانًا قصيًا، فمكثت هي وابنها في الكهف في المكان القصي (أي الكهف المتواجد تحت المسجد الأقصى).

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق القرآني التالي:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

لوجدنا بأن عيسى ابن مريم الذي كلم الناس في المهد وكهلًا قد كان مؤيدًا بروح القدس "إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ"، أليس كذلك؟

السؤال: ما الذي نستفيده من ذلك؟ أو ما علاقة ذلك بمكوث عيسى بن مريم في كهف في المكان المقدس؟

رأينا المفترى: لمّا كان عيسى بن مريم مؤيدًا بروح القدس، لم يكن يستطيع (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) أن يتواجد خارج تلك المنطقة الجغرافية، فنحن نظن (ربما مخطئين) بأن روح القدس يستحيل أن

يتواجد خارج هذه المنطقة، لأنه أصلًا لا يتنزل إلا هناك. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في جميع السياقات القرآنية التي يرد فيها ذكر روح القدس:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: 87]
- ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: 253]
- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]
- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: 101-102]

ولو تدبرنا هذه الآيات على مساحة النص القرآني، لوجدنا التلازم الذي لا يكاد ينفك بين روح القدس من جهة وعيسى ابن مريم من جهة أخرى، فعيسى ابن مريم هو الرسول الوحيد (من بين جميع رسل الله) الذي كان مؤيدًا على الدوام بروح القدس (ميكال). كما نجد في الوقت ذاته بأن روح القدس هو الذي نزّل الكتاب الذي جاء محمدًا، فكان ذلك جملة واحدة:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 32-33]

وكان ذلك في الليلة المباركة:

- ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: 1-3]

وهذه الليلة لا تحدث مكانيًا (نحن نظن) إلا في المكان المقدس، حيث تنزل الملائكة والروح فيها:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: 1-5]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: نحن نعتقد بأن روح القدس لا يتنزل إلا في القدس، في الواد المقدس طوى على وجه الدقة. وما دام أنه هو الذي أؤيد به عيسى، فعيسى كان على الدوام متواجدًا هناك.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: روح القدس هو الذي نزل بالقرآن جملة واحدة، وما كان ترتيله على دفعات إلا من خلال الروح الأمين (جبريل) الذي كان يتنزل على محمد في البلد الأمين.

السؤال: أين إذا غابت مريم بأبنها عن أعين الناس فترة طويلة من الزمن؟

رأينا المفترى: لو فتشنا في تراث أهل الكتاب من المسيحيين عن حياة عيسى بين فترة الصبا (عندما كلم الناس في المهد) وفترة إلقاء التعاليم (تكليم الناس في الكهل أو ما يسمى بالكرازة في التراث المسيحي)، لما وجدنا عندهم شيئا يستحق الذكر، وجل ما لديهم ليس أكثر من مجموعة من الروايات المتناقضة التي تبين بما لا يدع مجال للشك أن القوم قد اختلفوا فيه.

- ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾ [النساء: 157]

السؤال: لماذا غاب المسيح كل هذه الفترة الطويلة من الزمن عن المشهد (عن نظر القوم)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو أن المسيح لم يكن لتطأ قدماه الأرض.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المسيح قد كان على الدوام محمولًا في التابوت. انتهى.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟ وكيف يمكن أن نتخيل المشهد؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن مريم قد أتت به قومها تحمله، قال تعالى:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]

ليكون السؤال الآن هو: ما الذي كانت مريم تحمله عندما أتت به قومها؟

جواب مفترى: ربما يظن البعض بأن مريم كانت تحمل ابنها المسيح، أليس كذلك؟ لكن يبقى التساؤل قائما: كيف كانت تحمل المسيح؟ هل كانت تحمله بين ذراعيها أو على كتفيها مثلًا؟ وماذا عن المهد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مريم كانت تحمل المسيح الذي كان متواجدًا في المهد، فهي إذًا لا تحمل المسيح مباشرة، بل تحمله بطريقة غير مباشرة، بواسطة المهد، بدليل قولهم لها "قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا". وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق الأوسع للآية الكريمة السابقة:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: 27-29]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما أتت مريم قومها تحمله، كانت تحمل المسيح الموجود في المهد، فمريم إذًا تحمل المسيح بطريقة غير مباشرة، لكنها تحمل المهد المتواجد به المسيح بطريقة مباشرة.

فالحمل يمكن أن يكون بطريقة غير مباشرة من خلال أداة، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢﴾ [التوبة: 92]

فلو أنّ النبي كان يملك من الدواب ما يحمل عليه هؤلاء، لكان هو من يحملهم، لكن يستحيل أن نظن بأن حمل الرسول لهم كان مباشرًا، ولكنه حملًا غير مباشر من خلال أداة الحمل.

السؤال: كيف استطاعت مريم أن تحمل التابوت الذي يتواجد به هذا الصبي كل هذه المسافة التي تفصلها عن قومها في طريق عودتها إليهم؟

رأينا المفترى: لو لصدقنا افتراءنا السابق بأن المهد هو نفسه التابوت، لأصبح لزامًا علينا أن نستدعي السياق القرآني التالي الذي يرد فيه طريقة حمل التابوت في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 247-248]

نعم، لقد كان التابوت محمولًا من قبل الملائكة، وما كان من مريم إلا أن تحمل ذلك التابوت الذي كانت الملائكة أصلًا تحمله، فما كانت مريم إذًا ستجد عناء في حمله كل تلك المسافة الطويلة حتى أتت به قومها.

السؤال: هل فعلًا أن المهد الذي أتت به مريم قومها تحمله هو التابوت ذاته الذي كانت الملائكة تحمله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا المهد هو ذاك التابوت، ولكن لكي نجلب الدليل على هذا الافتراء الخطير جدًا (الذي هو لا شك من عند أنفسنا)، علينا أن نطرح التساؤلات التالية على الفور:

- ما هو التابوت؟
- ما هو المهد؟
- من أين حصلت مريم على ذلك المهد؟
- ما أهمية ذلك المهد؟
- الخ.

لو رجعنا إلى مفردة التابوت، لوجدنا بأن أول ظهور له كان في قصة موسى، عندما طلب منها أن تقذف ابنها الصبي (موسى) فيه، لتقذفه بعد ذلك في اليم:

- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: 38-39]

فكان ذلك التابوت هو أداة نجاة موسى من قبضة فرعون. وما أن رد الله موسى إلى أمه حتى غاب ذكر ذلك التابوت من المشهد كله، وما عاد للظهور من جديد إلا في قصة طالوت في الزمن الذي ظهر فيه داوود، كآية ملك لطالوت:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ

وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 247-248]

تساؤلات:

- لماذا اختفى ذكر التابوت من زمن موسى حتى ظهوره من جديد في زمن داوود؟
- لماذا ظهر مع طالوت على وجه التحديد؟
- من هو طالوت هذا؟
- الخ.

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن التابوت هو آية الملك والانتصار في بني إسرائيل، لذا نتجرأ على البوح بالافتراء الخطير جدًا جدًا التالي: ما ظهر التابوت في بني إسرائيل إلا جاءهم النصر، وما غاب التابوت إلا كان ذلك هزيمة وانحسار لهم ولملكهم. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى قصة خروج بني إسرائيل من أرض مصر، لوجدنا بأنه قد طلب من نبيهم موسى أن يسر بهم من أرض مصر قاصدين الأرض المقدسة:

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: 23-24]

ليكون السؤال الحتمي هو: كيف خط بنو إسرائيل طريق خروجهم من أرض مصر باتجاه الأرض المقدسة؟ ولم اتجهوا نحو البحر مادام أنهم أصلًا متبعون (من فرعون وجنوده)؟ ألم يكن من البديهي أن يشكل البحر عائقًا لهم حتى يلحقهم فرعون وجنوده؟ فلم رضي القوم السير باتجاه البحر؟ الخ.

رأينا المفترى الخطير جدًا: نحن نظن بأن قوم موسى (بني إسرائيل) لم يكونوا يعلمون خط سير الرحلة على وجه التحديد، فكان عليهم أن يسيروا بتوجيه إلهي إلى حيث المكان الذي اختاره الله بنفسه لمواجهة فرعون وجنوده، فكيف تم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن خط سير الرحلة كان مرسومًا بأمر الله عن طريق التابوت. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القوم كانوا يتبعون التابوت حيثما توجه مادام أن هذا التابوت كانت تحمله الملائكة. فالتابوت هو الذي يخط لهم طريق العودة إلى الأرض المقدسة منذ اللحظة الأولى لخروجهم من أرض مصر. فما كان لهم خيارًا إلا أن يتبعوا خط مسير التابوت حيثما توجه.

نتيجة مفتراة: التابوت هو أداة وصول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة.

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

رأينا المفترى: ما أن خرج موسى ببني إسرائيل من أرض مصر، وما أن اقتربوا من دخول الأرض المقدسة حتى حصلت الحادثة التالية:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝﴾ [المائدة: 20-21]

فهذا موسى إذا يطلب من قومه دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، فماذا كانت ردة فعلهم المباشرة على طلب نبيهم هذا؟

جواب مفترى: رفض القوم رفضًا قاطعًا أن يدخلوها مادام القوم الجبارين متواجدين فيها:

- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝﴾ [المائدة: 22]

وما نزل عند طلب موسى إلا رجلان فقط من بني إسرائيل:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝﴾ [المائدة: 23]

لكن قول هذين الرجلين لم يكن ليثني بني إسرائيل جميعًا عن قرارهم القاطع بعدم دخول الأرض المقدسة:

- ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ۝﴾ [المائدة: 24]

السؤال: ماذا كانت نتيجة رفضهم القاطع هذا؟

جواب مفترى: اختار موسى الانفصال عنهم بما تبقى معه من المؤمنين، فطلب من ربه أن يفرق بين المؤمنين من جهة والقوم الفاسقين من جهة أخرى:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝﴾ [المائدة: 25]

السؤال: ماذا كان القرار الإلهي الفوري حينئذ؟

رأينا المفترى: حرم الله عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة يتيهون في الأرض:

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۝﴾ [المائدة: 26]

السؤال: كيف تاه بنو إسرائيل أربعين سنة؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا: لقد فقدوا التابوت الذي كان يوجه مسيرهم باتجاه الأرض المقدسة. انتهى.

السؤال: ما فائدة مثل هذا الطرح الآن؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا (لا تصدقوه): نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لا شرعية (عقائدية) لبني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة بغير التابوت. فدخول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة بدون التابوت هو احتلال قسري لا شرعية فيه. فمهما كانت نتائج اجتماع نتنياهو (رئيس وزراء إسرائيل) مع ترامب (الرئيس الأمريكي) اليوم في البيت الأبيض فهي باطلة مادام التابوت ليس موجودًا بين أيديهم. لذا، نحن نتجرأ على توجيه الرسالة القصيرة التالية للمجتمعين: إذا كنتم تظنون أن الأرض المقدسة هي حق ديني لكم، فدخولكم إياها

يجب أن يكون مشروعًا، ولا شرعية لكم لدخول الأرض المقدسة إلا بوجود التابوت. فإذا كتم تملكونه، فأنا شخصيًا أقر لكم بذلك الحق، وإن لم تفعلوا (وربما لن تفعلوا)، فدخولكم إذا قسريًا لا شرعية فيه. انتهى.

السؤال: ما الذي حصل بعد أن تاه بنو إسرائيل في الأرض أربعين سنة؟

رأينا المفترى: هاد بنو إسرائيل، فكانوا يهودًا:

- ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: 156]

نعم، لقد هاد بنو إسرائيل (أي رجعوا)، بعد أن تاهوا في الأرض أربعين سنة. ولا أخال أن عودتهم تلك قد كانت ممكنة بغير التابوت. لكن لما أضاع بنو إسرائيل ذلك التابوت، أخرجوا من ديارهم وأبنائهم من جديد. ولندقق فيما جاء على لسان نبي لهم من بعد موسى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

السؤال: كيف سيستطيع بنو إسرائيل العودة إلى ديارهم التي أخرجوا منها؟

جواب مفترى خطير جدًا: نحن نؤمن باستحالة استطاعة بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة إلا بوجود التابوت. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في رد نبي القوم على زعمهم:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 247-248]

ولو دققنا في هذا السياق القرآني جيدًا، لوجدنا بأن دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة من جديد يستحيل أن يحصل إلا بوجود التابوت. فمادام أن طالوت قد جاء معه التابوت، فهو إذًا سيدخل الأرض المقدسة بشرعية إلهية لا يمكن الخصام فيها. انتهى.

تساؤلات

- ما هو التابوت؟
- ما مصدره؟
- ما ماهيته؟
- ما وظيفته؟
- الخ

للحديث عن التابوت، علينا أن نتوقف عند السؤال المحوري التالي: ما هو التابوت؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن التابوت من حيث الشكل هو ما يشبه الصندوق المستطيل كالمهد الذي يكون للطفل والصبي الذي ما زال يحتاج إلى نوع من الرعاية الخاصة. فهذا التقليد العملي يكاد موجودًا عند كل شعوب الأرض. فعادة ما تقوم المرأة الحامل بتجهيز هذا المهد على شكل صندوق مستطيل الشكل لتضع فيه مولودها لتوفر له الطمأنينة والراحة في النوم. لكن مادام هذا الصندوق يخلو من صاحبه (الطفل أو الصبي) فهو إذًا مادة لا حياة فيها، لكن ما أن يوضع فيه هذا الطفل أو ذاك الصبي حتى يبدأ ينبض بالحياة. لذا، نحن نتجرأ على القول بأن الفرق بين التابوت من جهة والمهد من جهة أخرى هو وجود (أو عدم وجود) الحياة فيه. فمادام تابوتًا، فهو لا حياة فيه، لكن ما أن يكون مهدا حتى يكون نابضا بالحياة، فينتقل من كونه تابوتًا حتى يصبح مهدًا.

السؤال: من أين جاء ذلك التابوت في الأصل؟

رأينا المفترى: لمّا كان آدم وزوجه يسكنان الجنة، كان عليهما تجهيز الصندوق الذي سيضعان فيه الصبي الأول الذي كان من المفترض أن يتحصل لهما بآلية النفخ. ولما كانت الملائكة تسجد لآدم، كان عليهما أن يحملوا ذلك الصندوق على الدوام. لكن لما ارتكب آدم المعصية، أهبط من الجنة، فخسر ذلك الصندوق إلى الأبد.

نتيجة مفتراة: التابوت هو علامة وراثة الأرض المقدسة (جنة المأوى الأولى) بطريقة شرعية.

السؤال: ما هي المادة التي صُنع منها ذلك الصندوق (التابوت)؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن مادة صنع ذلك الصندوق هي في الأصل مادة الخشب بدليل أنه قاوم الغرق في الماء عندما قذفته أم موسى في اليم:

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوٞ لِّي وَعَدُوٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]

السؤال: ما هي ماهية ذلك الصندوق (التابوت)؟ أو ما هو الشيء الذي ميز هذا الصندوق عن غيره؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه عندما أعد آدم وزوجه ذلك الصندوق قد استخدما المادة المتوافرة في تلك الجنة، ألا وهي (نحن نظن) الشجرة التي طفقا يخصفان على سوءاتهما من ورقها:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121]

ولما كانت تلك الجنة مشرقة بنور ربها، كان كل شجر الجنة ينبت بهذه الطاقة العظيمة. فكان "خشب" الجنة من مادة نظيفة تمامًا. لكن عندما ارتكب آدم المعصية وبدت لهما سوءاتهما، أطفئ ذلك النور، فما عاد ذلك الخشب من النوع النظيف. وأصبحت نساء العالمين يصنعن الصندوق الذي يضعن به أطفالهن من مادة "الخشب" غير النظيفة، الشجر الذي ينبت بطاقة الشمس. (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة).

نتيجة مفتراة: كان ذلك الصندوق الخشبي (التابوت) مصنوعًا من الشجر الذي كان ينبت في جنة المأوى الأولى الذي كان أصلًا ينبت بالنور الإلهي. وكانت الملائكة مكلفة بحمل ذلك التابوت على الدوام.

عودة على بدء

عندما خُلق عيسى بن مريم بالنفخ، كان هو الوحيد المؤهل لأن يُوضع في التابوت منذ يومه الأول حتى وفاته.

السؤال: ماذا كان يتواجد في ذلك التابوت؟

رأينا المفترى: اللباس (لباس التقوى). انتهى.

السؤال: ما علاقة ذلك بقصة المسيح؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما وُلد المسيح عيسى بن مريم عند جذع النخلة في تلك الربوة، غاب عن عين والدته فترة من الزمن، فنزل إلى ذلك الواد حيث يتواجد روح القدس والملائكة، فتم تجهيزه بلباس التقوى، ووضع في ذلك التابوت، فأصبح مهدًا، وعاد إلى أمه على تلك الشاكلة، فحملته ورجعت إلى قومها تحمله:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧﴾ [مريم: 27]

فكان صبيًا (وليس طفلًا) محمولًا في المهد الذي لم يكن قومها يعلموا أن مريم تحمله بطريقة غير مباشرة، لأن الملائكة هم أصلًا من يحمل المهد (التابوت) بطريقة مباشرة. وظل عيسى محمولًا في ذلك التابوت، يستطيع أن يرتفع عن الأرض في السماء، لكنه لا يطأ بقدميه الأرض (فهو كلمة الله).

السؤال: ما فائدة هذا الخيال المفترى من عندك؟ يسأل صاحبنا مستغربًا.

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا يعيدنا على الفور إلى الآية التي بدأنا النقاش فيها في الأجزاء السابقة، وهي قوله تعالى:

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ [النساء: 158-157]

لنطرح التساؤل التالي مباشرة: كيف نفهم عبارة (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ)؟

تخيلات مفتراة خطيرة جدًا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن "ما شُبّه" للقوم حينئذ هو عملية قتل المسيح وصلبه. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما كنا نظن بأن عملية القتل هي المنع، كان قرار هؤلاء هو أن يقتلوا المسيح بمنعه عن الوصول إلى القوم المتواجدين على الأرض، ولما كان المسيح هو عيسى (أي ابن السماء والأرض)، كان يستطيع التنقل بين السماء (بالارتفاع) والأرض (بالنزول)، فكان هدفهم أن يبقى المسيح معلقا في السماء، فلا يصل إلى الأرض، فيكون بذلك (حسب ظنهم) قد صلبوه. لكن الذي حصل فعلًا على أرض الواقع هو أنهم قد استطاعوا أن يبقوه معلقًا في السماء، لكن ذلك لم يكن صلبًا (كما ظنوا) وإنما رفعًا، قال تعالى:

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 158-157]

ففي حين أنهم ظنوا أن بقاء المسيح معلقًا في السماء هو قتلًا وصلبًا، كان في الحقيقة رفعًا من الله. فالقوم قد رأوا (بأم أعينهم) ارتفاع المسيح في السماء، لكنهم لم يدركوا ماهية ما حصل فعلًا، فجاء القول الإلهي ليبين بما لا يدع مجالًا للشك بان ذلك ليس صلبًا ولا قتلًا بل رفعًا من الله، بدليل مفردة "بَل". فمفردة "بل" تعني أن الذي حصل فعلًا مغاير لما كان القوم يعتقدون. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 158-157]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: 11]
- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف: 24]

ففي حين أن قوم شعيب قد ظنوا (مخطئين) بأن ما يرونه بأم عينهم هو عارض ممطرهم، جاءت الحقيقة الإلهية لتقلب الصورة إلى الجهة المعاكسة تمامًا بأن هذه ريح فيها عذاب أليم. وهنا تأتي وظيفة المفردة "بَل" على نحو تبيان حقيقة ما كان القوم يظنون أنه حقيقة وهو في الواقع ليس كذلك.

ولو طبقنا هذا الفهم في حالة السياق الخاص بقصة صلب المسيح، كما في قوله تعالى:

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 158-157]

لربما صح لنا أن نتخيل وجود روايتين متباينتين تمامًا، رواية القوم الخاطئة التي تصور (حسب زعمهم) أنهم قد صلبوه وقتلوه، والرواية الأخرى الحقيقية التي تبين أنهم ما فعلوا ذلك، وإنما كان ما رأوه بأم أعينهم هو ليس أكثر مما يشبه الصلب والقتل، ولكن الحقيقية التي لا جدال فيها هي أن ذلك كان رفعًا من الله للمسيح إليه.

السؤال: كيف استطاع القوم أن ينفذوا مخططهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن كل رسول جاء قومه بالبينات، فكانت ردة فعل القوم من حوله هي المقاومة والتشكيك، وبالتالي استحقاق العذاب الذي لا محالة واقع بهم. فدعوة كل رسول (كنذير) لابد أن تصل إلى نهايتها، ولو حصل أن القوم كذبوا الرسول، لكان لزامًا أن يحق عليهم القول ليدمرهم الله تدميرًا كما

حصل مع قوم نوح وهود وصالح وموسى ولوط. ليكون السؤال الآن ماذا فعل بنو إسرائيل مع عيسى؟ ولِم لم يقع عليهم العذاب كما وقع على الأقوام الأخرى؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

رأينا المفترى: كانت نهاية دعوة الرسول تتم عندما يعتدي الناس على آيات الله البينات، فعندما اعتدى قوم صالح على الناقة – مثلا- كان موعدهم أن يتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام، وعد غير مكذوب.

- ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65]

لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين أن نصل إليها من هذا النقاش هي أن الاعتداء على آية من آيات الله البينات هو سبب كاف لنزول العذاب الإلهي المباشر على القوم الكافرين.

السؤال: هل اعتدى القوم على عيسى؟

رأينا المفترى: نعم. وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]

رأينا المفترى: مادام أن عيسى قد أحس منهم الكفر، ومادام أن المسيح قد طلب النصرة من بينهم، فرسالته إذًا قد شارفت على نهايتها.

السؤال: كيف اعتدى القوم على آيات الله البينات؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال تستدعي جلب الآية القرآنية التالية:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ [الزخرف: 63]

فمجيئ الرسل بالبينات هو سبب كاف لأن يحيق بهم ما كانوا به يستهزءون:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾ [غافر: 83]

السؤال: ما هي البينات التي جاء بها عيسى القوم من بني إسرائيل؟

رأينا المفترى: بادئ ذي بدء لابد من القول بأن عيسى بذاته هو آية:

- ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: 20-21]

فالاعتداء على عيسى بمحاولة قتله وصلبه هو سبب كاف أن ينزل بهم العقاب الإلهي. ليكون السؤال الآن كيف كانت خطتهم للاعتداء على المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى الخطير جدا: التابوت. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما كان مخطط القوم مبني على افتراض ألا يصل المسيح للأرض فيبقى معلقًا في السماء (أي مصلوبًا)، كانت خطتهم (نحن نظن) مبنية على أن يعتدوا على الأداة التي تمكّن المسيح من النزول إلى الأرض، ألا وهي التابوت. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن القوم قد حاولوا الاعتداء على المسيح باعتدائهم على التابوت.

خروج عن النص في استراحة قصيرة

السؤال: لماذا نلبس النعال؟

رأينا المفترى: قد يظن البعض بأن لبس النعال هو تقليد متوارث منذ القدم وذلك لفائدته للشخص الذي يلبسه. لكننا هنا نتساءل عن تلك الفائدة التي من أجلها نلبس نحن البشر (على عكس كل الكائنات الأخرى تقريبا) النعال؟ فما الذي جعل الناس يلبسون النعال؟

رأينا المفترى: إنها الطهارة ولا شيء غير ذلك.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: ربما يروج الكثيرون للفائدة الطبية لعدم لبس النعال، فغالبا ما يكون هناك فوائد ملموسة لعدم لبس النعال، لكن هل هذه الفوائد (إن صحت) تعادل الضرر المتحصل من عدم لبسه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فائدة لبس النعال أكثر من ضرر عدم لبسه، وذلك لأن لبس النعال بمثابة وقاية للإنسان من النجاسة (عدم الطهارة) التي يمكن أن تلحق بمن لا يلبس النعال. لهذا تجد الناس العاديين يستخدمون نعالًا خاصة بكل مكان، فهناك نعال في البيت خاصة بغرفة النوم، وأخرى خاصة بالحمام. وهناك نعال خارج البيت تأخذ بعين الاعتبار طبيعة البيئة الجغرافية التي يمشي فيها الإنسان. لكن الملاحظ أن الحرص كبير جدًا على لبس النعال في الأماكن التي تنقصها الطهارة. لتكون النتيجة على النحو التالي: كلما زادت النجاسة (عدم الطهارة)، كلما ازدادت الحاجة الملحة للبس النعال. والعكس صحيح، كلما قلت النجاسة، قلت الحاجة للبس النعال. فنساؤنا ترفض إطلاقا أن نلبس (نحن الرجالة) النعال لندوس بها على السجاد والموكيت الجديد، ولا تبالي نساؤنا كثيرا في ذلك إن كان الفراش عتيقا باليًا ممزقًا. فهن يطلبن لبس النعال في الأماكن التي لا تكون نظيفة.

نتيجة مفتراة 1: لو كان المكان طاهرًا نظيفا، ما دعت الحاجة للبس النعال.

نتيجة مفتراة 2: لما كان المكان غير طاهر (تنقصه النظافة)، تكون الحاجة ملحة للبس النعال.

السؤال: لماذا طلب الله من موسى أن يخلع نعليه في الواد المقدس طوى؟

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه: 12]

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن المكان مقدس، طاهر لا نجاسة فيه. انتهى

عودة على ذي بدء

السؤال: لماذا كان عيسى بن مريم محمولًا في التابوت؟

رأينا المفترى: نحن نؤمن بأن عيسى هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم، لذا يستحيل أن تدوس قدميه مكانًا لا طهارة فيه. لذا، كان التابوت (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) بمثابة النعلين لعيسى بن مريم الذي لا يمكن لقدميه الطاهرتين أن تطئا مكانًا ربما يكون قد لحق به شيء من الأذى.

نتيجة مفتراة: لما كان آدم في الجنة التي تشرق كلها بالنور الإلهي، لم تكن الحاجة ملحة للبس النعال. لكن لما ذهب ذلك النور الإلهي، وأصبحت تلك الجنة تشرق بأشعة الشمس التي ليست كلها طاقة نظيفة، تواجدت المخلفات غير النظيفة على الأرض، فأفسدتها، فأصبح لزامًا علينا أن نلبس النعال، وقاية منها، وطلبًا للطهارة.

نتيجة مفتراة: لما كان يعلم علماء بني إسرائيل أن قدمي المسيح لا تطأ الأرض، وأن التابوت هو المكان الطاهر الذي يمكن لقدميه الطاهرتين أن تطأه، عمدوا إلى خطة جهنمية ظنوا أنهم يستطيعون من خلالها تنفيذ مآربهم بقتله وصلبه. انتهى.

السؤال: كيف نفذوا خطتهم تلك؟

رأينا المفترى: كانت الخطة المنوي تنفيذها (نحن ما زلنا نتخيل) تحمل في ثناياها الاستيلاء على التابوت، حتى لا يستطيع المسيح من النزول من السماء إلى الأرض، فجاءت خطتهم مبنية على اخفاء التابوت في مكان ما.

السؤال: من الذي نفذ هذا المخطط؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الشخص الذي كان مؤهلًا للقيام بهذا العمل هو شخص يتمتع بمعرفة كافية في التعامل مع هذا التابوت الخشبي، فكان لابد من وجود نجار محترف مهنة النجارة الحقيقية، فكان (نحن نستنبط ربما مخطئين) يوسف النجار الذي يرد له ذكر كثير في التراث المسيحي. (وسنتناول تفصيل هذا الافتراء لاحقًا متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك. فالله وحده أسأله أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدًا، إنه هو السميع البصير)

لكن ما يهمنا هنا هو ما دام أن القوم قد اعتدوا على المسيح وعلى آيات الله، فلمَ لم يقع عليهم العذاب المباشر من الله؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الذي منع العذاب الإلهي من الوقوع على بني إسرائيل بعد محاولتهم الاعتداء على المسيح عيسى بن مريم هو ما فعله الحواريون. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها) تبيّن لنا كيف صد الحواريون وقوع العذاب الإلهي على القوم من بعد عيسى بن مريم:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: 14]

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فهم هذه الجزئية في النقاش يتطلب ابتداءً التمييز بين طلب عيسى من الناس من حوله من جهة، مقابل رد الحواريين من جهة أخرى، ففي حين أن عيسى طلب أنصارًا له إلى الله "قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ"، جاء رد الحواريين أنهم أنصار الله وليس أنصار عيسى إلى الله "قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ".

ليكون السؤال: كيف نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان طلب عيسى أنصارًا له من الله، كان الذي سيحدث على أرض الواقع لو أن الحواريين استجابوا لطلبه كما أراده المسيح، لكان هؤلاء الحواريون قد خرجوا مع المسيح نفسه، ولكانت رحلة خروجهم معه إلى السماء. ولما تبق أحد من المؤمنين على الأرض، ولحاق بكل أهل الأرض العذاب الإلهي. ولكان ذلك نهاية الكون بأكمله، لأن المسيح بحد ذاته علمًا للساعة:

- ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٦٦﴾ [الزخرف: 57-66]

السؤال: لماذا كان رد الحواريين على نحو "قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ"؟

رأينا المفترى: لم يرض الحواريون الخروج مع المسيح لعلمهم بأن العذاب الإلهي لا محالة نازل على الأرض جميعًا من بعدهم، ولما تبقى أحد من المؤمنين على ظهرها:

- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ۝٤٥﴾ [فاطر: 45]

ولما كان الحواريون يعلمون بهذه السنَّة الإلهية بأن الله لا يؤاخذ الناس بظلمهم، كان الحواريون يظنون أن في بقائهم على الأرض نصر لله الذي لا يؤاخذ الناس بظلمهم والذي كتب ليغلبن هو ورسله:

- ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: 21]

فتخيل معي عزيزي القارئ – إن شئت- ما الذي كان من الممكن أن يحصل على أرض الواقع لو أن الحواريين استجابوا بنصرة المسيح فخرجوا معه من الأرض كما كان يخرج المؤمنون في الأقوام السابقة مع رسلهم عند نزول العذاب!

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأنه لو خرج الحواريون مع عيسى لنزل العذاب بكل الأرض، ولانتهت قصة البشرية على الأرض في تلك الساعة.

السؤال: لماذا سيقع الهلاك على كل الأرض؟ لم لم يقع الهلاك على كل الأرض في القرون السابقة؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه في حالة القرون السابقة كان خروج المؤمنين مع الرسول من أرض إلى أرض، فيقع العذاب على الأرض التي خرجوا منها لكنه لا يصيب الأرض التي خرجوا إليها، مادام أن هؤلاء المؤمنين ما زالوا مستغفرين وفيهم رسول الله إليهم:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: 33]

فالفرق بين العذاب الذي كان من الممكن أن ينزل على القوم من بعد عيسى لو استجاب الحواريون لنصرته بذاته، كان سيصيب الأرض كلها. أما العذاب الذي كان يصيب القرون السابقة كان يقع فقط على الأرض التي خرج منها الرسل بمن معه من المؤمنين.

السؤال: ما الذي فعله الحواريون لإنجاز هذا الوعد الإلهي؟

رأينا: اختار الحواريون أن يكونوا أنصارًا لله (بالبقاء في الأرض) على أن يكونوا أنصارًا للمسيح (بالخروج معه إلى السماء) حتى لا يقع العذاب على الأرض جميعًا.

السؤال: ما الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الآية الكريمة التالية موجِّهة لنا في هذا النقاش:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: 33]

نعم، لم يكن العذاب ليقع على قوم مادام الرسول موجودًا فيهم، وكذلك فإن العذاب الإلهي لن يقع مادام أن هناك من القوم من مازالوا يستغفرون حتى لو خرج من بينهم الرسول. فبقاء الحواريون في الأرض هو خطة تتبع السنة الكونية بصد العذاب الإلهي بالاستغفار. نعم، لقد كانت نصرة الحواريين لله هي – برأينا- السبب الحقيقي الذي أنقذ الأرض كلها من وقوع العذاب الإلهي على الأرض بخروج المسيح منها.

ومن هنا (نحن نظن) جاء منطق الهجرة من مكة إلى المدينة، فعندما أحس محمد الكفر من قومه واقتراب وقوع العذاب الإلهي على مكة، خرج محمد بنفسه من مكة تاركًا المؤمنين في مكة خلفه يستغفرون، صادًا بذلك وقوع العذاب الإلهي على قومه، لأنهم لا يعلمون. (للتفصيل حول هذه الجزئية، انظر مقالة لماذا هاجر النبي من مكة إلى المدينة؟).

السؤال: لماذا اختار المسيح أن يأخذ الحواريين معه حتى لو أدى ذلك إلى هلاك الأرض جميعا بينما اختار الحواريون (وكذلك اختار محمد من بعدهم) ألا يقع العذاب الإلهي على الأرض؟

رأينا المفترى: لأن المسيح بنفسه ليس من الناس بينما الحواريون (ومحمد) من الناس الذين يهمهم أمرهم، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]

انتهى.

وللحديث بقية بإذن الله.

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علمه في ذلك لا ينبغي لأحد دوننا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يجعل لي من لدنه سلطانًا نصيرًا، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم. وأخيرًا، فالله خير حفظًا وهو أرحم الراحمين.

المدكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & محمد معتصم مقداد

بقلم: د. رشيد الجراح

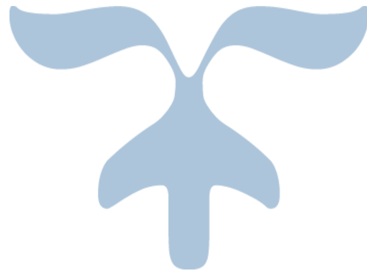
28 كانون ثاني 2020



الجزء العاشر

نظرية التطور

نشوء وليس ترقي



الجزء العاشر: نظرية التطور (نشوء وليس ترقي)

كانت الافتراءات الرئيسية في الجزء السابق هي:

- لم تكن قدما المسيح عيسى ابن مريم لتطأ الأرض، لأنه كان على الدوام محمولاً في التابوت الذي هو – برأينا- تابوت العهد القديم ذاته، وهو الذي كانت تحمله الملائكة:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٤٨﴾ [البقرة: 248]

- أن هذا التابوت هو المهد الذي كان متواجدًا فيه المسيح عندما أتت به أمه قومها تحمله
- أن هذا التابوت هو آية المُلك والانتصار لبني إسرائيل، لذا تجرأنا على البوح بافتراء خطير مفاده أنه ما ظهر التابوت في بني اسرائيل إلا جاءهم النصر، وما غاب التابوت إلا كان ذلك هزيمة وانحسار لهم ولملكهم.
- أن هذا التابوت هو الذي خط لبني إسرائيل طريق خروجهم من أرض مصر حتى وصولهم إلى باب الأرض المقدسة، فظننا (ربما مخطئين) أن قوم موسى (بني إسرائيل) كانوا يسيرون بتوجيه إلهي إلى حيث المكان الذي اختاره الله بنفسه لمواجهة فرعون وجنوده عند البحر، وكان التابوت هو موجههم في رحلتهم حتى الأرض المقدسة. فالتابوت هو إذا أداة وصول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة.
- ما أن اقترب بنو إسرائيل من دخول الأرض المقدسة حتى رفضوا دخولها متعذرين بوجود القوم الجبارين فيها:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢﴾ [المائدة: 22]

- فكان مصيرهم التيه أربعين سنة:

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [المائدة: 26]

- ظننا (ربما مخطئين) بأن التيه كان نتيجة فقدانهم التابوت (الذي كان آية ملكهم الأرض المقدسة). لذا، تجرأ على الظن بأنه لا شرعية (عقائدية) لبني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة (التي كتب الله لهم) بغير التابوت. وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا (إن صح) يبين لنا أن دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة بدون التابوت هو احتلال قسري، لا شرعية فيه. فكانت الدعوة التي أطلقناها لبني إسرائيل الذين يدّعون حقهم في ملكية الأرض المقدسة أن يأتوا بالآية التي تبين دخولهم إياها (ألا وهي التابوت). فإذا كنتم تملكونه، سنقر لكم بذلك الحق، وإن لم تفعلوا (وربما لن تفعلوا)، فدخولكم إذا قسريًا، لا شرعية فيه.
- افترينا الظن بأن هذا التابوت هو ما أعده آدم وزوجه (عندما كانا يسكنان الجنة) ليكون المهد لولدهما الأول الذي كان من المفترض أن يتحصل لهما بآلية النفخ. ولما كانت الملائكة تسجد لآدم، كان

يتوجب عليهم (أي الملائكة) أن يحملوا ذلك التابوت على الدوام. لكن لما ارتكب آدم المعصية، أُهبطا من الجنة، فخسر آدم وزوجه ذلك التابوت إلى الأبد.

- كانت المادة التي صنع منها ذلك التابوت هو – برأينا- من شجر الجنة التي كانت تشرق بنور ربها. لكن عندما ارتكب آدم المعصية، وبدت لهما سوءاتهما، حُجب ذلك النور بالغمام، فما عاد الشجر ينبت بالطاقة النظيفة، وأصبح التابوت الذي تجهزه نساء العالمين لأولادهن يصنع مادة "الخشب" المأخوذة من الشجر الذي ينبت بطاقة الشمس غير النظيفة. فما عادت الملائكة مكلفة بحمل تلك التوابيت (غير المطهرة).
- عندما خُلق عيسى بالنفخ من روح الله مباشرة، كان هو الوحيد المؤهل لأن يوضع في التابوت (المطهر) الذي تحمله الملائكة منذ يومه الأول حتى وفاته.
- ظل عيسى محمولًا في ذلك التابوت، فكان يستطيع أن يرتفع عن الأرض في السماء، فما كانت قدماه لتطأ الأرض. فكان التابوت بمثابة نعلي عيسى بن مريم.
- عندما حاول فريق من أهل الكتاب قتل عيسى بن مريم، لجأوا إلى خطة شيطانية لإبعاده عن الأرض، ليبقى معلقًا في السماء (وبكأنهم قد صلبوه)، فجاء القول الإلهي الذي ينفي قتلهم إياه وصلبه:

• ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 157-158]

- فكان افتراؤنا مبنيًا على ظننا بأن عملية القتل هي المنع، فكان قرار هذا الفريق المتآمر من أهل الكتاب على نحو أن يقتلوا المسيح، وذلك بمنعه من الوصول إلى القوم المتواجدين على الأرض. ولمّا كان المسيح هو عيسى (أي ابن السماء والأرض)، كان يستطيع التنقل بين السماء (بالارتفاع) والأرض (بالنزول)، فكان هدفهم أن يبقى المسيح معلقًا في السماء فلا يصل إلى الأرض، فيكون بذلك (حسب ظنهم) قد قتلوه صلبًا. لكن الذي حصل فعلًا هو أنهم قد استطاعوا أن يبقوه معلقا في السماء، لكن ذلك لم يكن صلباً (كما ظنوا) وإنما رفعًا، قال تعالى:

• ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 157-158]

- ففي حين أنهم ظنوا أن بقاء المسيح معلقا في السماء هو قتلًا (بالصلب)، جاء التبيان الإلهي الذي لا شك فيه أن ذلك لم يكن قتلًا ولا صلبًا، بل رفعًا من الله إليه. فالقوم قد رأوا (بأم أعينهم) ارتفاع المسيح في السماء، لكنهم لم يدركوا ماهية ما حصل فعلًا، فجاء القول الإلهي ليبين بما لا يدع مجالًا للشك بان ذلك ليس قتلًا ولا صلبا، بل رفعًا من الله إليه:
- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 157-158]

- كانت خطة القوم في تنفيذ ما أرادوا على نحو الاعتداء على آية من آيات الله البينات، فكان ذلك سببًا في استحقاقهم العذاب الإلهي المباشر، وهناك أحس عيسى منهم الكفر، فطلب أنصارًا له إلى الله:
- ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 52]
- مادام أن عيسى قد أحس منهم الكفر، ومادام أن المسيح قد طلب منهم النصرة، فرسالته إذا قد شارفت على نهايتها. فطلب نصرته إلى الله، فكان رد الحواريين على نحو نصرة الله وليس نصرة عيسى إلى الله:
- ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾ [الصف: 14]
- افترينا الظن بأن نصرة الحواريين هذه لله كانت هي – برأينا – السبب في صدّ وقوع العذاب الإلهي على الأرض كلها. فكان منطقنا المفترى من عند أنفسنا على نحو أنه لمّا كان طلب عيسى أنصارًا له من الله، كان الذي سيحدث على أرض الواقع (لو أن الحواريين استجابوا لطلبه كما أراده المسيح)، هو ذهاب هؤلاء الحواريون مع المسيح نفسه إلى الله، وبالتالي ما كان ليبقى أحد من المؤمنين على الأرض، ولحاق إذًا بكل أهل الأرض العذاب الإلهي، ولكان ذلك (نحن ما زلنا نتخيل) نهاية الحياة بأكملها على الأرض. لكن لما اختار الحواريون عدم الخروج مع المسيح لعلمهم بأن العذاب الإلهي لا محالة نازل على الأرض جميعًا من بعدهم. اختار الحواريون أن يكونوا أنصارا لله (وليس أنصار المسيح إلى الله) وذلك بالبقاء في الأرض، فلا يقع العذاب على الأرض جميعًا. كان قرار الحواريين هو – برأينا- السبب الحقيقي الذي أنقذ الأرض كلّها من وقوع العذاب الإلهي عليها حينئذ. فالحواريون هم إذاً من نصروا الله على الأرض.
- الخ.

وسنتابع في هذا الجزء الجديد من المقالة جملة هذه الافتراءات بشيء من التفصيل، طارحين مجموعة جديدة من التساؤلات حولها، نذكر منها:

- كيف نفهم بأن التابوت كان بمثابة نعلي عيسى بن مريم؟
- كيف اعتدى القوم على التابوت؟
- كيف نفذوا خطتهم بالاعتداء على التابوت؟
- لماذا خطط القوم للاعتداء على التابوت على وجه التحديد؟
- ما الذي كان سيحدث لو أنهم فعلًا نجحوا فيما خططوا له؟
- كيف أحس عيسى منهم الكفر؟
- متى أحس عيسى منهم الكفر؟
- لماذا طلب المسيح نصرته إلى الله؟

- لماذا اختار الحواريون نصرة الله؟
- ماذا حصل للتابوت عندما حاول القوم الاعتداء عليه؟
- ما أهمية ذلك التابوت لبني إسرائيل على وجه التحديد؟
- لماذا طلب موسى من بني إسرائيل دخول الباب على القوم الجبارين الذين كانوا متواجدين في الأرض المقدسة حينئذ؟
- ما هو ذلك الباب الذي طلب موسى من قومه دخوله؟
- لماذا رفض القوم دخول الأرض المقدسة كما طلب رسولهم (موسى) منهم؟
- هل كان رفضهم ناجما عن غباء أو عن جبن أم عن خداع ودهاء؟
- الخ.

باب النعل

سنبدأ النقاش في هذا الباب بالسؤال البديهي التالي: ما فائدة النعلين اللذين ينتعلهما الشخص (كل شخص) في حياته اليومية؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الهدف الرئيسي من لبس النعلين هو الطهارة ولا شيء غير الطهارة، فالشخص الذي يلبس النعال هو يحاول بذلك صد الأذى عن رجليه، لأنهما الأكثر تعرضا له. فجميع الكائنات الأخرى لا تنتعل، لأنها لا تبالي بعامل الطهارة. لكن الإنسان هو الكائن الوحيد (من بينهم جميعا) الذي يحاول أن ينشد الطهارة من الأذى المتواجد على الأرض. ولا شك أن الإنسان يختار نعلًا خاصا لكل مكان، فالنعال التي يدخل بها الشخص الحمام ليست هي النعال ذاتها التي يدخل بها غرفة النوم أو غرفة المعيشة، ونحوها.

الدليل: من أجل جلب الدليل على افترائنا هذا، علينا أن نستدعي السياق القرآني الذي ورد فيه ذكر النعلين، قال تعالى:

- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه: 9-12]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: لماذا جاء الطلب الإلهي من موسى أن يخلع نعليه في الواد المقدس طوى؟ هل تجد هذا الطلب – عزيزي القارئ- مبررًا أن يأت من الإله نفسه لموسى في تلك اللحظة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن هذا الطلب مبرر لسبب بسيط جدًا، ألا وهو: الطهارة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن المكان الذي كان يتواجد فيه موسى حينئذ هو الواد المقدس طوى. ومادام أن المكان مقدس، فالطهارة وافرة فيه، فلا داع إذاً لأن يلبس الشخص المتواجد فيه حينئذ (كموسى) النعلين.

السؤال: هل كان آدم وزوجه في جنة المأوى (قبل هبوطهما) بحاجة إلى أن ينتعلا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن آدم وزوجه لم يكونا بحاجة إلى لبس النعلين، وذلك لأن جنة المأوى كانت طاهرة تماما.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن جنة آدم وزوجه (قبل الهبوط) كانت طاهرة، لا أذى فيها، لعدة أسباب:

أولا، كانت الجنة تنبت كلّها بالنور الإلهي، فكان كل ما يتساقط من ورق الجنة طاهراً لا أذى فيها، فمن يمشي في تلك الجنة لا يحتاج إلى وقاية من شيء.

ثانيا، لم يكن هناك مخلفات مؤذية لآدم وزوجه، بدليل قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 118-119]

فآدم لا يجوع. لذا، فهو لا يعرى (أي يتغوط). وهو كذلك لا يظمأ فيها (العطش). لذا، فهو لا يضحى (يتبول).

لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين الوصول إليها هي أنه بوجود الطهارة، تنتفي الحاجة إلى لبس النعال.

السؤال: ما علاقة هذا بقصة المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى: لمّا كان عيسى هو كلمة الله وروح منه، كان عليه أن يبقى طاهرًا على الدوام، فلا يمسّه الأذى. لذا، لم يكن يستطيع أن يطأ بقدميه الأرض، وذلك لأن الأرض (بحالتها هذه) مليئة بالأذى الذي سببته مخلفاتها مادام أنها لم تعد تنبت بالطاقة الإلهية النظيفة، وهي مليئة كذلك بالأذى الذي سببته مخلفات الإنسان من التغوط والتبول. لذا، كان عيسى يحتاج وقاية من هذا الأذى مادام أنه كلمة الله. ولا ننسى أبدًا بأن كلمة الله هي دائمًا العليا:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

السؤال: هل لهذا علاقة بما دبره القوم لإيقاع الأذى بعيسى بن مريم (بمحاولتهم قتله صلبًا)؟

رأينا المفترى: نعم. نحن نظن (ربما مخطئين) بأن القوم قد أدركوا أهمية وجود التابوت مع عيسى بن مريم. لذا، كانت خطتهم على نحو أن نجاحهم في ايقاع الأذى بالتابوت سيمنع المسيح من النزول إلى الأرض، وبالتالي البقاء معلقًا (أي مصلوبًا) في السماء. فمحاولتهم قتل المسيح تتمثل – كما افترينا أكثر من مرة- في منعه من الوصول إلى الأرض. فإن هم نجحوا بذلك، يكون ظنهم أنهم قد قتلوه صلبًا (أي تركوه معلقًا بين السماء والأرض). ولو دققنا في النص جيدًا، لوجدنا بأنهم قد قالوا بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم، ولكنهم لم يقولوا بأنهم قد صلبوه "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ"، لكن جاء الرد الإلهي لينفي عن عيسى الاثنتين: القتل والصلب "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ":

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: 157]

وهذا برأينا – كما افتريناه سابقا- هو ما شبه لهم "وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ"، أي اشتبهت عليهم مؤامرتهم ذاتها بقتله صلبًا. وكانت حقيقة ما حصل هو أن الله هو من رفعه إليه:

- ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: 158]

وبكلمات أكثر وضوحًا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن ما شاهده القوم من ارتفاع للمسيح إلى السماء كان في ظنهم قتلًا له (بطريقة الصلب)، فظنوا أن مؤامرتهم قد نجحت، لكن كان ارتفاع المسيح في السماء في حقيقة الأمر ليس إلا رفعًا من الله للمسيح بسبب محاولتهم الاعتداء على آياته (المسيح والتابوت).

نتيجة مفتراة 1: ظن القوم أن ارتفاع المسيح بالسماء وعدم عودته إلى الأرض، هو قتلًا له بطريقة الصلب.

نتيجة مفتراة 2: كان ارتفاع المسيح في السماء ليس قتلًا بالصلب وإنما رفعًا من الله للمسيح إليه بسبب اعتداء القوم

السؤال: كيف ألحق القوم الأذى بالتابوت؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا أغرب من الخيال ذاته: نحن نظن بأن محاولتهم الاعتداء على عيسى من خلال إيقاع الأذى بالتابوت قد تمت باستخدام الدم. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الذين قالوا بلسانهم أنهم قد قتلوا المسيح عيسى بن مريم هم - لا شك عندنا- قوم لا يستهان بهم إطلاقًا، فهم – برأينا- قوم لا يُعدمون الحيلة لتنفيذ خطة لا ينقصها المكر والدهاء.

السؤال: من هم هؤلاء القوم؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن هؤلاء هم جنود إبليس على الأرض من شياطين الإنس.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: 112]
- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: 121]
- ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: 221-222]

وقد افترينا سابقًا بأن شياطين الجن لا تستطيع الاقتراب من عيسى بن مريم، وذلك لأن طبيعة المسيح نفسه لا تسمح لهم بذلك مادام أنه كلمة الله. فبالرغم أن لكل نبي عدوًا من شياطين الإنس والجن، فإن عدو عيسى على وجه التحديد هم فقط شياطين الإنس الذين يتلقون التعاليم من الجن الذين هم – لا شك – أولياؤهم.

السؤال: أين الدليل على ما تزعم؟ يسأل صاحبنا متعجلًا الإجابة.

رأينا المفترى: من أجل جلب الدليل على افترائنا هذا، علينا أن نطرح التساؤل المبدئي التالي: ماذا كانت غاية شياطين الإنس هؤلاء من فعلتهم التي فعلوها تلك (بحق المسيح عيسى بن مريم)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الغاية من فعلتهم يمكن إدراكها بسهولة إن نحن طرحنا التساؤل التالي: ماذا لو نجحت خطتهم؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأنه لو نجحت خطتهم في قتل المسيح عيسى بن مريم، لحق العذاب على الأرض جميعًا. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لما أحس عيسى منهم الكفر، كان لزامًا أن يعلن نهاية رسالته على الأرض بالخروج منها مع من آمن منهم، كما كان يفعل كل رسول من قبله. فما أن توشك نهاية دعوة الرسول (أي رسول) بأنه لن يؤمن معه إلا من قد آمن، كان يأتيه الأمر الإلهي بالخروج منها لاستحقاق وقوع العذاب الإلهي عليهم. فالرسول ليس أكثر من بشير ونذير، فإن رفض القوم مهمة الرسول بالبشارة، استحقوا كلمته بالنذر (أي اقتراب وقوع العذاب الإلهي عليهم)، فالسنة الإلهية التي لا تبدل هي على النحو التالي "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا":

- ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 15]

فالعذاب الإلهي لا يقع إذاً على قوم إلا بعد أن يبعث الله فيهم رسولًا (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً). لكن ما أن يكذّب القوم دعوة ذلك الرسول حتى تكون نهايتهم - لا محالة وشيكة - بوقوع العذاب الإلهي عليهم. وهنا يأتي الأمر الإلهي للرسول بأن يخرج منها مع من آمن معه، لأن الله لا يعذب قومًا مادام الرسول فيهم، كما أنه لا يعذبهم مادام فيهم مستغفرون:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: 33]

وهذا (نحن نتخيل) ما حصل بالضبط مع جميع رسل الله باستثناء القوم الذين أرسل لهم عيسى وقوم محمد من بعده. والسبب في ذلك هو وجود الحواريين في القوم الذي بعث فيهم عيسى وبسبب هجرة محمد من مكة، القرية التي أرسل فيها محمد. (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: لماذا هاجر محمد من مكة إلى المدينة).

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أنه مادام أن رسالة عيسى قد أوشكت على نهايتها بأن أحس منهم الكفر، كان لزامًا على المسيح عيسى بن مريم أن يترك القوم ليحل بهم العذاب الإلهي. فكان عليه أن يخرج من بينهم ومعه من آمن به (وهم الحواريون). ولمّا كان عيسى يتنقل بين الأرض والسماء، كان على عيسى أن يترك الأرض (كل الأرض) متجها إلى السماء. وهنا جاءت دعوته بأن يذهب معه أنصار له إلى الله:

- ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14]

ويكأن المسيح (نحن نفهم ربما مخطئين) يوجه رسالته لمن آمن معه بأن يخرجوا معه من بين القوم الذين استحقوا العذاب الإلهي. وهنا نتوقف لنطرح جملة من التساؤلات حول هذه القضية بعينها، نذكر منها:

- لماذا أطلق المسيح دعوته تلك دون أن يأتيه الأمر الإلهي بالخروج؟
- لمن أطلق المسيح دعوته تلك؟

- من الذي التقط الدعوة تلك بطريقة جليّة وفهمهما حقا (كما يجب)؟
- لماذا طلب المسيح أنصارا له إلى الله؟
- لم لم يطلب أنصارا لله مباشرة؟
- كيف تصرف الذين فهموا دعوة عيسى تلك؟
- لماذا تصرفوا على ذلك النحو؟
- الخ.

بداية، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المسيح قد أطلق بنفسه تلك الدعوة دون أن يأتيه الأمر الإلهي بذلك مباشرا كما كان يأتي الرسل الذين جاءوا من قبله كنوح وهود وصالح وموسى ولوط، لسبب بسيط ألا وهو أن عيسى نفسه هو كلمة الله، فالمسيح لا يحتاج (كما احتاج الرسل السابقين) إلى أن ينتظروا الأمر الإلهي مادام أنه هو نفسه كلمة الله. فهو يستطيع أن يطلق تلك الدعوة في الوقت المناسب. فكلمة الله لا يمكن أن تكون إلا حقًا.

السؤال: لماذا؟ وأين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق في الآيات الكريمة التالية، لنرى ما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك. قال تعالى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 116-117]

السؤال: ماذا نفهم من قول المسيح "وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ"؟ وماذا نفهم من قوله "فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ"؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة جيدا، لوجدنا الحقائق التالية:

- كان المسيح عليهم شهيدًا مادام فيها
- كان الله هو الرقيب عليهم لما توفّى المسيح
- الله على كل شيء شهيد.

السؤال القوي جدًا: إذا كان الله شهيدًا على كل شيء (وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)، وإذا كان الله رقيبًا عليهم لمّا توفى المسيح عيسى بن مريم، هل كان الله (نحن نسأل) رقيبًا عليهم قبل أن يتوفى المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا (لا تصدقوه): نحن نظن أن الله كان رقيبًا على قوم عيسى بن مريم لمّا توفاه الله، لكن الله نفسه لم يكن رقيبًا عليهم قبل أن يتوفى المسيح عيسى بن مريم. انتهى.

نتيجة مفتراة خطيرة جدًا جدًا: لم تكن هناك رقابة لله على القوم في الوقت الذي كان المسيح متواجدًا فيهم. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات التالية:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾
مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 16-18]

لوجدنا على الفور أن الخطاب موجه للإنسان (كل إنسان)، فلا يلفظ (الإنسان) من قول إلا لديه رقيب عتيد. ليكون السؤال الأول الذي يجب أن يطرح على الفور: هل المسيح عيسى بن مريم هو إنسان؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، لأن الإنسان هو من خُلِق من ذكر وأنثى (انظر الأجزاء السابقة من مقالاتنا حول هذه القضية). وهذا الإنسان هو من يكون عرضة لوسوسة نفسه له. فهل كانت نفس عيسى توسوس له؟

رأينا المفترى: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- بما قاله عيسى جوابًا على سؤال ربه له:

- ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: 116-117]

السؤال: لماذا جاء جواب عيسى على نحو (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي)؟ وبكلمات أخرى لماذا دافع عيسى عن ذاته بذكر طبيعة نفسه التي يعلمها الله؟ ما هي الرسالة التي يجب أن نلتقطها على الفور من جواب عيسى هذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: يجب أن نفهم على الفور أن نفس عيسى ليست كنفس الناس العاديين الذين هم عرضة للوسوسة، فنفس عيسى لا يمكن أن توسوس له، ويكاننا نفهم إذا أن عيسى يقول لربه: كيف لي أن أقول لهم مثل ذلك وأنت تعلم ما هي طبيعة نفسي التي لا يمكن أن توسوس لي بذلك؟

منطقنا المفترى: إن صحّ هذا المنطق، فما الحاجة أن يكون الله مراقبًا لعيسى مادام أن نفسه لا يمكن أن توسوس له؟ من يدري؟!

لكن يبقى السؤال الأكبر قائمًا: لماذا كان الله رقيبًا عليهم لمّا توفى المسيح "فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ"؟

فهل كان الله (نحن نسأل مرة أخرى) مراقبًا لهم قبل أن يتوفى المسيح؟

رأينا المفترى الخطير جدًا جدًا: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن الله الذي هو على كل شيء شهيد لم يكن رقيبًا لهم قبل أن يتوفى عيسى. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن المسيح (كلمة الله) هو من كان رقيبًا عليهم حينئذ. فعيسى كان شهيدًا عليهم مادام فيهم، وكان (نحن نظن) رقيبًا عليهم حتى توفاه الله. وما أن توفاه الله حتى عادت المراقبة الإلهية لهم مباشرة.

الدليل: من أجل جلب الدليل على هذا الافتراء الخطير، علينا أن نحاول التمييز بين من كان شهيدًا من جهة ومن كان رقيبًا من جهة أخرى. ليكون السؤال المبدئي هنا هو: ما الفرق بين من كان شهيدًا ومن كان رقيبًا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الشهادة تختلف عن الرقابة، وذلك لأن الشهادة (نحن نرى ربما مخطئين) جزئية بينما الرقابة كليّة. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن اللسان واليد والرجل تستطيع الشهادة:

- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: 24]

لكن هل تستطيع الرقابة؟ من يدري؟!

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾ [فصلت: 21]

لوجدنا بأن الجلود تستطيع الشهادة، لكن هل تستطيع الرقابة؟ من يدري؟

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: 1]

لوجدنا بأن المنافقين يستطيعون الشهادة، لكن هل يستطيعون الرقابة؟ من يدري؟!

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

لوجدنا أن أي رجل (وأي امرأة) يستطيع الشهادة، لكن هل يستطيع أي رجل أو أي امرأة أن يكون رقيبًا؟ من يدري؟!

السؤال: لماذا تستطيع هذه الكينونات أن تشهد لكن لا تستطيع أن تكون رقيبًا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الشهادة يمكن أن تتم بالسمع، ويمكن أن تتم بالبصر، ويمكن أن تتم بالفؤاد. فالذي يسمع عن الحادثة يمكن أن يجلب كشاهد في المحكمة عند التقاضي فيها، وكذلك من يراها بأم عينه، ويمكن أن يجلب الشاهد بالخبرة (الفؤاد) إلى المحكمة ليدلي برأيه فيها. فلو كانت القضية المنظورة في المحكمة فيها عامل المعرفة باستخدام جهاز الكمبيوتر وبرمجياته، يمكن للقاضي أن يستدعي ليس فقط

من سمع بالقضية أو من شاهدها بأم عينه، لكن يمكن أن يطلب شهادة الخبير في هذا العلم. ويجب ألا ننسى كذلك بأن الشهادة قد تكون غير مقصودة، فقد تتواجب أنت في موقع الجريمة بالصدفة، فتكون بذلك شاهدا عليها.

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة للتفريق بين الشاهد والشهيد).

لكن المراقبة – بالمقابل – لا يمكن أن تحصل إلا عن قصد. فما دمت أنك قد توليت مهمة مراقبة، فأنت إذا تقوم بهذا الفعل الإرادي المقصود لذاته، ولو فتشنا عمن يستطيع أن يكون رقيبًا، لوجدنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: 1]
- ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 117]
- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: 52]

فجميع هذه الآيات تدل على أن الله هو من يستطيع أن يكون رقيبًا. لكننا يمكن أن نجد غير الله "رقيب" وليس "رَّقِيبٗا" كما في الآيات التالية:

- ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: 17-18]
- ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود: 93]

السؤال: ما الفريق بين من يكون "رَّقِيبٗا" مقابل من يكون "رقيب"؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) أن ما يميّز رقابة الله عن رقابة غيره هو أنه في حين أن الله رقابة الله شمولية (بالمطلق)، فإن رقابة غير شمولية ولكنها محددة محصورة. لذا، يكون الله رقيبا بينما لا يستطيع غيره أن يكون إلا رقيب فقط (ليس بالمطلق)، أي أن رقابة من هو "رقيب" مقيدة بشخص محدد بذاته أو مجموعة واحدة لا غير. فالرقيب العتيد –مثلا- تنحصر مهمته بشخص واحد فقط، لأن كل شخص لديه رقيب عتيد، فالرقيب العتيد الذي يتولى أمر شخص ما لا يتولى أمر شخص آخر غيره، لكن الله "رقيبا" بالمطلق، لأنه رقيب على الجميع جملة واحدة.

نتيجة مفتراة 1: رقابة الله مطلقة على كل شخص في آن واحد بينما رقابة غيره محددة بشخص واحد في الوقت الواحد.

ولو دققنا في الآية الكريمة الأخيرة هذه:

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣﴾ [هود: 93]

ربما يتبين لنا (كما نفهمها طبعًا) بأن الرسول يمكن أن يكون رقيب (وليس رقيبًا) لأنه ينتظر مع القوم الذين يرتقبوا أمرًا أو حدثًا واحدًا بعينه، ألا وهو قدوم العذاب.

نتيجة مفتراة 2: في حين أن رقابة الله مطلقة على كل الأحداث جملة واحدة في كل وقت وحين، فإن رقابة غيره محددة بحدث واحد بعينه في الوقت الواحد.

السؤال: ما هي الرقابة؟

رأينا المفترى: لا يمكن أن تكون هناك رقابة إلا باستخدام كل أدوات المراقبة جملة واحدة وبكامل قدراتها. فإن أنت أردت أن تراقب شخصًا ما، فعليك أن تلحظ كل تصرفاته بكل حواسك، وبمطلق إمكانياتك. لذا، نحن نتحدث مثلًا عن أنظمة المراقبة (أو شاشات المراقبة) التي من خلالها نحاول تتبع كل الحدث بكامل تفاصيله المرئية (البصر) والمسموعة (الآذان) والمفهومة (الفؤاد). ولا شك عندنا أن أدوات المراقبة هي إذاً السمع والأبصار والأفئدة. فمن أراد مراقبة شخص ما عليه أن يشغل كل هذه الأدوات جملة واحدة بكامل قدراتها الممكنة. وهذا الواجب يتولاه شخص محدد في الجيش يحمل رتبة "رقيب"، ويحمل شارة مكونة من ثلاث خطوط (انظر شارة الرقيب في كل جيوش الأرض). ليكون السؤال هنا لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن هذا الشخص مكلّف بمراقبة من هم تحت مراقبته من الجنود، بسمعه وبصره وفؤاده. لينقلها بكلّ دقّة ممكنة لمن هم فوقه من أصحاب القرار (كالضابط المسئول). لكن هذا الرقيب تنحصر مهمته بالمراقبة فقط. ومادام كذلك، فالضابط المسئول سيسأل هذا الرقيب عمّا رأى بأم عينه، وعمّا سمع بأذنه، وعمّا فهم (بفؤاده) ضمن معطيات الحال عن كل حادثة مكلّف هو (كرقيب) بنقل نبأها له (كضابط).

ولو راقبنا الطريق، لوجدنا بأن المسئول عن مراقبتها هو رقيب السير، فهذا الشخص (كرقيب) مكلّف بأن يراقب الطريق بسمعه وبصره وفؤاده. فلو حصل حادث ما على الطريق، فإنه سينقل خبره للضابط المسئول، فيخبره بما سمع من الذين اشتركوا في الحادث، وما رأى بأم عينه عن الحادث، وما فهم (بخبرته في ذلك) عن مجريات كل ما حصل.

وهذه هي – برأينا- الغاية من استخدام أدوات المراقبة (كشاشات المراقبة وبرج المرقبة ونحوهما) التي تُستخدم لتتبع تفاصيل ما يجري في مكان ما. فعند استخدام هذه الشاشات، تستطيع أن تسمع مجريات الأحداث، وتشاهدها بعينك، كما تستطيع أن تؤوّل الكثير منها بالخبرة حتى لو لم تكن واضحة على شاشة المراقبة ذاتها. فإن أنت شاهدت شاشة المراقبة التي تصور سطوًا مسلحًا على بنك مالي، فإنها ستتضح لك أحداثًا كثيرة أخرى لها علاقة بالحدث الرئيسي ذاته حتى لو لم تسجلها شاشة المراقبة مباشرة. فقد لا يظهر مثلاً اسم البنك الذي تم السطو عليه على شاشة المراقبة، لكنك تستطيع بكل سهولة (كمحقق) أن تعرف هذه المعلومة من مجريات ما يظهر على الشاشة ذاتها من طبيعة المكان والأشخاص الظاهرة مباشرة على

الشاشة. لذا، هي شاشة مراقبة. وكذلك هي مهمة برج المرقبة، فهو يحاول تسجيل المسموعات والمرئيات والمدركات في عملية تحليل البيانات التي يسجلها، ليتصدى لها الجيش بالطريقة التي يراها مناسبة حينئذ.

السؤال: وأين توجد أجهزة المراقبة هذه (السمع والأبصار والأفئدة) عند الشخص المراقب؟

(انظر الأجزاء السابقة عندما حاولنا التمييز بين القلب والفؤاد خاصة في قصة أم موسى)

- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: 10]

السؤال مرة أخرى: أين توجد أجهزة المراقبة هذه (السمع والأبصار والأفئدة)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن جميع أدوات المراقبة (السمع والأبصار والأفئدة) موجودة في الرأس الذي يعلو الرقبة.

ليكون السؤال الآن هو: ما هي الرقبة؟ ولماذا سميت رقبة أصلا؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن هذا العضو من جسم الإنسان سمي رقبة، لأنها العضو القادر على استغلال أدوات المراقبة الموجودة في الرأس كلها، فعندما تحاول مراقبة شخص ما أو حدث بعينه، فإنك تحاول تحريك رقبتك في كل الاتجاهات الممكنة، فالرقبة تعمل كالذراع الذي يحرك كمرة المراقبة في جميع الاتجاهات لالتقاط تفاصيل الحدث كلها، المسموعة منها (بالآذان)، والمرئية (بالأعين)، والمفهومة المتخيلة (بالفؤاد).

السؤال: لماذا الله وحده هو من يملك القدرة المطلقة على المراقبة لكل شيء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الله هو الوحيد القادر على المراقبة لكل شيء، لأن الله لا يغيب عنه شيء من التفاصيل في كل وقت وحين:

- ﴿۞ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]

لذا، كان الله علينا رقيبًا (مراقبة مطلقة):

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1]

وهو كذلك على كل شيء رقيبًا:

- ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: 52]

وهنا نعود إلى السؤال السابق: مادام أن الله على كل شيء رقيبًا، ومادام أن الله علينا رقيبًا، لماذا قال عيسى "فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ" كما جاء في جواب عيسى على سؤال ربه له:

- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: 117]

السؤال المربك: إذا كان الله هو الرقيب عليهم لمّا توفى المسيح، فهل كان الله رقيبًا عليهم قبل أن يتوفى المسيح ويرفعه إليه؟

رأينا المفترى الخطير جدًا: كلا. نحن نظن أن الله لم يكن ليراقب القوم مادام المسيح متواجدًا فيهم.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن المسيح بنفسه يستطيع القيام بهذه المهمة.

الدليل: دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في قول المسيح إلى بني إسرائيل كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]

السؤال: كيف نفهم أن عيسى كان يستطيع أن ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم؟ وكيف يكون في ذلك آية لنا إن كنّا مؤمنين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن المسيح كان قادرًا أن ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وذلك لأن المسيح كان يستطيع مراقبتهم. انتهى.

لو دققنا في الآية الكريمة السابقة جيدا، لوجدنا على الفور التالي:

- كان المسيح ينفخ في الطين الذي يجعله كهيئة الطير، فيكون طيرًا بإذن الله.
- كان المسيح يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله.
- لكنه كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم (ولم يكن ذلك بإذن الله).

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن المسيح (نحن نظن ربما مخطئين) كان بطبيعته قادرًا على أن ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم دون الحاجة إلى أن يأذن الله له بذلك. فهو كينونة قادرة على المراقبة الدائمة المطلقة مادام موجودا، وكان في ذلك آية لقوم يؤمنون. فمن كان مؤمنًا عليه (نحن نرى) أن يفهم قدرة المسيح على المراقبة هذه. فهو في نهاية الأمر كلمة الله وروح منه. انتهى.

السؤال: لماذا طلب المسيح أنصارًا له إلى الله؟ ولِم لم يطلب أنصارًا لله مباشرة؟

رأينا المفترى: إن صح افتراؤنا بأن الله لم يكن مراقبا للقوم مادام المسيح فيهم، كان المسيح يحتاج إذاً أن يأخذ معه من ينصره عند الله، لأنه يعلم أن الله – لا محالة - سيسأله عما قال لهم في الفترة التي لم يكن الله نفسه رقيبا عندما كان المسيح فيهم. ويكأننا نفهم (ربما مخطئين) بأن المسيح يطلب ممن حوله أن يكونوا له أنصارًا إلى الله عندما سيسأله الله عما قاله لهم في الفترة التي كان هو (وليس الله) مراقبًا لهم. فالقوم قد قالوا بأن المسيح هو الله، والقوم زعموا بأن الله ثالث ثلاثة. كان عيسى (نحن نظن) يريد منهم أن يكونوا أنصارًا له

عندما سيسأله الله إن كان قد قال لهم ذلك، ولينصروه بأن جلّ ما قاله لهم هو ما أمره الله به بأن يعبدوا الله وحده، رب المسيح نفسه وربهم أجمعين:

- ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: 117]

ولو دققنا في السياق نفسه، لوجدنا بأن الله يوجه السؤال له على أساس أنه عيسى ابن مريم وليس على أساس أنه المسيح عيسى ابن مريم، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: 116]

ليكون السؤال هو: لماذا؟ أي لماذا لم يخاطب الله عيسى بصفته المسيح ولكن خاطبه كعيسى ابن مريم فقط؟

رأينا المفترى: افترينا القول بأن المسيح هو حالة ما قبل ولادته، بينما عيسى هو حالة ما بعد ولادته. لذا، يستحيل أن يكون المسيح قد قال ذلك ما دام أنه الصفة السابقة لخلقه كبشري، فما تبقى إلا أن يسأله الله عن ذلك عندما أصبح مولودا بشريا.

السؤال: لماذا اختار الحواريون أن يكونوا أنصارًا لله وليس أنصارًا للمسيح إلى الله؟

رأينا المفترى الخطير جدًا: عندما أيقن الحواريون بأن المسيح لا محالة مرفوع إلى الله، كان علمهم مؤكدا بأن ذهابهم معه ستكون عاقبته العذاب الإلهي على الأرض كلها، وكان ذلك سيشكل نهاية رحلة البشرية على الأرض، والأهم من ذلك كله، كانوا يعلمون أن ذلك سيكون انتصارًا للشيطان ودحضًا للحق كله.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السنة الكونية هي على نحو أن الله - لا محالة- غالب ورسله:

- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: 18-21]

لكن هذا لا يمنع وجود من استحوذ عليهم الشيطان، فكانوا حزبه. فهؤلاء يحاولون جهدهم – ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا- أن يكسبوا الصراع، ولا يألون جهدًا بأن يحادوا الله ورسوله ما دام أنهم من حزب الشيطان، فهم يريدون أن تكون كلمة الذين كفروا هي العليا، لكن الله لا محالة جاعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا على الدوام:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

ولو دققنا في هذه الآية جيدًا، لوجدنا على الفور أن لله جنودًا يؤيد بهم رسله ليجعل كلمة الذين كفروا السفلى. فالذين حاولوا الحاق الأذى بالمسيح مثلًا، كان هدفهم الجلي أن يقتلوا المسيح، وهم يعلمون أن الرسول (أي رسول) لا محالة سيطلب من الذين آمنوا معه أن يخرجوا معه متى ما شارفت رسالته على نهايتها، فكان منطقهم (نحن نتخيل) على النحو التالي: إذا ما استطعنا قتل المسيح (بإخراجه من الأرض كلها)، فإنه سيضطر إلى أن يأخذ المؤمنين معه، فينزل العقاب على الأرض جميعا، فتكون تلك نهاية للخطة الإلهية كلها، وبكأنهم بذلك – هم يظنون- يدحضون الحق بأكمله جملة واحدة.

السؤال: هل يمكن أن يصل القوم إلى هذا النوع من التدبير والمكر لدرجة أن ينشدوا إنهاء الحياة كلها على الأرض حتى لو كان في ذلك نهاية لهم أنفسهم؟

رأينا المفترى: لمّا كان هؤلاء هم حزب الشيطان الذي استحوذ عليهم، ولمّا كان هؤلاء ممن يحادون الله ورسوله، لن يتوانوا (نحن نظن) عن محاولتهم إفشال "التدبير الإلهي" كله حتى لو كان جزء من ذلك على حسابهم، لأنهم بذلك سيكونون (حسب منطقهم) هم الرابحين.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم منطقك هذا (يسأل صاحبنا) مادام أن في وقوع العذاب الإلهي على الأرض نهاية لهم؟ ألن يكونوا من الخاسرين؟ ما هذا الهراء؟ يرد صاحبنا بنبرة المحاجج المنتصر.

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، لن يكونوا من الخاسرين حتى لو كان ذلك نهاية لهم، وذلك لأنهم (لو نجحت خطتهم) لن يتعرضوا للحساب من الله يوم تقوم الساعة على ما فعلوا في الحياة الدنيا أن استطاعوا دحر كلمته (لا قدر الله).

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما يحصل الصراع (أي صراع) بين طرفين، فإن الذي يحق له أن يحاسب الآخرين بعد نهاية الصراع هو المنتصر وليس الخاسر. فلم يكن هتلر – ولله المثل الأعلى- قادرًا أن يحاسب الآخرين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لسبب بسيط، ألا وهو أنه قد خسر الصراع. لكن تصور معي عزيزي القارئ – إن شئت- ما الذي كان من الممكن أن يحصل لو أن هذا الرجل قد ربح الحرب العالمية الثانية؟ ألن يجلب جميع خصومه للمحاكمة؟ لكن ما الذي منعه من فعل ذلك غير خسارته الصراع؟ من يدري؟!

لكن لما كان الله لهم بالمرصاد، ولما كان الله يعلم ما تخفي صدورهم من المكر والكيد العظيم، استخدم الله (نحن نؤمن) جنوده لإتمام كلمته لتبقى كلمته هي العليا، وليدحض بها الباطل، وليجمع الكافرين جميعا إلى يوم الحساب الذي لا ريب فيه، فكان هو من أوحى بنفسه للحواريين بأن يؤمنوا به وبرسوله:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

ولو دققنا جيدًا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن الله قد أوحى إلى الحواريين بأن يؤمنوا به أولًا ثم برسوله ثانيًا "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي". لذا، لم تكن هذه (نحن نظن) لتفوت الحواريين عندما طلب منهم المسيح أن يكونوا أنصارًا له إلى الله، فهم أنصار الله قبل أن يكونوا أنصارًا للمسيح. لذا، لم يكن جوابهم عندما طلب منهم المسيح نصرته إلى الله إلا أن قدموا نصرة الله على نصرتهم للمسيح، فجاء ردهم على النحو التالي:

- ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: 52]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: 14]

نتيجة مفتراة خطيرة جدًا جدًا: كان الحواريون هم جنود الله الذين نصروه.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: 7]

وما دام أنهم مؤمنون قد نصروا الله، فالله لا محالة ناصرهم، ومن هنا نستطيع أن نفهم آلية نصرة الله لهم عندما نستوعب أن الحواريين هم فتية الكهف أنفسهم.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالات كيف تم خلق عيسى بن مريم).

لكن ما يهمنا طرحه الآن هو آلية الاعتداء على التابوت حسب الخطة التي رسمها وحاول تنفيذها فريق من أهل الكتاب الذين كانوا من حزب الشيطان. ليكون السؤال الآن هو: كيف نفّذ القوم خطتهم بقتل المسيح عيسى ابن مريم كما رسموها؟

رأينا المفترى: لما كان هؤلاء القوم يعلمون أهمية وجود التابوت بالنسبة لعيسى بن مريم، كان العلم لديهم يقينًا بأنهم لن يستطيعوا قتل المسيح (أي ابعاده عن الأرض كلها) إلا بالاعتداء على التابوت. فكانت خطتهم مبنية على إلحاق الأذى بالتابوت حتى لا يعد صالحًا لأن يستخدمه المسيح في الوصول إلى الأرض، فيبقى معلقًا (مصلوبًا) في السماء. ونحن نتجرأ على البوح بظننا أن خطتهم في إلحاق الأذى بالتابوت كانت باستخدام الدم. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كان هؤلاء العلماء من بني إسرائيل من حزب الشيطان، كانوا يعلمون يقينا بأنهم لن يستطيعوا إلحاق الأذى بالتابوت بطريقة ساذجة، تبين للعامة من الناس من حولهم. لذا، يستحيل (نحن نرى) أن يحاول هؤلاء القوم اظهار نيتهم للناس علانيّة، لأن ذلك سيشكل خطرًا عظيمًا عليهم أنفسهم، وستفشل خطتهم على الفور، لأن العامة من الناس من حولهم سيتصدون لهم، لمنعهم من تنفيذ مكرهم وخداعهم. ولمّا كان هؤلاء من الذين يبطنون ما لا يظهرون، كان سلوكهم على نحو ما تصوره الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ [البقرة: 8-16]

نعم، هذه هي صفات هؤلاء:

- يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ
- يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ
- فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ
- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ
- وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ
- اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ
- أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

لو دققنا مليا في صفاتهم هذه، لوجدنا أنها لا تنطبق إلا على من كان من الذين يمكرون ويخادعون، فهم لن يألوا جهدًا في أن يظهروا للناس من حولهم أنهم معهم، ليرضوهم، لكن لن تخفى نواياهم (بأنهم ممن يحاد الله ورسوله) على من كان لهم بالمرصاد:

- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ۝٦٣﴾ [التوبة: 62-63]

وهؤلاء لا شك هم المنافقون حقًا. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في تتمة السياق القرآني ذاته:

- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ۝٦٣ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝٦٤ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝٦٦ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٦٧ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾ [التوبة: 62-68]

نتيجة مفتراة مهمة جدًا: نحن نظن أن هؤلاء المنافقين هم حزب الشيطان، وهم الذين يحادون الله ورسوله، وهم الذين يظهرون ما لا يبطنون، وهم الذين يحاولون أن يخادعوا الله والذين آمنوا (وما يخدعون إلا أنفسهم ولكن لا يشعرون). لذا، سيظهرون لعامة المؤمنين من حولهم أنهم معهم، وأنهم من الذين يحاولون أن يصلحوا في الأرض ولا يفسدون، وهم في الحقيقة الذين يبغون الفساد في الأرض ولا يصلحون. والهدف الرئيس من ذلك كله هو إرادتهم (المبطنة) ومحاولتهم البائسة بأن يطفئوا نور الله بأفواههم.

- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصف: 8]

السؤال: كيف سيحاولون تحقيق هدفهم (غير المعلن) هذا في حالة المسيح عيسى بن مريم؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القوم سيحاولون فعل ما قد يبدو للناس (في ظاهره) أنه خير، وهو في حقيقته ليس أكثر من الشر بعينه، عندها ستنطلي الخطة على العامة من الناس، وستنجح خطتهم (هم يظنون كما رسموها بالخفاء بعيدًا عن أعين الناس المباشرة.

السؤال مرة أخرى: كيف فعلوا ذلك؟ أو ما الذي فعلوه على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: لمّا كان هؤلاء القوم يعلمون قيمة التابوت في أعين الناس المؤمنين من حولهم، لم يكن أمامهم خيارًا إلا أن يتظاهروا بالإيمان العظيم، ويحاولون فعل ما قد يبدو للناس في ظاهره خيرًا وهو في الحقيقة شرًا لهم أجمعين. إنه القربان.

سؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كان هؤلاء يدركون قيمة التابوت، ولمّا كان هدفهم الحاق الأذى به، ولمّا كانوا يحاولون فعل ذلك دون أن ينكشف أمرهم للعامة، تسلحوا بالإيمان المصطنع بأنهم يعظمون التابوت أكثر من غيرهم. لذا، عليهم أن يظهروا للناس من حولهم تعظيمهم لهذا التابوت بشعيرة تقديم القربان عنده. إنه الغلو في الدين. انتهى.

تلخيص ما سبق: كانت خطة حزب الشيطان من شياطين الإنس على الدوام هي الغلو في الدين. فالشيطان لا يدعو أولياءه لأن يظهروا الكفر، ولكنه يدعوهم إلى الغلو فيه، وذلك لخداع العامة من الناس من حولهم. فهو الذي ألبسهم أدوات النصب من اللباس الذي يميزهم عن العامة، ليظهروا أنهم هم المؤمنون حقًا، وفي الحقيقة هم ليس إلا جزء من جنود إبليس، إنهم الذين يتصنعون الإيمان، وحقيقتهم أنهم حزب الشيطان، إنهم أهل الكهنوت الديني. فهم الذين غلوا في الدين ليستطيعوا تحقيق مآرب وليهم الشيطان، فلا ينكشف أمرهم للعامة من الناس من حولهم.

باب الغلو

تساؤلات

- ما هو الغلو؟
- ما معنى الغلو في الدين؟
- كيف يمكن أن يحصل الغلو في الدين؟
- ما الفائدة التي ينشدها الذين يغلون في دينهم؟
- الخ.

لو دققنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث حولها التالية:

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

لوجب علينا التفريق بين الغلو في الدين من جهة "لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ" وعدم القول على الله إلا الحق "وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ"، بدليل تجاورهم باللفظ بالعطف. وعند ربط هذا بتتمة السياق القرآني الذي يتحدث عن عيسى، يتوجب علينا الخروج بالافتراء التالي: أن بعض من أهل الكتاب قد غلوا في دينهم بينما قال بعضهم غير الحق، فجاء النهي الإلهي للطرفين "يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ".
فنحن نظن بأن الذين غلو في دينهم هم الذين بالغوا في وصف المسيح، فما كانت عقيدتهم على نحو أن المسيح ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، أما الذين قالوا غير الحق هم من قالوا صراحة بالتثليث.
الدليل: دعنا ندقق في مفردة الغلو (ومشتقاتها) كما ترد في النص القرآني. ففي الآيات الكريمة التالية

- ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: 64]

نجد الغلّ يتقابل مع البسط. لذا، في حين أن البسط يتطلب السعة، فإن الغل يحمل في ثناياه التضييق.
وربما يفسر هذا وجود الأغلال في الأعناق:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: 157]
- ﴿۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [الرعد: 5]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ: 33]
- ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١﴾ [غافر: 71]

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة عن معنى الأغلال)

ولو دققنا في قصة المسيح، لوجدنا أن الذين غلو في الدين قد ضيقوا من ماهية المسيح، فهم قد قالوا بأنهم قتلوا المسيح رسول الله:

- ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: 157]

ليكون السؤال: أين التضييق في ذلك؟

لو دققنا في قوله تعالى:

- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: 171]

لوجدنا بأن المسيح هو:

1. رَسُولُ اللَّهِ
2. وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ
3. وَرُوحٌ مِّنْهُ

لذا، كان لسان حال هؤلاء القوم ويكأنه (نحن نفهم) يقول بأن المسيح عيسى هو رسول الله، لكنه لا يقول بأنه كلمته وروح منه. ففي هذا (نحن نظن) تضييق في وصف حقيقة المسيح عيسى أبن مريم. وبالمقابل، كان قول الذين قالوا على الله غير الحق يمتثل بأنهم بالغوا في وصفه، فزادوا في وصف المسيح عما يجب، فرفعوه عن كون كلمة الله وروح منه إلى أن يكون ولد الله أو الله نفسه. ففي حين أن الطرف الأول قد غل، كان الطرف الثاني قد بسط أكثر مما يجب.

ولا شك عندنا أن مفردة الغلو لها علاقة بمفردة الغل، فمن كان في صدره غل، فهو من يشعر بالضيق من الآخرين. لذا، كان لزاما أن ينزع الغل من أهل الجنة، ليكونوا إخوانا على سرر متقابلين:

- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: 43]
- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: 47]

لذا، لم يكن للنبي (أي نبي) أن يغل:

- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: 161]

ولو دققنا جيدًا، لوجدنا بأن الغل عادة ما يكون للأعناق:

- ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: 71]

وأبسط ما يمكن أن نفهمه من ذلك هو أن العنق هو ما يرتفع من الجسم، فالذين يغلون هم الذين يكون اتجاه فعلهم إلى الأعلى. لذا، نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن الذين غلوا في المسيح هم الذين رفعوه إلى مقام أعلى مما يجب.

ولو دققنا في فكرة غلو الأسعار، لوجدنا بأن ذلك يعني الارتفاع في الثمن. لكن مما لا منازعة فيه هو أن في ارتفاع الأسعار تضيق على الناس، فالذي يرفع الأسعار أكثر مما يجب هو الذي يغلو، وهو إذاً من يرفع ثمن البضاعة أكثر مما يجب. فيثبط بذلك حركة السوق لعدم قدرة الأكثرية من الناس على شراء البضاعة غالية

الثمن. ولا شك أن الذي يرفع الثمن هو من يظن بأن سلعته أكبر أهمية وأكثر جودة من سلعة غيره. فلو سألت تاجرًا يطلب ثمنًا أعلى لسلعته، لبرر ذلك بارتفاع جودتها، مقابل قلة جودة سلعة غيره التي يظن أنها لا ترق لمستوى ما عنده من البضاعة غالية الثمن. فارتفاع السعر – بالنسبة له- مبرر بارتفاع الجودة.

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن الغلو يحدث برفع القيمة إلى الأعلى من أجل حد الحركة عن وضعها الطبيعي.

السؤال: ما هو الغلو في الدين؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياقات القرآنية التي تدعو إلى عدم الغلو في الدين، لوجدنا أن المتفننون به هم من أهل الكتاب. ولكن الملفت للانتباه في هذه الآيات الكريمة أنها جاءت كلها في سياق الحديث عن عيسى بن مريم، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: 171]

فهؤلاء هم من غلوا في المسيح بأن رفعوه أكثر مما يجب، فضيقوا في وصفه، مختصرين الأمر على كونه رسول الله، ربما منكرين (نحن نظن) كونه كلمة الله وروح منه، فظن العامة من الناس أن هؤلاء هم أكثر حبًا للمسيح (الرسول) من غيرهم، فما قالوا كلمة الحق بأن المسيح هو ليس أكثر من رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

ولو دققنا في السياق الآخر الذي ورد فيه النهي عن الغلو في الدين، لوجدنا ذكر المسيح فيه حاضرًا. ولكن ما يلفت الانتباه أكثر هنا هو أنهم كانوا يعتدون:

- ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة: 77-81]

السؤال: كيف كانوا يعتدون؟

رأينا المفترى: لقد اعتدوا على آيات الله.

السؤال: وما هي آيات الله التي اعتدوا عليها؟

رأينا المفترى: المسيح والتابوت

السؤال: كيف اعتدوا على المسيح؟

رأينا المفترى: بمحاولة قتله صلبًا

السؤال: كيف اعتدوا على التابوت؟

رأينا المفترى: بإلحاق الأذى به بالدم

السؤال: كيف نفذوا خطتهم؟

رأينا المفترى: بالغلو بالدين بأن قربوا له القربان

السؤال: لماذا فعلوا ذلك؟ أو ما فائدة فعلتهم تلك بالنسبة لهم؟ وكيف سيفيد ذلك في تحقيق مآربهم غير المعلنة؟

رأينا المفترى: لمّا كان هؤلاء من الذين يغلون في الدين، فقد ألبسوا أنفسهم (نحن نفتري القول) عباءة التدين الكاذب، واظهروا للناس من حولهم حبهم للمسيح أكثر من غيرهم، فما تبقى لهم إلا أن يحققوا ذلك عمليًا على أرض الواقع. فرفعوا مكانة المسيح أكثر مما يجب، فقال بعضهم أنه الله نفسه:

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: 17]
- ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: 72]

وقال آخرون منهم أنه ولد الله وابن الله:

- ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات: 151-152]
- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30]

وقال آخرون أن الله ثالث ثلاثة:

- ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: 73]

والهدف الأوحد من كل ذلك هو المباراة الكاذبة في حبهم للمسيح رسول الله وكلمته. فما كان من هؤلاء المغالين في الدين إلا أن يكتموا الأصوات القليلة الداعية إلى الحق (كصوت الحواريين)، فكانت لهم الغلبة الظاهرة، فما كان منهم إلا أن يبرهنوا للعامة من الناس حبهم للمسيح، فجاءت فكرتهم الشيطانية بالاعتداء على التابوت بتقديم القربان عنده (كما كان يفعل الوثنيون) من قبلهم:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: 30-31]

السؤال: لماذا نفذوا خطتهم باستخدام القرابين (الدم) كما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستغربا

رأينا المفترى: لمّا كان التابوت تحمله الملائكة:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

كان في علم شياطين الإنس أن الملائكة لا تحبذ الدم، ولا يمكن للملائكة أن تسفك الدم، بدليل جوابهم على أمر ربهم الأول بالسجود لآدم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

السؤال: ما الذي يمكن أن تفعله الملائكة (إن حصل سفك للدم) على التابوت؟ هل يمكن أن تبقى الملائكة تحمل التابوت مادام الدم المسفوك يملأه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا (لا تصدقوها): نحن نتخيل بأن الملائكة ما عادوا يستطيعون حمل التابوت المسفوك عليه الدم، فما كان منهم إلا أن يتركوا التابوت مادام أن أذى الدم قد لحق به. انتهى.

تساؤلات

- أين ذهبت الملائكة الذين كانوا يحملون التابوت؟
- ماذا حلّ بالتابوت نتيجة ذلك؟
- أين ذهب التابوت بعد ذلك؟
- هل يمكن للملائكة أن يعودوا ليحملوا التابوت من جديد؟
- الخ.

هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيق منه في الأجزاء القادمة إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه فيها.

دعاء: سائلين الله وحده أن ينفذ مشيئته وإرادته لنا الإحاطة بشي من علم فيها لا ينبغي لأحد غيرنا، إنه هو العليم الحكيم، وأدعوه وحده أن يؤتيني رشدي، وأن يكون لي هاديًا، وأن يجعل لي من لدنه سلطانًا نصيرًا، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو الواسع العليم.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & محمد معتصم المقداد
بقلم: د. رشيد الجراح 11 شباط 2020